

الْأَدْبُرُ

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب

العدد 103 صيف 2000 السنة الخامسة والعشرون



الطبب الجنبي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد 103 صيف 2000 السنة الخامسة والعشرون

المدير المسؤول

د. علي عقلة عرسان

رئيس التحرير:

فرو كيلاني

أمينة التحرير:

د. بشارة شعبان

هيئة التحرير:

د. جمال شحيد

د. ناديا خوست

د. عبد الله عبود

د. رفعت عطفة



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com رابط بديل



الادب الاجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب المغاربة بدمشق

الاشتراك السنوي

«الادب الاجنبية»

داخل القطر ١٠٠ ل.س
الاقنطار العربية للأفراد ٢٠٠ ل.س
او ١٠ دولارات أميركية
خارج الوطن العربي ٣٠٠ ل.س.
او ١٥ دولاراً أميركياً

الدوات الرسمية داخل القطر ٢٠٠
ليرة سورية

الدوات الرسمية في الوطن العربي
٢٥ ل.س او ٢ دولاراً أميركياً
الدوات الرسمية خارج الوطن
العربي ٥٠٠ ل.س او ٢٥ دولاراً
أميركياً

اعضاء اتحاد الكتاب ٥ ل.س

مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة
أشهر تهتم بنشر المواد المترجمة
من الأدب العالمي في مجالات
الشعر والقصة والمسرحية وغيرها
من صنوف الأدب الابداعي وكذلك
في مجالات النقد والبحث
الابدي .

* توجه جميع المراسلات باسم
أمانة التحرير .

* المقالات المنشورة في المجلة
لا تعبّر بالضرورة عن رأي
المجلة .

* المواد التي تتلقاها المجلة
لا ترد لاصحاحها سواء نشرت
أم لم تنشر .

دمشق - اوستراد الزرة

ص ٠ ب ٤٤٢

٦١٦٣٤٢

٤٣

٤٠

الراسلات

باسم أمانة التحرير

الادارة

اتحاد الكتاب العرب

E-mail : unecriv@net.sy

Internet :: aru@net.sy

البريد الالكتروني:

الانترنت :

تنويه

تعتذر هيئة تحرير الأداب الأجنبية عن قبول أي مادة غير مرفقة بالأصل الأجنبي. كما ترجو الهيئة من السادة المترجمين كتابة اسم المؤلف والمترجم وعنوان المنشاء والمرجع باللغة الانكليزية أو اللغة الأصلية التي كتب بها النص.

إلى

اللقاء

■ د. بثينة شعبان ■

بهذا العدد تختتم مجلة الآداب الأجنبية فصلاً آخر مشرقاً تواصلت به مع قرائها في مختلف أنحاء الوطن العربي، وحاولت جاهدة أن تقدم ما ارتأته مفيدةً ومحفزاً وتنويرياً من إنتاج عقول في لغات أخرى قد لا يتقنها القارئ العربي كما حاولت أن تلامس وتعكس آخر اهتمامات النقد الأدبي والقصة والمقال والشعر وإلى حد ما المسرح بين الفنية والأخرى. واستناداً إلى المساهمات التي تصلنا من أقطار عربية شقيقة والتي ازدادت كما ونوعاً في السنوات الأخيرة يمكن لنا أن نقول أن مجلة الآداب الأجنبية تؤدي دوراً هاماً اليوم على الساحة العربية وتعتبر قنطرة تواصل رئيسة بين المترجمين والمهتمين في الترجمة في الجامعات العربية وعلى امتداد الساحة الثقافية العربية. ولكن هذا لا يعني طبعاً أن المجلة لا تعاني مما يعاني منه الكتاب العربي من قطرية خاتمة غير أن جهود الاتحاد في إيصال المجلة إلى الأقطار العربية رغم كل الصعوبات جهود مشكورة بالفعل ولمسنا نتائجها الإيجابية والمثمرة منذ حين.

يساهم اليوم في الترجمة للمجلة أساتذة من الجامعات العربية من العراق إلى الجزائر والمغرب نعتز بمساهماتهم ونسعد لتوacialنا معهم وتواصلهم مع جماهير القراء على الساحة العربية ونؤدّي لو تسع رقعة التواصل لتشمل معظم الجامعات العربية والأقسام المهمة بالترجمة والمتربجين العرب في الساحة الثقافية العربية.

كما نتمنى أن تصبح المجلة في السنوات المقبلة منبراً حقيقةً ليس فقط لنقل ما تيسر من الآداب الأخرى وإنما أيضاً لوضع استراتيجيات عربية للترجمة ومناقشة وضع المترجم وأوضاع الترجمة وإيجاد الحلول اللائقة ورفد وزارات الثقافة والهيئات المعنية بالترجمة بالمقترحات والأفكار في كافة أنحاء الوطن العربي من أجل النهوض بالترجمة نهوضاً حقيقةً وعدم إضافة الجهود بين قطر وآخر وجامعة وأخرى نتيجة عدم التنسيق وعدم وجود خطة عربية واحدة ومتکاملة للترجمة في الوطن العربي. إنه لمن المنطقي جداً أن ينسق شعب يتكلم لغة واحدة خطظ الترجمة من وإلى هذه اللغة رغم اختلاف أقطاره ومؤسساته وجامعاته وإنه من غير المعقول أن يتخطى كل قطر بقوانين عشوائية للترجمة قد تتكرر هنا أو هناك أو لا تصل إلى القراء في بعض الأصقاع فتهدر الجهود وتضيع الموارد وينعكس هذا سلباً على الأداء وعلى قدرة حركة الترجمة العربية على المنافسة والصمود بين حركات الترجمة في العالم.

إنني وفي هذا العدد الذي يشكل نهاية مرحلة من تاريخ مجلة عزيزة على قلبي ووجوداني أناشد الجامعات العربية والهيئات الثقافية العربية أن تؤسس هيئة عليا للترجمة في الوطن العربي تقوم بدراسة العناوين المزمع ترجمتها وتتصدر نشرة دورية بالأعمال التي هي قيد الترجمة توزع على كل الجهات المعنية ويتم التعامل مع الترجمة

والمתרגمسين بغایة الجدية والمسؤولية وتعمل هذه الهيئة على توزيع الأعمال المترجمة في جميع أنحاء الوطن العربي كي يكون الجهد ناجعاً وكى تعم الفائدة على الجميع.

رغم المفهوم الشائع والذي يعتبر الترجمة إبداعاً من الدرجة الثانية فإن الترجمة عمل غيري يعبر عن روح إپثارية تكرس وقتها وجهدها لنشر أفكار وآراء الآخر وأدبه وهي أيضاً عمل صعب يتطلب درجة عالية من الإتقان والدقة ولذلك يجب تدريب المתרגمسين وتوفير المستوى المعيشي اللائق الذي يساعدهم على التفرغ وبذل الجهد والوقت اللذين يتطلبهما مثل هذا العمل.

في هذا العدد الذي يسبق المؤتمر العام لاتحاد الكتاب العرب نلقى نظرة وداع على مرحلة عشناها بفكونا وقلوبنا ومشاعرنا، مرحلة كان العمل بها تمريناً ذهنياً رائعاً بالإضافة إلى علاقات الزمالة والصداقـة التي نمت وترعرعت في كنف هذه المجلة. فقد أصبحت أمينة لتحرير مجلة الآداب الأجنبية حين كان رئيس تحريرها المغفور له الأستاذ عدنان بعجاتي في أواخر الثمانينات وأمضيت معه فترة عذبة من العمل والتشاور والتعاون. فقد كان المرحوم أدبياً دمثاً متواضعاً محباً بصمت وكان العمل معه متعة أيما متعة. ومن ثم انتقلت رئاسة التحرير إلى الأستاذ أنطون مقدسي والذي أغنى المجلة وأتحفها بمساهماته ومتابعاته وأفكاره. وكانت أدراجه لا تخل من أعمال درسها وأخرى قيد الدرس وخطة نفذها وأخرى قيد الدراسة. أسعدت بالعمل معه واغتنيت من معين خبرته وفكرة وعطائه. ومن ثم انتقلت رئاسة التحرير إلى السيدة قمر كيلاني والتي اعتبرتني بمثابة ابنة لها ولم تخرج علاقتنا عن هذا الإطار الجميل، كانت معطاءة ومحبة ومتابعة و كنت أتألم حين يشتبها المرض أو الألم عن إسعادنا بحضورها المشع.

واليوم ونحن نودع حقبة كاملة من عمر مجلة عريقة عربية في الهدف والتوجه نتطلع أن تزداد هذه المجلة في الألفية الثالثة ألقاً وأن ترسم لها الخطط كي تدخل كل بيت وتصبح غذاء حتمياً لاكتمال ثقافة العربي ول يكن العقد الأول من القرن الواحد والعشرين عقد استراتيجية موحدة للترجمة العربية ولتزad الآداب الأجنبية ألقاً وأهمية وفائدة في الحياة الثقافية العربية وإلى اللقاء في أي زمان وأي مكان وعلى أي منبر ننهض به بعمل عربي مشترك لأن هذا هو الطريق إلى حرية العرب ومستقبلهم ولا طريق سواه.



المقال

- 1- نحو استراتيجية قومية للترجمة في الوطن العربي،
بقلم: إسماعيل أبو البندورة.
- 2- أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة.
تأليف: وليم اليوت، ترجمة: الدكتور محمد علي داهش.
زيدان مال الله محمود الهواس.
- 3- من جانب الآخر الإبداعي "النقد البنوي". تأليف: آن مورال.
ترجمة: بريهمات عيسى.
- 4- غوته عالم طبيعة، بقلم: صلاح حاتم.

□

نحو استراتيجية قومية للترجمة في الوطن العربي

- الترجمة عامل توحيد قوي -

■ اسماعيل أبو البندوره ■

مقدمة:

التفكير في الترجمة باعتبارها عامل توحيد قوي يتطلب إعادة واستئناف النظر في القضايا التي تشكل العناصر الجوهرية لهذه الفرضية وهي الترجمة باعتبارها عملية ثقافية كبيرة تجري في السياق العام للثقافة العربية وتشكل نسقاً أساسياً من أنساقها، والثقافة العربية باعتبارها الإطار الكلي الذي يتوزع على مجموعة أنساق تتآزر لكي تكون إسراً لهذه الثقافة أو توليداً لإشكالياتها. وموضوعة الوحدة والتوحيد القومي ورساميكن اعتباره مرتكزاً أو محوراً يمكن البناء والتأسيس عليه لرسم الصورة الجديدة للأمة العربية الواحدة وكل ما يمثل دفعاً لعملية التوحيد القومي.

وبناء على ما تقدم يصبح المطلوب التفكير في الترجمة باعتبارها الأداة - الموضوع الذي يتم من خلاله التواصل مع الثقافات الأخرى وهي بهذه المثابة تعتبر عنصراً جوهرياً في فهم الآخر واستيعاب ثقافته واستلهام إدعااته وتوظيف ذلك في عملية المعرفة والنهضة القومية.

إننا إذن نجدد النظر في أطروحة توظيف عملية الترجمة في التوحيد القومي ونجد الحديث عنها باعتبارها تشكل مسألة أساسية في تجديد الفكر العربي وإثرائه وذلك لأسباب وجيهة ومتعددة أصبحت موضوعاً جوهرياً في الحوارات الراهنة حول واقع ومستقبل الثقافة العربية وارتباط ذلك بالنهضة وسبل مقاومة الفزو التقافي والآخرات المتعددة دور الثقافة العربية في إعادة الاستقرار والتوازن للإنسان والعقل العربي حتى يبدو مؤهلاً لمواجهة تحديات المرحلة القادمة.

إشكالية الترجمة

لعبت الترجمة وما ارتبط بها من بحث وتعريف ومتأفة وإعادة تكوين للفكر العربي دوراً بارزاً في مجال الثقافة العربية، وأنشأت لها مكانة مميزة داخل هذه الثقافة بحيث ساعدت على تشكيل الفكر العربي تشكيلًا عقلانياً وحداثياً عندما ارتبطت الترجمة بعملية نهضة علمية معرفية كبيرة ولم تكن مجرد عملية ثقافية مجردة كما أنه تم الإقدام عليها باعتبارها خياراً حضارياً وقراءة وتحدياً للأخر ومحاولة عقلانية لاختراق فكره ومعطياته المعرفية والعلمية بغية فهمها وتجاوزها أو على الأقل التحاور المتكافئ معها.

ولابد من التفريق بدايةً "ونحن نتحدث عن توظيف جديد للترجمة في خدمة التوحيد القومي" بين حركة ترجمة أقدم عليها العرب وهم في لحظة تفوق وتقدير علمي وحضاري وكانت بهذه المثابة خياراً نهضوياً مسؤولاً وبين حركة ترجمة في لحظة وعي بالتأخر وأصبحت تشكل ضرورة معرفية وقومية وفي مدار من التراجع والانحدار والتبعية السياسية والثقافية والاستسلام أمام معطيات الحضارة الغربية. كما لابد من الإشارة إلى أن الوعي بأهمية الترجمة قد ظهر في مراحل مختلفة من مراحل التطور الثقافي العربي وكانت هناك محاولات ودعوات لرسم استراتيجية قومية للترجمة إلا أن عوامل مختلفة وضاغطة وتشوهات ثقافية كثيرة برزت في الأفق الثقافي العربي "في لحظة انسداده" وعطلت هذه المحاولات أو جعلتها تتبقى أسيرة المؤتمرات والندوات المغلقة ولم تؤسس فعلاً ثقافياً قومياً ترافقها تبني المجال للبناء عليه وتطويره.

في اللحظة الثقافية العربية الراهنة التي تتبدل في أفقها غيوم التحديات لابد للترجمة أن تكون نسقاً بارزاً من أنساق تطوير الثقافة العربية وتتجديدها ولن

يتسنى لها احتلال مثل هذا الدور إلا بارتباطها باستراتيجيات ثقافية قومية ولابد أن تتبع عنها باعتبارها أداة مثاقفة وحوار مع الآخر وثقافته لكي تشكل في محاولة تجديد حضورها ووظيفتها إجراء معرفياً جديداً للثقافة العربية أو انطلاقة جديدة لها تعيد بناء وتوحيد كافة الخيارات الثقافية المتاحة لحماية ذاتها دورها ومعطياتها التوحيدية والوقوف بوجه محاولات تهميشها وشرذمتها أو تقليص دورها في استهانة الموقف القومي والإشارة إلى وجوده واستمراره.

فالترجمة لابد أن ترتبط بحالة وداع نهضوي وبوظيفة قومية استهاضية توحيدية باعتبارها عملية ثقافية كبرى ارتبطت في تاريخ العرب بتحدي الآخر ومحاولاته فهمه وقراءة ثقافته وفكرة في هذه المتابعة كانت ولا تزال أداة لحوار الثقافات وتعزيز الأبعاد الحضارية للفكر العربي.

إلى هنا نتوقف لكي لا نكرر الكلام حول أهمية الترجمة قديماً وحديثاً أو لكي لأنعيد إنتاج مقولات مكررة ومكرسة وجري الحديث عنها في كتابات وندوات سابقة لكي نصل إلى قضية جوهيرية قوامها:

أن هناك فجوة هائلة بين ماتنتجه ثقافتنا العربية وثقافة الغرب بحيث أن الأمر أصبح يتطلب تفكيراً جدياً ومسؤولاً في هذه المسألة المعرفية الهامة بحيث أن ذلك يستدعي ترجمة آلاف الكتب في مجالات المعرفة المختلفة والتي شكلت القطعيات الكبرى في مجال الفكر الغربي وتبعد على مدار مئتي عام حتى تستطيع ثقافتنا أن تتفق وثقافة الغرب على صعيد متكافئ وحتى نتمكن من الإعلان عن اندماجنا في مسائل العصر وإشكالياته.

هذا التخلف الثقافي وتحديداً في مجال ترجمة الأفكار التي أصبحت تشكل الفضاء الذي تحرك فيه الفكر طوال القرن العشرين، لا يمكن تجاوزه إلا من خلال تفكير استراتيجي قومي يحدد المجالات التي يجب على الثقافة العربية أن تترجمها وتسنوا بها حتى تخرج من إعاقتها المعرفية وتعانق قضايا العصر.

إن كل ما نقدم يقدم الإيحاءات الضرورية لكي تبدأ فينا عملية مراجعة نقيدة كبيرة لمسألة الترجمة في الوطن العربي وتتجدد الحديث عن دوافعها القديمة وإسهامها في تكوين الفكر العربي والتركيز على سياقات الترجمة التي جاءت بدوافع جمالية حيناً أو أيديولوجية حيناً آخر والقصور الكبير في الترجمة التي

انطلقت من دافع معرفي ونهضوي، وتجديد وظيفتها وربطها بغايات توحيدية - نهضوية -

وأي مراجعة لواقع الترجمة لابد أن تعودنا للحديث عن قضية فوضى الترجمة في الوطن العربي وتأثيراتها السلبية على مجلل الثقافة العربية.

وموضوع فوضى الترجمة يوقدنا بالضرورة أمام مسألة الاستباحة القطرية للثقافة وضعف التوجه والبعد القومي فيها والذي جاء نتاجاً طبيعياً للسياسات القطرية التي استسلمت تماماً لمعطيات الحاضر الراهن وابتعدت حكماً وخياراً عن الربط بين التوجهات الثقافية للقطر ومحددات الثقافة القومية وضروراتها.

وفوضى في مجال الترجمة يمكن تناولها من عدة زوايا وعلى مستويات مختلفة للحد من آثارها ووقف تأثيراتها السلبية على الثقافة القومية ويمكن البدء بـ:

- التنسيق العربي الثنائي والجماعي في مجال الترجمة.

- وضع خطة عمل لنقد وإصلاح واقع الترجمة في الوطن العربي.

- الوصول إلى استراتيجية قومية للترجمة في الوطن العربي.

وهذا التدرج يملئ الواقع القطري الراهن الذي أصبح لا يقبل على التوجهات القومية بصيغتها الشمولية والجزئية ويقبل دفعاً للحرج بإجراءات وسيطة وأولية قد تصل إلى مآلها النهائي إلى صيغ استراتيجية شمولية.

نقول ذلك ونحن نفك بالنداءات والندوات السابقة التي لم توفق في تحقيق نجاحات لافتة على صعيد التنسيق ووقف الفوضى واستهانة حالة معرفية جديدة في مجال الترجمة ومن خلالها:

إذن لابد على هذا الصعيد من تحقيق الأمور التالية:

1- نقد وتحليل واقع الترجمة في الوطن العربي.

2- قراءة الخارطة العالمية للفكر لتحديد الحالات الضرورية التي يجب ترجمتها بغية تشكيل الفكر العربي المعاصر عقلانياً وحداثياً ولردم الهوة بين فكرنا وفكر الآخرين.

3- إيجاد نمط من التنسيق بين مراكز الترجمة في الوطن العربي لوقف فوضى الترجمة.

4- وضع استراتيجية عقلانية للترجمة بحيث تضع أمام المתרגمين العرب الأهداف القومية والمعرفية الضرورية لعملية الترجمة وما يجب أن يشكل غاية تنهضوية للترجمة.

٥- وضع قضية الترجمة في مدارها الثقافي الحقيقي باعتبارها أداة وعنصراً من العناصر الهامة لتجديد الثقافة واللغة العربية والحوار مع الثقافات.

بـ- الواقع الثقافية العربية والتحديات التي تواجهها

إننا نتحدث عن الترجمة باعتبارها نسقاً أو سياقاً من سياقات الثقافة العربية، ولذلك فإننا حديثاً عن إشكاليات الترجمة يصبح مجزوءاً إذا عزلناه عن أزمة الثقافة العربية وتعاملنا بانفصال عنها، فالترجمة بهذه المثابة تمثل انعكاساً لواقع الثقافة العربية الراهنة ولا تشكل مجالاً خاصاً يمكن تناوله بمعزل عن هذه الثقافة فهي (أي الترجمة) عملية ثقافية كبيرة في سياق الثقافة العربية.

النفافة العربية بواقعها الراهن تواجه تحديات متعددة خارجية وداخلية.

التحديات الداخلية تتمثل بـ:

الأمية.

- الاستباحة القطرية.

-القصور الذاتي.

الآمِنة

نصف أبناء الأمة العربية أميون (مع ملاحظة أنماط جديدة من الأمية لدى بعض قطاعات الشعب العربي الذي تعرض للحروب والحصار).

فكيف يمكن أن نتحدث عن تراثاً عربيةً قوميةً في مناخ من الانقطاع والعطالة الفكرية والأمية والجهل؟ إنها مسألة يجب أن تبدأ منها البدایات إذا أردنا التفكير بالتراث باعتباره عاملًا قوميًّا معنوًياً هاماً للتوحيد وصياغة العقل والوجدان القومي الموحد.

الأمية بامكاناتها السلبية النابذة تقلص مجال تأثير الثقافة والتواصل الثقافي لابل إنها تتتج جمهوراً مؤهلاً لانتقاط هجمة الغزو والاحتراق الثقافي، وهي أمية كما نرى تكبر وتتضاعف ولا تقلص. هذا إذا اقتصرنا الحديث على الأمية التقليدية دون الأمية الأكاديمية والعلمية المساعدة والشائعة.

فلا ثقافة قومية (ولا أمة ثقافية) بدون مناخ ثقافي مؤهلاً لانتقاط صبوات ونداءات هذه الثقافة القومية والأمية تصبح بهذه المثابة صحراء الثقافة التي ستتحول إلى بريء موحش لا يسمح فيها نداء الثقافة القومية الواحدة. إذن علينا إبراز مسألة الأمية وإدراجهما ضمن الأجندة الاستراتيجية الكبرى لثقافتنا القومية الطامحة إلى التوحيد السياسي.

الاستباحة القطرية:

في عملية أو محاولة "تقويضها" أصبحت الدارة القطرية تجذر بعض معطياتها الثقافية الوهمية أو الموهومة باصطدام تاريخ ثقافي "انفصالي" حتى تقدم إيحاءات بالاستقلال والاكتمال في آن واحد.

وأدلت هذه العملية إلى استباحة مجالات مختلفة من مجالات الثقافة وتحديداً في مجال الترجمة عندما طلبت احتياجاتها الذاتية أن تترجم أو تدخل في فوضى ترجمة عنوانها البحث عن الذات ولا علاقة لها بالخيارات الثقافية الاستراتيجية للأمة وإنما كانت عنصراً من عناصر إيمانها بوجودها المتضخم فتبعدت لها عملية الترجمة انحيازاً للموقف التجزئي القطري وتأكيداً له وربطت ذلك بخياراتها التبعية للثقافة الامبرialisية وحولت بذلك عملية المثاقفة إلى عملية اختراق واستتباع وقبول بفكر الآخر دون تمحيص.

النفي القطري للثقافة العربية الواحدة أصبح يتمظهر بعده صور وأشكال:

- إنشاء مناخ تفكير انعزالي محدود بحدود القطر.
- إضعاف التوجه النقابي القومي بإشاعة ثقافة قطرية.
- تقليل مساحة التفاعل الثقافي والتنسيق بين أقطار الوطن العربي.
- تقويض الدولة القطرية بأطروحتات خاصة توكل الاقتراض السياسي والمشروعية الدولانية.

■ الترجمة عامل توحيد قوياً ■

- الاندغام في الدعوات العالمية الجديدة الداعية إلى تقليل دور الثقافات الظرفية.
- الخضوع المطلق في المجال الثقافي للمعطيات الدولية الجديدة الداعية إلى الانسحاق والتبعية.
- الانطلاق من الواقع القومي الانحطاطي الراهن باعتباره نهائياً ومغلقاً ولا يجوز التفكير بتجاوزه وتغييره.
- تقديم فكر القطر على فكر الأمة.
- عدم الاتساق بين المزاعم القومية والسلوك القطري ذلك أن الزعم بأن القطر جزء من الأمة العربية يستدعي سلوكاً سياسياً وثقافياً يقدم الكل على الجزء أو يجعل الكل ضابطاً للجزء ومحدداً لحركته.

القصور الذاتي

وهو يتمثل الآن بتأثير الثورات الإعلامية والمفاهيمية على الثقافات الكونية وعدم الانشراك مع هذه التحولات في هذه المجالات وبالتالي الواقع في براثن هذه الاندفاعات الثقافية الكبرى من خلال: الرفض العدمي لها أو الاستسلام الكامل لمعطياتها بحيث يتحول الأمر إلى قبول بالتبعية والغزو وتكريسه وعدم الوقف بوجه اندفاعاته.

إن ذلك يجعل الثقافة العربية إما أن تكون مستقبلة ومتلقية أو يجعلها تعيد إنتاج معطياتها واجترار محاولات وطرح إشكاليات زانقة هدفها تأكيد الذات وليس وعي الذات وهذا بدوره يؤدي بالثقافة إلى الانسداد والتأخر عن إدراك أسئلة العصر.

فإذا كانت ثقافة الصورة التي تطرحها الثقافة الغربية راهناً وتنفتح وتهيمن من خلالها على فكر العالم وعقله تطرح تحديات حقيقة على ثقافتنا بما الذي تقوم به الثقافة العربية راهناً لمواجهة مثل هذا التحدي ووقف إثارة السلبية على تشكيل فكرنا العربي المعاصر.

إن ذلك يشير إلى اختلال في موازين القوى الثقافية بيننا وبينهم لكن ذلك لا يمنع من اجتراح مكنات نواجه بها مثل هذه الطوارئ والتحولات الثقافية

بطريقة لاتجعلنا نضعف أمام وهجها ونفكر بمواجهتها وتعطيل آثارها العنفية على تقاوتنا.

2-أما التحولات الخارجية فتتمثل بـ:

- 1-العولمة والهيمنة الثقافية.
- 2-الغزو الثقافي الصهيوني.

العولمة والهيمنة الثقافية:

وتقوم ادعاءاتها على:

-إنشاء ثقافة كونية موحدة.

-توحيد الحوار العالمي من خلال توليفات فكرية مختلفة (نهاية التاريخ /صراع الحضارات /الطريق الثالث)

-عدم الاعتراف بالهويات الثقافية القومية.

أما عملية مواجهة المؤثرات السلبية فإنها يمكن أن تتم في تقاوتنا العربية على النحو التالي:

-في البدء رفض الأبعاد العدوانية لثقافة الهيمنة واعتبار ذلك عنف ثقافي لابد من مواجهته.

-الدعوة إلى حوار الثقافات بمواجهة صراع الثقافات.

-إبراز دور الثقافات القومية في صياغة الوعي العالمي وإبراء التسوع والتعددية والانتباه إلى استيقاظ القوميات في نهاية القرن الحالي وليس موتها.

الغزو الثقافي الصهيوني :

وهو تحد كبير لتقاوتنا في المرحلة الراهنة أصبح يحتل أهمية مميزة بعد توقيع معاهدات الإذعان معه وبعد أن جددت الصهيونية ذاتها بمعطيات "ما بعد صهيونية" أسممت في تضخم وتجدد المطالبة الصهيونية باختراق الثقافة العربية

وثوابتها ومفاهيمها الراسخة والنافية للصهيونية فكراً وكياناً وواقعاً من خلال طرح مفاهيم جديدة في إطار الثقافة العربية وإزالة كل آثار العدوان الصهيوني على الثقافة العربية قديماً وحديثاً.

وأصبح ذلك يستدعي في الأطر الثقافية إخراج الكيان الصهيوني من دائرة الآخر الذي نسعى للحوار معه، واعتبار الكيان الصهيوني كياناً تأسس على الأسطورة الاتاريخية - العدوانية - الإنسانية والنافية للأخرين.

- عدم تشويه الثقافة العربية بإدراج مفاهيم شاذة في سياقاتها المفهومية فالوطن العربي لا يكون شرق أو سطاً والقومية هي الرابطة التي تربط الأمة والوطن العربي ولا ترتبط الجغرافيا أو الاقتصاد مجرداً من الهوية القومية.

التوحيد القومي

أما التوحيد القومي فإن التفكير في عناصره يجب أن يقدم كافة المسائل وذلك لأن الوحدة هي إحدى حقائق الوجود العربي الهمة التي يجب أن تتمحور حولها الجهود والمحاولات. لكن التوحيد القومي أصبح يواجه حقائق وتحديات كبيرة الأمر الذي أصبح يستدعي نقد فكرته وتتجدد رؤيتها وتحويل التفكير فيه إلى برنامج عمل يمهد المسائل أمام الإنسان العربي وعقله من أجل الالتحام به وابتداء لحظة جديدة في تطوره التاريخي.

ونرى الآن مجدداً أن تعثر مشاريع التوحيد القومي كانت بسبب عمليات نفي متعددة خارجية وداخلية.

فالثابت أن النفي الخارجي المتمثل بالاستعمار ودعاته وفكره وفي كافة مراحله كان ولا يزال عنصراً جوهرياً في تعطيل وحدة العرب لكنه لم يكن لينجح في مسعاه لو لا توفر قابليات داخلية لتعطيل الوحدة.

والآن يأخذ النفي الخارجي للوحدة أطواراً جديدة فهو الآن قضية جوهرية في فكر الغرب وأمريكا وهو موضع استهداف بالإلغاء والإفتاء بپراز مشاريع جديدة، وهكذا يجدد الخطاب الغربي نفيه للوحدة العربية بالحالات ومقولات جديدة تتمثل بالعولمة - وفوق القومية - وموت القومية العربية، واصطناع أطر جديدة لاتقون على أساس قومي وإنما على أساس اقتصادي أو جغرافي مثل الشرق أو سطية.

وإذاء ذلك فإن أسلوب المواجهة والخطاب القومي لابد أن يأخذ ذلك في الحسبان وأن يتطور نظريته وأدواته المعرفية حيث يؤكد حضور الفكر الوحدوي و يجعله عنصراً من عناصر الحضور في الفكر العالمي بالتأكيد على إنسانيته وديموقرaticته ورغبتها في تكوين إنسانية جديدة نافية للهيمنة والأمركة.

وما النفي الداخلي فهو الوجه الآخر للمسألة التي تعيق التوحيد القومي وهو يتمثل بالتجزئة وترسخ وتضخم الدولة القطرية وفشلها في أن واحد في تحقيق أهدافها في التنمية والاستقلال وقبولها بالتبعية والانسحاق بدلاً عن التفكير بالوحدة. وتحقيق التجزئة بهذا الشكل الشاذ والالتباسِ أصبح التحدى الأكبر الذي لابد من مواجهته والتفكير في معطياته تفكيراً متقدماً ونقياً.

التوحيد القومي في المرحلة الراهنة يطرح على الأمة عملية حضارية كبرى تنطوي على الاجتهد والتجدد والاستقلال ورفض الهيمنة والتجدد الحضاري وهو سؤال المرحلة الجوهرى الذي قد يضعها أمام واقع جديد فيه نقد ونفي وإعادة فك وتركيب وبناء للسؤال القومى بشموله.

■ ■ ■

أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة

بقلم: وليم البوت

ترجمة: الدكتور محمد علي داهش

■ زيدان مال الله محمود الهواس ■

لقد حكم المسلمون جزءاً مهماً من شبه جزيرة أيبيريا منذ فتحها عام 711م، حتى سقوط غرناطة عام 1492م. وامتدت رقعة حكمهم لتشمل أراضي إسبانيا والبرتغال الحاليتين. إذ استطاع الحاجب المنصور في عام 997م. فتح (سانتياغو دي كومبيلا) وهي أكثر المواقع قدسيّة في أوروبا المسيحية. وكان لهذا الامتداد الإسلامي أثر فعال في تاريـخ إسبانيا. وسنحاول في هذه الدراسة أن نلقي الضوء على إسهامات اللغة العربية في تطوير اللغة الإسبانية المعاصرة.

إن أولى تأثيرات اللغة العربية التي تركت بصماتها على اللغة الإسبانية المعاصرة تكمن في أسماء المناطق، التي حملت أسماء القادة العرب المسلمين الفاتحين فالجزيرة التي عسكرت فيها أول قوة استطلاعية إسلامية عام 710م سميت باسم قائد تلك الحملة (طريف بن مالك)، كما أطلق على الجبل الذي مرت به قوة الفتح الرئيسية التي دخلت إسبانيا عام 711م، بقيادة القائد العربي المسلم (طارق بن زياد) بقمة جبل طارق، وهكذا أطلقت أسماء عربية على كل الأراضي التي تم فتحها في ذلك الحين. فالأندلس هي الأصل العربي لكلمة أندلوسيا

2-. الإسبانية المعاصرة، وتمكن العرب المسلمين بعد معركة حاسمة امتدت سبعة أيام قرب نهر البربراط من بسط نفوذهم على إسبانية الغربية كلها، وفتحت المدن الإسبانية الأخرى أبوابها للعرب المسلمين دون مقاومة³. وهذا فإن معظم المدن الرومانية القديمة عاصرت الفتح الإسلامي على الرغم من تغيير أسمائها ويوضح الجدول التالي التعریب الذي طرأ على بعض الأسماء اللاتينية التي كانت سائدة في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي:

1 - الاسم اللاتيني قبل الفتح .	2 - الاسم العربي بعد الفتح.	3 - الاسم الإسباني المعاصر
Cortuba	قرطبة	Cordoba
Carthago Nova	قرطاجنة	Cartagena
Hispania	أشبيلية	Sevilla
Caesaraugusta	سرقسطة	Zaragoza
Valetia	بلنسية	Valencia

على حين بقيت العاصمة الغربية القديمة على اسمها القديم إلى حد ما وهو (Toletum) وهو تصغير لاسم العربي (طلیطلة)، الذي أصبح فيما بعد (توليدو)، اسمها المعاصر. أما المدن والمناطق التي أقامها العرب المسلمين الفاتحون فقد أطلقوا عليه أسماء عربية مثل (الجزيرة الخضراء)، التي اشتق منها الاسم الإسباني المعاصر (Algecirs) و(المرقب)، الذي اشتق منه الاسم الإسباني الحديث (Almeria). واتخذت الطواهر الطبيعية في إسبانيا. كالأنهار، الجبال، أسماء عربية أيضاً (فالنهر الكبير لقرطبة وأشبيلية)، أطلق عليه بعد الفتح اسم (الوادي الكبير)، الذي اشتق منه الاسم الإسباني المعاصر (Guada Iguivir). وفضلاً عن ذلك فقد اتخذت مجموعة من المناطق أسماءها من أسماء سكانها الجدد من العرب والبربر. مثل (غامق Ghafiq) في قرطبة و(مكناسة Miknasa)، في (الأراغون Aragon)، كما اتخذت أكثر المناطق في (بلنسية Valencia)، أسماءها من أسماء القبائل العربية التي تسبيق عادة بكلمة (بني)، ومن الأمثلة المعاصرة على ذلك (بني دورم Benidorm).

وعامل العرب المسلمون الفاتحون الأندلسيين الذين كان تعدادهم آنذاك ستة

■ أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة ■

ملايين نسمة 4، معاملة حسنة 5. ولم يصب الأندلسيين أي حيف ديني أو اقتصادي من جانب العرب الفاتحين. إذا ازدادت أرباح سكان الأندلس بصورة عامة واليهود منهم بصورة خاصة، أثناء الحكم العربي، مما كانت عليه إبان الحكم الغربي. كما كانت الحرية في تكلم اللغات في الأندلس واسعة جداً إبان الحكم العربي، على الرغم من أن لغة البلاد الرسمية كانت اللغة العربية 6. فقد كانت البربر يتكلون لغة خاصة بهم تسمى (الجرابيا Algarabia) 7. على حين تكلم الرهبان المسيحيون اللغة اللاتينية. فانجذب الإسبانيون. بفعل تلك الظروف المزدوجة إلى الدين الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية، وتزاوج عدد هائل من الأندلسيين مع العرب المسلمين وبدأوا يتكلون اللغة العربية واعتنقوا الإسلام أيضاً. واستعملت كلمة (مولد) التي اشتقت منها كلمة (muladi) للدلالة على الإسباني الذي اعتنق الإسلام. وازداد عدد هؤلاء (المولدين muwalladu'm)، حتى أصبحوا الأغلبية الساحقة في إسبانيا. كذلك استخدمت كلمة (مستعرب)، التي اشتقت منها كلمة (mozarabe) الإسبانية للدلالة على المسيحيين المستعربين، الذين لم يعتنقا الدين الإسلامي، إلا أنهم انجذبوا إلى النشاطات والمؤسسات الإسلامية. وعد أكثر هؤلاء عرباً.

أن أهم ما جنته إسبانيا من الفتح العربي الإسلامي هو تغيير النظام الإقطاعي الإسباني، على عكس ما كان عليه الحال في أوروبا العصور الوسطى في هذا المجال. إذ عمل الاتجاه الإسلامي والسلطة العسكرية المركزية على إزالة أي دافع لدى الإسبانيين للعودة إلى النظام الإقطاعي في الجانب المالي والاقتصادي. وتوضح العبارات الآتية دور العرب المسلمين في تشجيع الزراعة في (أندلسيا) الخصبة. وعملت هذه القاعدة الزراعية النشطة على تشطيط الصناعة في المدن الأندلسية. فضلاً عن ازدهار تجاراتها في حوض البحر المتوسط، فنزوء العرب لحياة المدن جاءت متساوية مع رغبة الرومانيين المدنيين في إسبانيا 8. وساعدت إسبانيا كثيراً في الابتعاد عن النظام الإقطاعي الأوروبي.

وظهر تأثير اللغة العربية في اللغة الإسبانية جلياً في المفردات اللغوية وأورد أن أوضح في هذا المجال ملاحظة عامة، هي أن اللغات عادة تستعير المفردات اللغوية غير أنها لا تستعير قواعدهذه المفردات النحوية من اللغات الأخرى 9. فقد كانت اللغة الرومانية العامية هي السائدة في إسبانيا عام 711م، والتي قواعدها

النحوية لاتينية إسبانية محورة، قبل وصول الإسلام إليها. وعمل الاتصال اللاحق بينها وبين اللغة العربية بصورة رئيسة في إغناء المفردات الإسبانية المعاصرة 10-. فالمفردات الإسبانية المعاصرة التي تبدأ بالحرف (a) خير مثال لتأثير اللغة العربية. فقد أوضحت الطبعة التاسعة عشرة لكتاب Diccionario de la lengua Espanola على سبيل المثال، (600) مفردة إسبانية تبدأ بالحرف (a) والتي جلبت مباشرة من اللغة العربية، على حين خصص (دوزي Dozy) في كتابه الموسوم Glossaire des Most Espagnol Set Portugais est de l'Arab (221) صفحة من أصل 375 صفحة للمفردات التي تبدأ بالحرف (a) وهناك توضيح بسيط لهذا الكم الهائل من المفردات التي تبدأ بالحرف (a).

وهو أن أداة التعريف (الـ) العربية قد بقت في كثير من حالات اللغة الإسبانية المعاصرة. ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن هذه الأداة العربية تحور عندما ترتبط بكلمة تبدأ بحرف شمسي ساكن. وما زال هذا القانون منعكساً في استعارات اللغة الإسبانية. وهكذا مفردة (الربض) العربية قد انتقلت إلى الإسبانية لتكون (arrabal) وليس (rabal) على حين لم تتغير أداة التعريف العربية الاعتيادية عندما استعملتها اللغة الإسبانية مفردة (المخدة)، قد أصبحت في الإسبانية (ammohada) وليس (al). حتى أن أداة التعريف العربية قد ساعدت اللغة الإسبانية في اتخاذ أداة للتعريف (في حالة المذكر فقط). وهكذا فقد انتقلت الأداة العربية (الـ)، إلى الإسبانية بطريقة غير مباشرة إلى الأداة (el)، وهذا التطور في الأداة قد جاء من الأداة اللاتينية (ille) من خلال تقوية الأداة الإسبانية (el) بوساطة الأداة العربية (الـ).

وبناءً على ما نقدم فقد اتخذت بعض الأسماء الإسبانية المذكورة أداتين من (الـ) التعريف مثل مفردة (al) الإسبانية والتي تعني (العرض) العربية، وتعني لغوياً (العرض العسكري)، فالاداة الأولى هي المفردة الإسبانية تمثل الجانب النحوي على حين تستعمل الثانية لأصل المفردة وتاريخها (الاتيمولوجي). ويقال الشيء نفسه عن أداة التذكير في اللغة الإسبانية مثل (un alarde) التي يمكن أن تعني (العرض العسكري) أيضاً... وإذا ما تجاهنا هذه التقاضيات الأكاديمية، فلا يوجد أي اضطراب في اللغة الإسبانية المعاصرة.

يتضح مما نقدم أن الأغلبية العظمى من المفردات الإسبانية المشتقة أو

■ أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة ■

المأخوذة من اللغة العربية، هي مفردات تبدأ بالحرف (a) وهكذا فمن الضروري ذكر هذه المجموعة من المفردات الإسبانية التي استعارتها من اللغة العربية، فمن بين 640 مفردة إسبانية تبدأ بالحرف (a) فإن التصنيف التقريري للمفردات المشتقة هو كما يأتي:

- 1 - المصطلحات الزراعية / 225 مفردة.
- 2 - المصطلحات العلمية / 65 مفردة.
- 3 - المصطلحات المعمارية / 50 مفردة.
- 4 - المصطلحات الرسمية والعسكرية / 50 مفردة.

أما ما تبقى من الاشتقات فيتعلق بشكل واسع بشؤون العادات الإسلامية، والدين، والتاريخ، والملابس، ومن الأمثلة هذه الاشتقات مفردة 'adarme' الإسبانية التي تعني (الدرهم)، بالعربية، و(ajedrez) التي تعني (الشطرنج)، و(God) التي تعني (الله)، و(alborbola) التي تعني (الولولة)، والـ(albornoz) وتعني (البرنس)، والـ(alchuete) وتعني (القواد)، والـ(algoritmo)، وتعني الخوارزم ويعنون بها الرياضيات.

لقد كثف الإسبانيون المسلمين أنفسهم للروح الأندلسية المحلية. واستمروا على حساسيتهم من الارتباط بالزراعة وازدهار الحياة المدنية. وهكذا فإن تشجيع العرب المسلمين للزراعة كان وراء هذا العدد الهائل من المصطلحات الزراعية العربية في اللغة الإسبانية، وبصورة خاصة في مجال الري وتطويره والاختراع المستمر في هذا المجال. ويوضح الجدول الآتي بعضًا من المفردات المتعلقة بالشؤون المختلفة في مجال الري:

الأصل العربي للمصطلح	الاشتقاق الإسباني	المصطلح باللغة الإنكليزية
السانية	Acéna	Water – Wheel
الساقية	Acequia	Irrigation Canal
الدور على الماء	Ador	One's Turn for Water
الدف.	Adufe	Sluice

المصطلح باللغة الإنجليزية	الاشتقاق الإسباني	الأصل العربي للمصطلح
Depository for Water	Alberca	البركة
Water reservoir	Albuhera	البحيرة
Water pipe	Arcaduz	القادوس / القادر (أنبوب الماء).
Well	Alchub or Aljibe	الجب
Water By turn	Alema	الماء (الماء بالدور)
Rushing spring Water	Alfaguara	الفوار (النافورة).
Canal	Almenara	(المنارة).
Drain Or Sewer	Atarjea	(الترعة) - (محل تصريف الماء)
Dam With Water - Weel	Azud	السد

كانت المحاصيل الزراعية في إسبانيا كثيرة، إذ ازداد استهلاك النباتات النجيلية (الحبوب)، وحظي القمح من بينها بأهمية كبيرة. كما قد اتسعت زراعة الزيتون. الذي أطلق عليه الإسبانيون اسم aceituna. بدرجة كبيرة. وسرعان ما ازدادت أهمية زيت الزيتون سواء للاستهلاك المحلي أو للتصدير الخارجي. وأخذت زراعة الكروم واستخراج الخمور بالاتساع متسبباً بحريم القرآن الكريم لعملية استخراجها. وكذلك إدخال العرب زراعة الرز إلى إسبانيا، الذي أطلق عليه الإسبانيون اسم (arroz) وزراعة قصب السكر 11-، وازدهرت زراعة هذين النباتتين في إسبانيا نتيجة لأنظمة الري المتقدمة. كما زرع العرب المسلمين الزهور الجميلة التي تنتج الزعفران، الذي أطلق عليه الإسبانيون اسم (azafr'an) 12-. ونرى في مجال الاقتصاد الأندلسي أن الصناعة التي تعتمد على المحاصيل الزراعية كمادة أولية، مهمة جداً، ومن الأمثلة الجيدة على ذلك الكتان والقطن 13-، والحرير وأعشاب نبات الحلفا. كما أصبحت تربية الدواجن من النشاطات المهمة، فضلاً عن عنايتهم بالخيول والأغنام والماعز والحمير والماشية والدجاج والنحل. وتوضح المجموعة الآتية من المفردات المبدأة بالحرف (a)، أهمية الزراعة بالنسبة للمسلمين في إسبانيا.

■ أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة ■

المصطلح باللغة الإنجليزية	الاشتقاق الإسباني	الأصل العربي للمصطلح
Seed or Grin	Albarroz	حب الرأس
Raisins or Pruns	Acebibe	الزبيب
Olive Oil	Aceite	الزيت
(Beta Vulgaris) Type of Spinach	Acelga	السلقة
Very White flower	Acemite	السميد (زهور بيضاء) (نخالة مع طحين).
(mespilus Azerolus) A type of fruit tree	Acerola	الزرعورة (أشجار فاكهة).
Lentil	Adaza	عدس
Sesame	Ajonjoli	الجلجلان (السمسم).
Place for cows	Albacara	البقارية (زريبة الأبقار).
Fig	Albacor	الباكور (شجرة التين).
Eggs	Albaire	البيض
Meat - Ball Cmade The Size of ahazelnut	Albondiga	البندقة
Accichoke	Alcachofa	الخرشف
Alfalfa	Alfalfa	الفصفصة (نبات)
Olive oil press	Almazara	المعصرة (معصرة الزيتون)
Green bean	Alubia	اللوباء

لقد تميزت الحضارة الإسلامية باستعمالها معرفة وعلوم الشعوب التي فتحت بلدانها. وأدت هذه الميزة إلى اندماج ما في الحضارات الهندية والفارسية واليونانية في الحضارة الإسلامية. ونتيجة لهذا الاندماج فقد حصل التزاوج مع تلك الشعوب، إلا أن الأمرين الذين لم يتأثراً في بودقة انصهار الأجناس. هما الدين الإسلامي واللغة العربية، فالحضارة العربية الإسلامية هي في الأساس مزيج من الحضارات اليونانية والأرامية والفارسية [كان للأقوام العربية القديمة (الساميين)، التي انطلقت من شبه الجزيرة حضارة راقية في مختلف المجالات (اليمن) وهذه

الأقوام بهجرتها السنة هي التي ضمت فيما بعد حضارات وادي الرافدين ووادي النيل منذ السنة آلاف عام التي سبقت الميلاد، وجاءت الهجرة السابعة، الهجرة العربية الإسلامية لتتضح أكثر حضارة جديدة قدمها العرب إلى العالم. وفي هذه الفترة ومن منطلق (حوار الحضارات)، تم التفاعل مع معطيات الحضارات الأخرى، أي أن الحضارة العربية كان لها أصالتها وشخصيتها المميزة قبل أن تلتقي مع حضارات الأقوام الأخرى، وتأخذ منها أو تصحح لها أو تضيف جديداً، مكناها من أن تكون الأرضية التي استندت عليها حضارة أوربا، منذ القرن الثاني عشر الميلادي باعتراف العديد من المستشرقين المنصفين، (المترجمان)...)، والتي تم تطويرها في أسماء الخلفاء وانتشرت بوساطة اللغة العربية 14-، وبغض النظر عن مثل هذه النماذج. فإن العرب قد أدوا خدمة كبيرة للإنسانية من خلال إسهامهم الفعال وفهمهم للحضارات، فالعرب هم أول من وضع علوم المثلثات والجبر والهندسة التحليلية، فضلاً عن إسهاماتهم العظيمة في مجال الفلسفة والدين والطب والعلوم. فقد نجح العرب المسلمين، ولأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني في التوفيق بين مسألة التوحيد (الإيمان بالله الواحد). والفلسفة اليونانية الذي هو أعظم إنجاز للعالم (الهنود أوربي)، وهكذا انقاد المسيحيون الأوروبيون لوجهة النظر الجديدة التي وضعها العرب المسلمون 15-.

لقد كان فتح إسبانيا فتحاً تقائياً فضلاً عن كونه فتحاً عسكرياً، إذ جاءه سكان إسبانيا الأصليون حضارة عالية سرعان ما ارتأوها لها وتبنواها. فقد أعطى الإسلام للجانب الفكري في الأندلس أكثر مما أخذ منه. فما إن استلم الخليفة عبد الرحمن الثالث الخلافة سنة 929م، حتى أصبحت قرطبة المدينة الرئيسة في أوربا في الجوانب الفكرية والعسكرية دون منافس. ووصلت الإنجازات العلمية والأدبية والفنية ذروتها في قرطبة على عهد الخليفة "الحكم الثاني" إذ كان محباً كثيراً للكتب وجمعها. بل وقيل أنه كون أعظم مكتبة في زمانه احتوت على 400.000 كتاب. حتى أن الانهلال السياسي للخلافة في قرطبة لم يؤثر في تطور الحياة الفكرية أو يبطئها في الأندلس. إذ لم تستمر الملك الصغيرة 16- الناتجة عن الانهلال السياسي للخلافة. على الحفاظ على الحياة الفكرية فحسب. بل عملت على زيادة وتعزيز القيادة الفكرية الإسلامية في إسبانيا. وولد التناقض السياسي بين ملوك الطوائف تناقضاً فكرياً. فبلاد الطوائف كانت تتنافس فيما بينها لافي الغنى

■ أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة ■

والثروة فحسب. بل أنهم تنافسوا فيما بينهم بعدد وشهرة العلماء الموجودين في هذه البلاتات. كما أن هذه المالك قد مثلت أيضاً جزءاً من القيود الفكرية التي فرضها فقهاء المذهب المالكي من قبل. وكانت النتيجة ركوداً أدبياً ساد القرن الحادي عشر الإسلامي في إسبانيا وكانت الثقافة الإسلامية في الأندلس سبباً رئيساً في تعلم الفلسفة الإغريقية التي سادت علوم أوروبا في القرن الثاني عشر 17-.

وفي ضوء ما تقدم فلا كثیر، القائمة الآتية من المصطلحات العلمية العربية الموجودة في اللغة الإسبانية. أي دهشة، كما أنتا نرى أن مفردات الجدول الآتي تبدأ بالحرف (a).

المصطلح باللغة الإنجليزية	الاشتقاق الإسباني	الأصل العربي للمصطلح
Crystalline	Abalorio	البلوري
Musk Seed Abelmosk	Abelmosco	حب المسك
Azimuth	Acimut	السموت جمع سمت
Astar in the constellation Eridanus .	Achemar	آخر نهر
Acorpion	Alac'r'an	العقرب
Alembic or Beaker	Alambique	الأنبيق
Leprosy	Albarazo	البرص
Lead carbanal used in white paint	Albayalde	البياض
Alkaline	Alcali	القالى
Camphor	Alcanfor	الكافور
Alcohol	Alcohol	الكحول (الغول).
Sphere	Alcora	الكرة
Sulfat	Alcrebite	الكبريت
Hemiplegia - Aparalytic disease of infancy	Alfereclia	الفالجية
Heart Palpitation	Algafacan	الخفقان
Jaundice	Aliacan	اليرقان

المصطلح باللغة الإنكليزية	الاشتقاق الإسباني	الأصل العربي للمصطلح
Pear (Arabic root meant Jewel or gem)	Aljofar	الجوهر
Iron Oxide	Almagra	المغرة
Almanac	Almanaque	المناخ
Ammonia Salt	Almohatra	النشادر
Alchemy	Alquimia	الكيمياء
Ambergris or ambar	Amber	عنبر
Tune (Arabic root is from Latin Thunnus - from a Greek Original)	At'un	الثُّنُون
Blue (Arabic from Persian Laza Ward The Precious Blue Stone Labislazuli	Azul	لازورد

يبين من الجدول أعلاه مدى التأثير الكبير للعلوم اليونانية الإسلامية في العلوم الأوروبية، كما هو موضع أعلاه فإن الكثير من المصطلحات قد وجدت طريقها إلى اللغة الإنكليزية مع تحويل قليل أو دون تحويل. ومن الأمثلة على ذلك المصطلحات الآتية:

(آزموث Azimuth)، و(القللين Alkaline) و(الكافور Camphor) و(الكتحول Alcohol)، و(الكيمياء Alchemy) الخ.

ولم ينج فن العمارة من التأثير الإسلامي في إسبانيا حاله في ذلك حال بقية معلم الحضارة التي تأثرت بالحضارة الإسلامية، وفن العمارة في إسبانيا يمثل نوعية فريدة في توليف التأثير. والنتائج الرئيس للمرحلة المبكرة من تاريخ الخلافة الإسلامية في إسبانيا هو (جامع قرطبة العظيم)، فبينما تظهر أقواسه التي على شكل (حدوة الفرس)، التأثير القوطي، فإن وجود الأقواس الثانية الموضوعة في الأماكن العالية فريدة من نوعها في جامع – وربما هي مأخوذة من الطريقة الرومانية في البناء التي دخلت إلى إسبانيا من خلال قنوات متعددة. أما التأثيرات اليونانية فواضحة بالإضافة للمعمارية التي أدخلت فيما بعد على جامع قرطبة، كما أنه واضح في بناء مدينة (الزهراء Az-zhara)، ومن هذا نستدل أنه ربما استعان الخليفة عبد الرحمن الثالث من بعده الحكم الثاني بالحرفيين البيزنطيين في

■ أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة ■

أعمال هذه المشاريع، فالمنارة المربعة الشكل التي أضافها الخليفة الأندلسي الأول إلى الجامع الكبير ما هي إلا استمرار لفن الأموي في سوريا. وفي الوقت نفسه، فإن الكثير من التأثيرات الفنية كانت مأخوذة من الخلافة المنافسة التي كانت قائمة آنذاك في بغداد، وبعد سقوط الخلافة الإسلامية في إسبانيا كان هناك استمرار لفن العمارة العربية إلا أنها لم تكن سوى إضافات تراثية أكثر منها ابتكارات. فالحرفيون المهرة الذين كانوا يعملون على تنفيذ رغبات الخلفاء أيام الخلافة الإسلامية قد أصبحوا الآن ذوي مراكز حساسة في دول ملوك الطوائف¹⁸.

وقد تبنت دولة المرابطين، التي أعقبت دولة ملوك الطوائف، فن العمارة الإسبانية واستخدمت الحرفيين المهرة في مشاريع البناء في شمال إفريقيا. وقد أدى التمسك الديني لدولة (الموحدين) إلى الوقوف ضد الزخرفة. وقد انتهت بعض أعمال المرابطين السابقة. وتميزت آثار أعمال دولة الموحدين بالبساطة والعظماء، مثل متذنة جامع إشبيليا، وبرج الذهب (Le Torre de Oro) التي ما زالت قائمة في إشبيليا. ويظهر التأثير البيزنطي على العمارة لدولة الموحدين في المباني العسكرية. ومن نتائج الفتح الإسلامي لإسبانيا بناء (المدجنين: Mudejar)، وهو فن يمثل التوليف العجيب للعناصر الإسلامية والمسيحية ويمثل القصر في إشبيليا من أعظم نتائج فن عمارة المدجنين¹⁹، وكانت نتيجة نهاية إسبانيا الإسلامية ماطلق عليه اسم (الفن الغرناطي). وهذه الفترة المغلقة أفتقرت إلى الابتكارات إلا أنها وصمت بالكافحة من أجل الحرفيين المهرة، كما أنها تميزت بالجمال البهش الرقيق لـ(حمراء غرناطة).

ويبين الجدول الآتي بعض المصطلحات الإسبانية في فن العمارة التي اشتقت من اللغة العربية.

الأصل العربي للمصطلح	الاشتقاق الإسباني	المصطلح باللغة الإنجليزية
المسمار	Abismal	Nail
الدرجة	Adaraja	Step or Stair
الطوب	Adobe	Brick
الدكان	Adoqu'in	Cut Building Stone (Arabic root "shop")
الشمبس	Ajimez	Arched Window

المصطلح باللغة الإنجليزية	الاشتقاق الإسباني	الأصل العربي للمصطلح
Mashed Furniture	Ajuar	الشوار
Construction Worker	Albanil	البناء
Stone Wall	Albarrada	البرادة
Bridge Arch	Alc'ntara	القنطرة
Alcove (Arabic root = "Dome")	Alcoba 20-	القبة
Door - Knocker	Aldada	الضبة
Hexagonal tile	Alfardo'n	الفرة
Empty Space	Alfe'izar	القسمة
'Stone Bench	Alhami	الهماء
Carpenter's rule	Alidada	العضة
Minaret	Alminar.	المنارة
Architectural Adornment	Arraba	الرباع
Door or Window Frame	Ataire	اطار
Arabesque	Ataurique 21-	التوريق
Floor or Wall tile	Azulejo	الزليج

لقد استمر الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا حقبة طويلة. وأدخل العرب حضارة متقدمة إلى بلاد الأندلس وخاصة في الشؤون الحكومية. فسكان البلاد المفتوحة المسيحيون قد تعلموا الشيء الكثير من العرب المسلمين في الشؤون الرسمية والعسكرية؛ ومن المعقول جداً أن أكثر ما استعارته اللغة الإسبانية كان في هذه المجالات. كما سيتبين من الجدول الآتي:

المصطلح باللغة الإنجليزية	الاشتقاق الإسباني	الأصل العربي للمصطلح
Summer Campaign	Aceifa	الصافنة
Military Guide	Adalid	الدليل
Leather Shield	Adarga	الدرقة
Customs	Aduana 22-	الديوان

■ أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة ■

المصطلح باللغة الإنكليزية	الاشتقاق الإسباني	الأصل العربي للمصطلح
War - Cry	Alarido	الفريد
Flag or Banner	Albenda 23-	البند
General or Chief	Alcaide	القائد
City mayor (Arabic root = "judge")>	Alcalde	القاضي
Stronghold	Alcazaba	القصبة
Type or saber	Alfanji	الخنجر
Cavalryman	Alferez	الفارس
Stone Catapult	Algarrada	القرادة
Minister of official	Alguacil 24-	الوزير
Case for Arrows	Aljaba	الجعبة
Admiral	Almirante 25-	أمير
Customs inspector	Almojarife	المشرف
Inspector of Weights and Measurers	Almotace'n	المحتسب
Amnesty or safe - conduct	Ama'n	أمان
Arsenal	Arsenal	دار الصناعة

ومفردة (المحتسب Almotace'n)، المذكورة في الجدول السابق تبين التأثير الفعال للعرب المسلمين في اللغة الإسبانية والشؤون الإدارية كما كانت تلفظ كلمة (المحتسب Almotace'n)، بلفظ (Zabazoque) المأخوذة من المفردة العربية (صاحب السوق). وكان صاحب السوق (sahib as - suq) شخصاً يتمتع بمركز رسمي يقوم بتنفيذ (الحسبة hisba)، وهذا النظام هو نظام إسلامي مرافق لنظام حماية المستهلكين الحديث عن طريق توفير السلع بأسعار مناسبة. كما أن اصطلاح (mercado publico) الإسباني المعاصر – (والذي يلفظ أيضاً Souk أو Zoco، المأخوذ من اللفظ العربي suq) – مدين بأصله للعرب المسلمين، حتى منصب رجل الشرطة الذي يسوِّي الأمور التجارية في الأسواق مشتق من منصب (صاحب السوق Sahib as - suq).

لا يمكن تحديد التأثير البايولوجي للغة في لغة أخرى تحديداً دقيقاً؛ وهذا الحال بشأن تأثير اللغة العربية في الإسبانية، فالإسبانيون عموماً يحكمون مسبقاً على علاقات غامضة، لكنها واضحة من الناحية اللغوية. وبغض النظر عن الصعوبات التي حفت هذه العلاقة فمن المُسلِّي جداً أن نختبر آثار اللغة العربية المتبقية في الشخصية الإسبانية، فسيكشف مثل هذا الاختبار حتماً بعض التناقضات الظاهرة خاصة في مجال التاريخ، ففتح العرب المسلمين لإسبانيا دام حقبة طويلة، ومع ذلك فقد اتسم بعدم ثبات ملائم. وقد اعتنقت الأغلبية الساحقة من سكان إسبانيا المسيحيين الدين الإسلامي بعد فتح بلادهم مباشرة؟ وبعد استمرار الفتح أخذ المسلمون الإسبانيون بالعودة إلى المسيحية تدريجياً، وقد ترتب على هذا أن إسبانيا المسلمة مثلت حالة فريدة من علاقة الحب والكراهية بين المسلمين والمسيحيين، وحالة لوضعية متقلبة وغامضة من المقاومة والقبول، وهكذا نرى الإسبانيين اليوم يستعملون ازدواجية غريبة في لغتهم المعاصرة. فاللغات المخيفة والبركات المريرة في اللغة الإسبانية غالباً ما تبين آثار اللغة العربية فاللسان الإسباني ينطلق بها بسهولة متساوية للسان العربي: ومثال على ذلك عبارة (oj'ala)، التي تعني بالعربية (وشاء الله).... الخ.

يعد الإسبانيون بصورة عامة الإسباني (وخاصية الطفل الوليد) الذي لم يعمد كمسيحي، مسطحاً، وذلك بقولهم عبارة (Esto - davia un moro) التي تعني بالعربية (أنه لا يزال مسلماً). أو عبارة (Es muy moro)، التي تعني (إن عربي مغربي). ويمكن أخذ هذه المسألة كمدح في المجتمع الإسباني القائم على النظام الأبوى أي الرجل هو المسؤول، في الإشارة إلى غيرة الرجل ورجولته وموافقه البطولية في المسائل الخلقية.

يتبيّن مما ذكر أعلاه أن أوّلَ العِلاقات بين اللغة العربية والإسبانية قائمة على أساس الدين. ومن المؤكّد أن عبارة الحرب المقدسة (Holy - War)، قد وجدت في الإسبانية بعد فتح العرب المسلمين إسبانيا، فهي مأخوذة من مصطلح (الجهاد jihad)، العربي الإسلامي. وثبت تاريخياً أن هذه الروح الصليبية المتولدة هي التي أدت إلى سقوط غرناطة، وإلى اكتشاف واكتساح العالم الجديد، وإلى ظهور المحكمة الإسبانية الكاثوليكية. كما أن العدوان التعصبي الكاثوليكي (El Santo oficio) كان نتيجة متزامنة وبدرجة ما للإسلام. ورد الفعل الذي جوبه به

■ أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة ■

الدين الإسلامي في إسبانيا. إن إفراط المحكمة الكاثوليكية تبين ببساطة إساءة استعمالهم لمبادئ أسلافهم المسلمين، وعلى الأخص فقهاء المالكية في قرطبة. ومع نهاية القرن السادس عشر رحل الإسلام نهائياً عن شبه الجزيرة الإسبانية، إن المسلمين قد رحلوا فعلاً عن إسبانيا إلا أنهم قد تركوا آثاراً من المتذرع إلى التها من الحضارة واللغة الإسبانية، فالتجه الدينى الإسباني نحو الشرق جدير بالشرح والتوضيح. ففي اللغة الإسبانية الكثير من التعبير المتعلقة بالله سبحانه وتعالى، شبيهة إلى درجة ما بالتأكيد للفظة الجلالة (الله) في اللغة العربية. فلفظة التعجب الإسبانية (alal) على سبيل المثال مدينة كثيراً في اشتقاقها وحيويتها باللغة العربية (الله). كما أن هناك عدداً كبيراً من التعبير الإسبانية التي لا تبين اتصالاً لغوياً مباشراً مع اللغة العربية، إلا أنها تبين تشابهاً كبيراً لروح الإسلام وعلى الأخص لفظة (الله Allah)، ومن هذه التعبير ما يأتي:

المعنى باللغة الإسبانية	المعنى باللغة العربية
Dios nos Guarda	الله يحمينا
I vaya por Dois !	باشه!
!Ay - Dios	أوه يا الله!
Si Dios quiere	إذا شاء الله
Dios a prieta - Pero uno ahoga	إن الله يضغط ولا يشنق
Dios Dara'	سيعطيانا الله
Como Dios Manda	كما أمر الله
IDios mio !	ياربى!
I Por Dios	باشه
Permita Dios	الله يعطيني

ويستخدم الغجر الإسبانيون العبارات الآتية للتعبير عن اللعنة، مثل:

Ipermítame a que te hospitalizan!	الله يعطيني بأن يجعلك تمرض
Si quisiera Dios	إذا شاء الله فقط
Lva 'Igame Dios	باشه (وتعني حرفياً أسعفني الله) تستعمل للتعبير عن الدهشة وعدم الراحة.
Vaya Con Dios	اذهب رافق الله
Adio's	في أمان الله



■ هوماش البحث:

- 1 — ابن أحسن اختيار للمناطق الإسبانية ذات الأسماء المشتقة من اللغة العربية أخذت من دائرة المعارف الإسلامية ومن المعلومات الواقعة تحت مادة الأندلس.
- 2 — الأسماء المختلفة التي أعطاها المسلمون لما يسمى اليوم شبه الجزيرة الإسبانية كانت سلبية جداً. فمصطلاح (الأندلس)، ربما يكون مشتقاً من (أندلوش Andalosh)، وهي بقايا (فاندلوسيا Vandalocia)، مقاطعة (الفاندلس Vandals)، أطلقت أولاً على المناطق المحيطة بـ(طريف Tarifa)، والتي امتدت مباشرة لتشمل جميع شبه الجزيرة الإسبانية. كما استعمل العرب المسيحيين الشماليين اسم (إسبانيا Hispania) للأراضي التي شملها الفتح الإسلامي وهذه اللفظة تستعمل للتعبير عن أراضي إسبانيا. أما مصطلح أندلوسيا المعاصر فيستخدم للإشارة إلى المقاطعات الجنوبية فقط.
- 3 — لقد أثارت سهولة الفتح الإسلامي لإسبانيا نقاشات كثيرة بين المؤرخين. فالدافع عن الفتح يذكرنا ببقاء المسيحيين الذين كانوا في الشمال الغربي من إسبانيا. ومن ناحية أخرى، فقد أكدت الحضارة الإسلامية على الفتح المبكر وقدرة الإسلام في الانتشار السريع. وهناك حكايات شعبية كثيرة تشير أكثر مما تعمل على تحليل التاريخ وأكثر التعليقات وضوحاً هو أن سبب فتح إسبانيا بسهولة عائد إلى رغبة أهلها بذلك الفتح. إيمان القوطيين جعلت الإسبان ينظرون إلى العرب المسلمين كمنذرين من تعسف القوطيين. وقد أضعف النزاع الداخلي القوطيين فلم يستطيعوا الثبات في المعركة التي وقعت قرب نهر البرياط.
- 4 — ابن هذا الرقم التقريري قد أخذ من كتاب ((التاريخ الاقتصادي لإسبانيا ص 103)).
- 5 — عرف أهل البلاد المفتوحة في الإسلام بأهل الذمة وكانوا يدفعون الجزية. إلا أنهم لم يجبروا على اعتناق الإسلام. ولقد حظى المسيحيون واليهود وهم أهل الكتاب باهتمام كبير من جانب المسلمين، وقد منحوا استقلالاً دينياً وسياسياً.
- 6 — ابن مفردة (Aljamia) الإسبانية مشتقة من مفردة (الجمية)، أي اللغة غير العربية وينطبق هنا على الإسبانية والرومانية.
- 7 — مفردة (Algarabia) الإسبانية هي الترجمة الحرفية الكلمة العربية والتي تلفظ بالإسبانية المعاصرة ((Arabic)) وكلمة Algarabia خمسة معانٍ — انعكاس الإرباك الحاصل نتيجة الكلام العربي والبربري وهذه المعاني هي:
1 — اللغة العربية، 2 — لغة أو ماده غامضة، 3 — لفظ ضعيف، 4 — الصياغ

■ أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة ■

- المرتبك للكثير من الناس، 5 — Aeveb.
- 8 — انظر حسين مؤنس *La Division politico - Administrativa de La Espana* كما اعترض الباحث الإسباني الكبير Claudio Sa 'nchez في كتابه الثالث على النظام الإقطاعي.
- 9 — البرت. سي. بوك. تاريخ اللغة الإنكليزية، ص 200.
- 10 — توضح أدلة التعريف العربية أحياناً قبل المصطلح اللاتيني كلمة جديدة في اللغة الإسبانية، فكلمة *Albarsa* (وتعني سلة السمك أو شبكة) على سبيل المثال، مشتقة من ربط أدلة التعريف العربية (الـ)، والكلمة اللاتينية (*bursa*) وتعني (حقيقة)، إلا أن مثل هذه الكلمات الهجينة لم تؤخذ مباشرة في هذه الدراسة.
- 11 — تلفظ مفردة *Sugar* بالإسبانية *azucar* مشتقة من اللفظة العربية (سكر)، ومن المحتمل أن أصل الكلمة هندي، كما يوضح دوزي، ويقول أيضاً أنه ربما تكون لفظة السكر العربية مشتقة من اللفظة الفارسية ((شکر)) كما أن الكلمة قد انتقلت إلى اللغات الأوروبية كما هي بدون تغيير فتلفظ بالألمانية *zucker* وفي الفرنسية *sucré*.
- 12 — الزعفران *Saffron* كان من الصادرات المهمة جداً في زمان المسلمين ولا يزال يتمتع بالأهمية نفسها في إسبانيا المعاصرة. وبالحقيقة أن الزعفران يعتبر من المواد الثمينة جداً.
- 13 — القطن كالسكر قد أصبح مألوفاً وذا استعمال عالمي فهو مصطلح في أوروبا وقد أخذته اللغات الأوروبية من اللفظة العربية (قطن)، وقد وجدها في الإسبانية تلفظ *algodao* وفي البرتغالية *algodão* أما اللفظ الإنكليزي فهو *cotton* واللفظ الفرنسي *coton* أيضاً.
- 14 — فيليب حتى، تاريخ العرب ص 722.
- 15 — المصدر نفسه، ص 381-382.
- 16 — هذه الممالك الصغيرة عُرفت عند العرب باسم ملوك الطوائف ومعناها الحرفي (ملوك دول صغيرة)، أما *Muluk tawa* فهي مصطلح إسباني وتعني Reyes de *Taifas* رئيس طائفة.
- 17 — لقد كان لمدينة توليد تأثيراً فكرياً خلال القرن الثاني عشر، فقد أصبحت تحت سيطرة المسيحيين سنة 1085. ولم تتبع تقاليد العرب في البحث مطلقاً، وأهم ما كان موجوداً في توليد مدرسة الترجمة حيث إنها قد ترجمت الكثير من الفلسفه إلى الإسبانية والعربية وعبرتها إلى أوروبا أثناء العصور الوسطى.

18 — خير مثال على فن العمارة أثناء حكم ملوك الطوائف هو أثار *Aljaferia of Zanegoza*.

19 — المصطلح الإسباني *mudejar* ((الذي يترك في الخلف))، مشتقاً من المصطلح العربي ((مدجن)). والـ *Mudajjan* هو المسلم الذي فضل البقاء والعيش بين الغزوة المسيحيين، والمصطلحان العربي والإسباني يعطيان المعنى نفسه.

20 — دخلت لفظة *Alcoba* (القبة)، معظم اللغات الأوروبية الحديثة، فعلى سبيل المثال، تلفظ في الإيطالية "Alcova"، وفي الفرنسية "Alco've" وبالإنكليزية *Alcove*.

21 — التوريق يعني حرفيأ ((تصميم الزهور)) في فن العمارة وقد أطلق عليها لفظة *arabesque* ودخلت هذه اللحظة اللغة الإنكليزية في القرن السابع عشر عن طريق اللفظة الإيطالية *Arabesco* والمشتقة من اللاتينية *Arabustesco* والتي تعني على الأغلب العرب. ولقد اعتمدت فيما بعد باللغة العربية الحديثة كـ((الأرابيسك)), وهي تعني فعلياً مراياها العربي التقليدي ((التوريق)).

22 — يقابلها بالإسبانية (*aduana*)، والإيطالية (*dogana*) وفي البروفانسية *doana* وفي الفرنسية (*deuane*).

23 — لا توجد علاقة بين مفردة *albenda* ومفردة *Bandera*; مفردة إسبانية أخرى تطلق على العلم، وقد تم اشتقاقها من المفردة القوطية *bando*.

24 — الـ *Alguacil* تستخدم في الوقت الحاضر كمصطلح للموظف الذي يعمل في حلبة المصارعة للثيران، إنه فارس يرتدي الملابس متعددة الألوان والذي يكافئ مصارع الثيران الناجح.

25 — يقابلها في اللغة الإسبانية (*almirante*) وفي اللغة الإيطالية *almiraglio*، وفي اللغة البرتغالية *amiral* وفي الفرنسية *amiral* وفي الإنكليزية *admiral*.



من جانب الأثر الأبداعي النقد البنوي لآن مورال

ت: بريهمات عيسى

عن كتاب:

ANNE MAUREL

La critique, Collection Contoure Littéraires, sous la direction de BRUNO VERCIER. Paris, 1994.

لم يستطع النقد الأدبي لسنوات 1960 التملص من التيار البنوي العام والذي بسط نفوذه على كل العلوم الإنسانية. وهو يذكر سنة 1963 في بعض الملامح الجديدة للنقد الأدبي الفرنسي" (مقال صدر في مجلة le Francais dans le monde) استطاع Jean pierre richard أن يؤكد: كل النقد الحديث بنوي، وهو -أي النقد- يعتقد كما تعتقد في نفس الوقت اللسانيات، والتاريخ والأنثربولوجيا.. أن الجزء - وهو هنا جملة، صورة، فكرة مقتطفة من الأثر الأدبي- لا يمكن أن يفهم إلا إذا وضع في علاقة مع الكل الذي ينتمي إليه، والكل في حد ذاته أكبر من مجموع أجزائه بل يمثل بالنسبة لها الأفق، المحصنة.

يبدو الفرق واضحًا بين نقد "شكلي" Formaliste أو نقد "بنوي" structuraliste يعتبر الأثر كشيء مستقل عن الفاعل أو المؤلف الذي أنتاجه. طبقت الانتقادات التأويلية جميعها قراءة بنوية للأعمال وما تزال مستمرة على هذا النحو في أغلب الأحيان باستثناء النقد التيمي thématique في البحث عن الأصل أو السبب خارج حياة المؤلف، ويحاول "الشكليون" خلافاً لهذا كشف وعزل سرد

الأثر في التحليل الأوحد الداخلي لأشكاله وبنياته. يهملون أصله وكل ما يربطه بالعالم والتاريخ بوصف خصائصه الشكلية الظاهرة: الارتباطات، التكرارات، التناظر بين الأصوات والكلمات أو الفصول. ومن الآن فصاعداً يقبض على معنى الأثر في العلاقات الداخلية لمكوناته أي في العلاقة لا في المرجعية.

المقاربة البنوية [...] تمنعنا من مغادرة العمل الإبداعي المنجز للبحث وراءه من التجربة النفسية السابقة [...] واليوم تبعاً لإزدواجية التقليد التي تميز بين الفكر والتعبير تلي وتختلف لنئار البنوي أحادية أو واحدية الكتابة J. starobinski.

تم تأسيس النقد البنوي من قبل الشكلانيين الروس في سنوات العشرين 1920 وتكمن جذور هذا النقد في الفلسفة التي ظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر مؤكدة استقلالية الأثر الفني عن العالم.

من تحطور اللسانيات البنوية التي أسسها ferdinand de saussure فرديناد سوسيير، بعد ذلك، الوسائل النظرية الناجعة والتي مكنت من إزدهار النقد البنوي.

الأسس الجمالية للنقد البنوي : فلسفة العمل الفني - شيك د.

"المطلقة أدبياً"

انفصل الأدب في القرن 19، عن العالم الخارجي، (كما يبينه تحليل دومينيك كومب Dominique combe للنظريات الجمالية المتعلقة بالرومانسية الألمانية في مؤلفها الأجناس الأدبية، سلسلة contours littéraire دواوين أدبية 1992).

لاحظت الرومانسية الألمانية من خلال دعوة novalis موت الأجناس الأدبية تلك "الأشكال المقبولة عالمياً". لم يعد الأدب كما كان من قبل، في العصر الكلاسي، تقلعة mode تبادل قيم متميزة اجتماعياً. و من جهة أخرى أزاحت العلوم الأخرى الأدب عن وظيفة المعرفة الحقيقة. أما في نهاية القرن 19 فقد أنكرت عليه العلوم الوضعية القدرة على تصوير وفهم الواقع بصفة أنسج تتوجه معرفة ماهية كل شيء أرسطو.

محروم من البعد والهدف الخارجي، ومقطع بأنه لا يسدي نفعاً، ينطوي الأدب على نفسه أو يعود لذاته، وبما أنه توقف منذ زمن بعيد عن أن يكون لغة للآلهة، ولم يعد حتى لغة للبشر كما كان عند الأدباء الكلاسيين صار أخيراً لغة للفن أو لسان حال الأثر الفني نفسه.

يتميز الوعي الأدبي المعاصر، منذ القرن 19، بفكرة استقلالية العمل الفني ولا تتعذر الأدب خارج حدود النص. من "فلوبير" إلى الرواية الجديدة نجد الحلم نفسه يراود الكتاب وهو كتابة "كتاب في لا شيء" أي لا يحيل على هدف أو موضوع:

كتاب بدون اهتمامات خارجية قائم بذاته بالقوى الداخلية لأسلوبه كلام الأرض لا عمد لها وتنسق في الهواء. كتاب لا يشتمل على موضوع أو على الأقل يكون فيه الموضوع متواز إذا كان هذا ممكناً. [رسالة إلى لويس كولت Louise Colet في 6 جانفي 1831].

تغيب العالم من النص أو فصله عنه يكشف عن أهمية البنية. حلم مواراة الموضوع". كتاب لا يكون له تقريراً، موضوعاً أو موضوعه يتلاشى - "حيث يكاد يختفي فيه الموضوع" - يترتب عنه مفهوم وتنظير لأسلوب. قد يبني بتعريفات حديثة لمفهوم البنية بالخصائص الثلاثة: الكلية، التحويل، الانتظام الذاتي. الأثر الذي كان يحلم به الأديب فلوبير "قائم" بدون صلة أو "ارتباط خارجي" فقط بـ "القوة الداخلية لأسلوبه" بترتيب منظم لعناصره يكون حصيلة عمل منتقى طويل يقوم به الفنان. لأن الأسلوب الذي يشير له فلوبير غير قابل لتخفيض تفاصيل العبارة. يعتبر هذا الأديب المنشغل بسمات الكتابة، بوحدة النص، واستمراره في الرواية، الأسلوب هو "النسيج" لا "التطريز" يعمل على تراسل الوحدة الصغرى والكبرى يجمع مثلاً داخل هذه "الآلية التقليدية البنائية والمعقدة على الخصوص" والتي حسب اعتقاده هي الرواية، وصف لشخصية يمنحك الأسلوب للكتاب وجوداً مستقلاً، لا يبالي بالحقيقة خارج اللسان، إنه "طريقة مطلقة لرواية الأشياء": "الكتاب في لا شيء" يوصف إذن كلعبة قوى وأشكال، ووحدة عضوية مستقلة عن التحديدات الخارجية.

إن تأكيد استقلالية الأثر الأدبي ومفارقته للعالم تفضيán إلى إدخال إشكالية

رسمتها البلاغة القديمة بينما حجبتها النظرية الرومانسية للعبقرية: تلك المتمثلة في العلاقات الرابطة بين الأدب واللغة. "الكتاب الفنانون" من بودلير Baudelaire إلى فاليري valery قاموا بـ "الجهد في الأسلوب" مالارمي Mallarmé - الذي كان وظيفتهم الرئيسية، ربما الوحيدة. الأدب بالنسبة لهم، وقبل كل شيء، هو "فن اللغة".

الأدب باعتباره "فن لغوي"

"لا تنشأ الأبيات الشعرية بالأفكار بل بالكلمات" هذه العبارة الصادرة عن "مالارمي" تسجل قطعاً كاملاً مع تقلعة الكتابة المستوحة من الرومانسية. الكاتب "الساحر" أو "الرسول" - في السنتين الأولى من القرن 19 - كان يعتقد أن له سلطة خاصة وغير محدودة في التعبير، هو سيد الكلمات بلا منازع ينتقها بحرية دون أن يشعر بالارتباط بالآشكال والبنيات الموروثة من اللسان الذي يكتب به. هذه الأصالة المقصودة هي تعبير مسحوي من شخصية لا تقبل التخفيض أو التقني. إنه يكتب بسرعة فانقة دون تشطيب مطلقاً تحت تأثير تيار داخلي للأفكار أو الموضوع.

وخلال ما سلف فإن فنان النصف الثاني من القرن 19 "ينحت الكلمات كالقطع الصخرية" poe. يعي poe اللغة والمقاومة التي تبديها عندما يعبر عن أفكاره. تشهد مراسلات لوبير Flaubert عن ذلك تقريباً في كل صفحة: العبارة ترفض ذاتها أو تتائب. أو كذلك:

كتبت خلال كل أسبوعي هذا ثلاثة صفحات ومعنى ذلك أني تقيل جداً لأنني لا أقدر على التفكير في الأسلوب إلا والريشة في يدي وأنا أتختبط في وحل متواصل أزيله كلما ازداد.

اللغة سابقة الوجود على كل إيداع فردي. هي التي تعين وتحدد لكل أديب مجال إمكاناته التعبيرية. الأدب "ما يصنعه اللغة يعني أنه مصنوع بمادة سبق لها وأن كانت دالة في اللحظة التي احتلها الأدب" بارت Barthes.

ومن هنا جاء صراع وخصوصية الأدب مع اللغة في البدء خفيان بالنبوة

الرومانسية وبورك ودعم بعد ذلك من قبل أدباء الحداثة من فلوبير إلى بونج ponge . وقد يشبه الأدباء "الرسامين الذين لا يملكون لغطس ريشاتهم سوى وعاء عظيمًا حيث منذ الأزل كلهم مزجوا وخلطاو ألوانهم" (ponge) .
وعليه يجب على الكاتب أن يتقن بناء اللغة التي يكتب بها.

يا للعار عندما نكتب دون أن نعرف عناصر اللغة، الفعل، الاستعارة، تحولات الأفكار والنبرة... فلنحرر خجلًا من كوننا ببني valery¹.

ينبغي للأديب أيضًا أن يعرف أن "أصالته" لا تستقيم إلا بمجز غير منشور لعناصر سابقة الوجود عن جهده التعبيري. هكذا وحسب مقولات "بروست" proust : عبقرية فلوبير ما هي إلا "عبارة نحوية". مؤلف "مدام بوفاري" Madame Bovary كصنوه kant في تصنيفاته استطاع أن يجدد "رؤيتنا للأشياء" ، أسلوبنا في قراءة العالم بواسطة الاستخدام الكلي الجديد والشخصي للماضي القريب، والماضي البعيد، واسم الفاعل، وبعض الضمائر وبعض الحروف".

ينافس الترتيب اللغوي ترتيب الوجود. وحدة الإنسان ووحدة الأثر الأدبي أساسيات لأنديولوجية التعبير يصيّهما تشقق وانكسار، تتسع المسافة ما بين الإنسان والفنان وتتأكد جلًا أكثر فأكثر.

يتميز الفنان عن الإنسان

يتعجب بودلير في أحد مشاريعه لمقدمة "أزهار الشر" les fleurs du mal من أن كتابه كان كافيًّا ليدينه ويجعل منه "فاسقاً سكيراً، كافراً و مجرماً" هو الذي كان "طاهراً كالورق، صبوراً كالماء، ورعاً كالقربابين، مساملاً كالضحية". يخلط النقد خطأً بين "أنا" العمل الأدبي وشخص المؤلف. وحتى يفتح الشاعر علينا الناقد يكشف له "آلية الخداع" الدائمة الخفاء، المصنونة في "كولس، ورشة ومخبر" الأثر الإبداعي ، وفي البلاغة العميقية التي تمزج "الحس والصدق" [...] مع اللعبة والشعودة الضرورية لخلطة الأثر الإبداعي . يستجيب فاليري "بودلير" بل يوافقه حين يؤكد من جانبه "أنه لا ينبغي الاستدلال أبداً من الأثر الإبداعي إلى الرجل بل من الأثر الإبداعي إلى القناع ومن القناع إلى آلة الخداع".

¹ نبية تجترح المعجزات باسم أبولون في معبد دلفي.

ضد سانت بوف sainte beuve والبوفية، بودلير، ومن بعده فاليري، ينكران "صدق" و "شفافية" الأثر الأدبي المكتوب من وحي المعيش وينكران كذلك أن تكون فعلاً قيماً أدبية خالصة. الأديب دجال، بدل "الاعتراف" يلبس القناع وفي وسعه أن يبلغ عواطف حتى وهو لا يشعر بها لأنه يتقن قوانين اللعبة أو الخداع.

(بودلير): يعرف التأثيرات الصوتية، اللغوية، التركيبية و المجازية، لكل الأصناف اللغوية، على القارئ. يسر كل إمكانات اللغة حسب التوفيقات الحسابية للة التي تحدث عنها سابقاً valery.

لعب النص المشهور -"لا دقاب بو" Edgar poe المعنون "تركيب القصيدة" والمترجم من قبل بودلير - دوراً رئيسياً في دستور هذه الفلسفة الأدبية التي كانت عاملًا مشتركاً بين الأدباء الذين جاءوا بعد 1850. الأديب بو" poe هو أول من فرض فكرة - القصيدة ما هي إلا موضوع للغة مستقل، خارج تصانيف الأخلاق والشخصية - "إنها خيال مبدع" (Mallarmé).

وهو الذي لا يعرف غير الصرامة والجدة يقصى تركيبة قصيدة من قصائد المشهورة "الغراب" فيؤكد على أنها ليست وليدة عاطفة بل حساب بارد وتقدير منهجي للمؤثرات والفنين.

ولكي يشير الحزن السوداوي اختيار "poe" كلمة "Jamais plus" "Nevermore" "لا أبداً" لجمهوريتها ثم اختار "الموضوع الأكثر سوداوية في العالم" حبيب يبكي عشيقته وقد ماتت ولكي يكرر هذه الكلمة كلازمه يجعل غراباً ينبعق مردداً Never more استجابة لطلب الحبيب السائل "متى أرى معشوقتي؟". ولسانا ندرى ما إذا كان هذا النص ينم عن حقيقة أم هو أسطورة بل خداع فحسب؟ وهل ألغت هذه القصيدة فعلاً كما ادعى؟. لكن هنا يسعى "بو" إلى تأكيد المسافة الفاصلة بين الرجل والفنان بين الحياة المعاشرة حقيقة وخطاب الأثر الإبداعي. يظهر نسقاً الحقيقة، - الحياة والفن - من هذه اللحظة وكأنهما يأبىان المقارنة ويقاومان كل سبل القياس.

تعد الكتابة ضرب "من الإقصاء الذاتي" (Mallarmé) بل هي انسحاب من

نسق الوجود والتموضع في حيز اللغة والأدب.

تشرع عدة تيارات نقدية تطبق اللسانيات لدراسة النصوص الأدبية - تفكير وتصف علاقة الأدب باللغة دون اللجوء إلى علم نفس المؤلف "Léo Spitzer". تتأسس الأسلوبية على المفارقة الموسوية بين اللغة والكلام وذلك لتحليل الأسلوب الفردي لكل كاتب.

لقد هيمنت الأسلوبية من 1905 إلى 1960. أما اليوم فيحكم عليها بالخلاف والتراجع: الشعرية والسميائية أغوتا النقاد بخطاب أنجع منهجة وتشكيلًا. إنها تصنفان بنية مجردة "للخطاب الأدبي" بدل الآثار الأدبية الخاصة والمميزة: النظام الأدبي متجانس أو مماثل لنظام اللغة، في مقدورنا تقطيعه إلى وحدات صغرى وتحديد قوانين تراكمها وتوافقها.

الأسلوبية:

ما الأسلوب؟

مع أنه أساسى لكل خطاب في الأدب، تعريف الأسلوب لم يحدد إلى اليوم. يسجل ديكو وتدوروف Ducrot et todorov في قاموسهما الموضوعي لعلوم اللسان 1972 في مادة أسلوب - الاستعمالات المختلفة لهذه الكلمة بعد أن يقدما تعريفهما الخاص. يعرفان "الأسلوب" كانتقاء يقوم به النص من جملة خيارات تحتويها اللغة ويؤكدان في الأخير أن "الأساليب تقع في اللغة لا في نفسية المستعملين للغة" وبهذا يشيران إلى تعايش وتنافس مفهومان متناقضان للأسلوب موروثان من القرون السابقة. تعرف البلاغة القديمة الأسلوب كمدونه أو سجل للغة مشيرة إلى أسلوب وضع وآخر رفيع - يختاره الأديب حسب الموضوع المعالج. فالملحمة مثلاً وبما أنها ترسم الأشخاص بمثالية تلجم إلى الأسلوب الرفيع وتترك للكوميديا الأسلوب الوضيع لكن العبارة المشهورة لـ Buffon : "الأسلوب هو الرجل ذاته" قلبت الوضع رأساً عن عقب. ليس الأسلوب محصلة انتقاد أو اختيار بل شيء

* يطعن ملارمي النقد الروائي المتداول الذي يوازن بين الشخصية المصنوعة من أحرف و كلمات وبين الشخصية الواقعية والذي يحكم بالغرابة والشذوذ على كل ما يشكل الواقع.

كالدلالة أو العلامة، التعبير الإرادى، بل اللواعي المميز لكل فرد. والصياغة الأكثر غرابة لمفهوم "الأسلوب" جاء بها "رولان بارت" Roland Barthes في كتابه "الكتابة في الدرجة صفر" 1952. حيث قابل ما بين "الأسلوب" و "الكتابية" فميز الأسلوب بـ "صور، ودفق ومعجم متولدة عن جسد وماضي الأديب والتي تحول بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى آليات *automatismes* خاصة بفن" بها يعرف لكن لم يقم قطعاً باختيارها.

وتأتي من هنا المقابلة الدائمة بين "أسلوبية عامة" و "أسلوبية اللغة" و "أسلوبيات خاصة" تحلى إجراءات تشخيص اللغة الخاصة بمولف أو بنص. وأول هذه "الأسلوبيات" والتي لا نقوم بتحليلها هنا يمثلها أساساً السويسري Charles Bally الذي نشر سنة 1919 بحثاً عن الأسلوبية الفرنسية كما يمثلها كذلك J. Marouzeau et M. Cressot و تلاميذهم الذين ألقوا على التوالي: الأسلوب وتقنياته 1947، leó Spitzer و موجز للأسلوبية الفرنسية 1980، دراسات الأسلوب التي قام بها الألماني spitzer 1970 هي واحدة من النماذج الممثلة للنوع الثاني من الأسلوبيات.

دراسات الأسلوب: الأسلوبية الأدبية لـ leó-spitzer

تجمع دراسات الأسلوب لـ leó-spitzer مقالات مكتوبة ما بين 1931 و 1960.

تأتي مدبة بأشكال من السيرة الذاتية الثقافية أين يعرض Spitzer بوضوح مبادئ خطته.

تظهر الأسلوبية كـ "جسر ممتد بين اللسانيات والتاريخ الأدبي" يهدف، مثل التاريخ الأدبي، إلى إثارة الاختزالية المتميزة للإبداعات الكبرى، والتي يكشفها بوسائل التحليل اللساني في النص الإبداعي، دون الرجوع إلى مرجعية المؤلف ومقاصده.

حضر Spitzer في سنوات تكوينه لدورس مؤرخ أدبي مشهور في ألمانيا August Becker philip . لقد شد انتباذه عجز التاريخ الأدبي الوضعي عن معرفة طبيعة الإبداعات الفنية والنصوص التي كان يدعى شرحها: أن نقد المصادر، وهو

يشد الانتباه نحو وسائل الآخر المبدع يمنع كل الأحكام الجمالية، الشرح بواسطة "ترجمة الحياة" أو تاريخ الأفكار يذري الآخر أو ي Siddhe إلى مجموعة تفاصيل محتشمة وهكذا يهدم وحدته العميقـة. اللجوء إلى اللسانـيات على العكس يساعد على مواجهة الجانب الحي للآخر من خلال مظهـره الفعلـي النصـي. مع هذا لا يكفي النظر إلى تنوع مشـتـتـ من صـنـعـ اللغةـ طـرـيـقةـ التـحلـيلـ اللـسـانـيـ تـبرـهنـ هيـ الآخـرىـ عـلـىـ نفسـ التـدقـيقـ بلاـ معـنىـ مـثـلـ التـارـيـخـ الأـدـبـيـ الـوـضـعـيـ الـذـيـ تـعـارـضـهـ يـقـتـعـ spitzer بـأنـهـ إـذـاـ ماـ أـرـيدـ القـبـضـ عـلـىـ اللـغـةـ فـيـ السـيـاقـ الـذـيـ يـجـعـلـهاـ أـدـبـيـةـ. يـجـبـ الـاقـدارـ عـلـىـ نـقـلـ الـأـحـدـاثـ الـمـشـاهـدـةـ إـلـىـ مـبـداـ مـنـظـمـ وـحـيدـ. يـجـبـ عـلـىـ النـقـدـ أـنـ يـكـشـفـ "ـالـجـذـرـ الـمـشـترـكـ"ـ مـشـقـ روـحـيـ مـشـتـركـ ماـ بـيـنـ الـأـنـسـاقـ الـمـشـاهـدـةـ. اـعـقـدـ spitzer فيـ الـبـداـيـةـ أـنـهـ يـجـدـ هـذـاـ مـبـداـ الـوـحـدةـ وـالـانـسـجـامـ فـيـ نـفـسـيـ الـمـؤـلـفـ. لـكـنـهـ، بـعـدـ مـعـرـفـةـ أـهـمـيـةـ الـمـوـتـيـفـاتـ الـمـشـترـكـةـ فـيـ الـأـدـبـ السـابـقـ لـلـقـرنـ 18ـ فـيـ عـدـةـ آـثـارـ topoi وـجـدـهـاـ تـتـحـلـيـ بـنـفـسـ الـقـدـرـ الـبـانـيـةـ الـتـيـ تـتـمـتـعـ بـهـاـ "ـالـعـقـدـ الـذـاتـيـةـ"ـ 1e .complexe individuel

يـتـرـكـ هـذـهـ فـرـضـيـةـ الـأـولـىـ. وـلاـ يـبـحـثـ أـبـدـاـ شـرـحـ "ـعـلـامـاتـ الـمـؤـلـفـينـ"ـ بـوـاسـطـةـ "ـمـرـاكـزـ هـمـ الـوـجـدـانـيـةـ"ـ الـقـطـيـعـةـ لـيـسـ جـلـيـةـ كـمـاـ يـبـدوـ بـيـنـ لـحـظـاتـيـ تـحـلـيلـ أـسـلـوبـيـةـ الـنـصـوصـ الـأـدـبـيـةـ لـأـنـهـ إـذـاـ كـانـتـ فـرـضـيـاتـ الشـارـحةـ قـدـ تـغـيـرـتـ فـيـ طـرـيـقةـ قـرـاءـةـ الـآـثـارـ الـفـنـيـةـ بـقـيـتـ عـلـىـ حـالـهـاـ كـمـاـ هـيـ.

انتـبـاهـ spitzer الـأـفـصـىـ لـلـتـفـاصـيلـ وـمـعـرـفـتـهـ لـلـلـسـانـيـاتـ مـكـنـاهـ مـنـ النـظـرـةـ الـأـولـىـ أـنـ يـدرـكـ التـغـيـرـاتـ الـتـعـبـيرـيـةـ لـلـنـصـ. يـتـحدـدـ الـأـسـلـوبـ كـ "ـ فعلـ كـلامـ"ـ، اـسـتـخـدـامـ فـرـديـ لـلـغـةـ، يـرـاقـبـ النـاقـدـ بـحـصـافـةـ مـتـنـاهـيـةـ الـانـحرـافـ عـنـ الـمـعيـارـ وـالـاستـعـمالـ كـمـاـ يـمـتـلـئـ فـيـ حـالـةـ الـلـغـةـ الـمـشـترـكـةـ لـمـرـحـلـةـ مـعـيـنـةـ مـنـ التـارـيـخـ:

تعـودـتـ عـلـىـ تـسـطـيرـ الـعـبـاراتـ الـتـيـ تـبـدوـ لـيـ وـاضـحةـ الـانـحرـافـ عـنـ الـاستـخـدـامـ. الـعـامـ.

قدـ يـتـعلـقـ الـأـمـرـ بـالـفـاظـ جـدـيـدةـ جـلـيـةـ الـهـوـيـةـ كـمـاـ هـيـ عـنـ النـاقـدـ الـفـرـنـسـيـ Rabelais أوـ الـحـرـصـ الشـدـidـ عـلـىـ تـكـرارـ كـلـمـةـ، صـورـةـ أوـ صـيـغـةـ تـرـكـيـبـيـةـ عـنـ هـذـاـ الـأـدـبـ أوـ ذـاكـ تـنـتمـيـ إـلـىـ سـنـ الـلـغـةـ"ـ وـلـكـنـهـ هـنـاـ تـظـهـرـ مـتـمـيـزـ بـايـقـاعـ وـقـدـرـةـ إـيدـاعـيـةـ إـيجـابـيـةـ لـاـ تـحـظـىـ بـهـاـ فـيـ الـوـضـعـ الـأـعـيـادـيـ"ـ valery .

هناك مثال لنوع ثانٍ من "الانحراف" أو الفاصل "*I*" يستشهد به spitzer في مقاله حول الأديب الفرنسي Racine . يلاحظ الاستعمال المكرر لأداة التكير *un* مكان أداة التعريف أو نعت الملكية *possessif* Adjectif في نصوص العديد من المأسني tragédie التي كتبت في فترات متباينة تشير إلى مشاركة المتكلم في الفعل.

نظراً لقوة وحدة العمل الفني لم يكن هناك ولا تفصيل واحد شاذ عن اللزوم، يجب بعد هذا إعادة تشكيل كل أنساق طرق الأسلوب المميزة لهذا المؤلف. يتعلق استعمال أداة التكير مع كل طرق التعميم، واللا تشخيص التي يستدل عليها في كل مستويات، التركيب والمعجم والصور، مع استعمال اسم الفاعل وضمير الغائب في الحديث عن "الأنما" وهي حالة متواترة في مسرح racine، ومع استخدام الجمع الموقف المحدد للشخصيات". إن كشف العامل المشترك لهذا الصنيع ينتهي إلى معرفة جوهر أسلوب racine ورؤيه العالم "التي يعبر عنها. القانون المنظم لكل عمله الإبداعي "مركزه الحيوي الداخلي" ما هو إلا بعض أثر "عمل الخافضة": "مقدمة الحجة الباردة" هي التي تعارض أو "تطفف البعد الغنائي". التحقيق المتقصي يفضي إذن إلىأخذ الحقائق الإنسانية والتاريخية بعين الاعتبار: يبدو "مزاج" racine، "روح عصر". رسين رجل "فقد اللطف والرعاية [...]" لا يتوقف عن مراقبة وموضعية الإنسان ليس من خلال الإنسان الذي يتالم بل من خلال طبيعة موضوعية عقلانية".

الدراسات الأسلوبية التي قام بها leo spitzer هي درس متميز في القراءة. تبين علاقة الكاتب بالعالم تتكون في نسيج الكلمات وهي تظهر جلية لمن يعرف يقرأ دون استقصاء العالم المتواري خلف الآخر. قراءة leo spitzer تعرى - كقراءة الموضوعيin thematicien - لكن بوسائل أخرى كالأداة المعاصر للعمل. هذه القراءة تعتبر النص الأدبي في حقيقته المضاعفة إيداع فعلى وعالم رهيف: الأسلوب والروح بما معطيان مباشران وفي الحقيقة مظهران معزولان بصفة اصطناعية عن داخل الظاهرة نفسها. لا تخلو هذه الطريقة من بعض المخاطر. يوشك المشاهد الحرير على

كشف المبدأ الموحد ألا يقبض إلا على أسلوب أفعال متطابقة فيقصى، بهذا، التوترات والتشنجات الداخلية للعمل الإبداعي.

الشعرية والسيميائية

"مفهوم الأدبية"

استناداً لخصوصية ملامح اللغة العربية، حاولت الشعرية والسيميائية الأدبية تأسيس علم الأدب. بحثت الشعرية عن قوانين الإبداعات داخل الأدب وليس داخل تاريخ المجتمعات أو النفس: لقد أفضى بها الوصف الدقيق لطرح إنتاج الخطاب الأدبي إلى وضع جدول للاحتمالات الأدبية حيث تظهر الإبداعات الأدبية الموجودة والمحققة وكأنها حالات خاصة أنجزت Todorov ويبدو الأدب للسيميائية كمنظومة دوال مستقلة: ويستعمل النص الأدبي علامات اللغة ويرتبها ضمن منظومة شكلية ثانوية مزروعة في المنظومة الابتدائية للتواصل وبهذا السعي تكون الشعرية والسيميائية قد أنجذبوا جوهر الأدب الذي أطلق عليه "رومان جاكبسون" والشكليون الروس اسم الأدبية *La littérarité*.

ولا يشمل موضوع الدراسة الأدبية كل الأدب بل الأدبية فحسب [...] وبتعبير مغاير تحول الكلام إلى أثر شعري ومنظومة الإجراءات التي تتجزء هذا التحول. Jakobson

ومن المتعارف عليه أن عند القيام بتعريف "الأدبية" تقترح ثلاثة شروط أساسية: النص الأدبي مغلق على نفسه، ليس له مرجعية وأخيراً، وخلافاً للغات الطبيعية الخطاب الأدبي "لغة موحية" Hjemslev .

وعند مقابلة الكلام اليومي، اللانهائي واللامحدود على الأقل زمنياً الآخر الأدبي مغلق، وتم بنويها. له "بداية ووسط ونهاية" استناداً لقول أرسطو في كتابه فن الشعر. النهاية قد تحتويها البداية "معللة الوسائل" ومفعولة الفضول المختلفة للقصة كما بين ذلك تحليل G. Genette لأميرة كليف la princesse de Cléves في مقال FIGURES2، "شبه الحقيقة والتبرير".

إذا كان النص الأدبي عديم المرجعية فليس معنى ذلك أنه مجرد كلياً من

العلاقات التي تربطه بالواقع الخارجي. ولكن الأدبية تتعالق بصفة أكثر تركيزاً وغموضاً مع الواقع خلافاً للنصوص الغير أدبية. بينما مفهوم اعتمادي يرجع مباشرةً للسياقات، والأشخاص والأمكنة والأشياء المدركة حسياً. نجد النص الأدبي يعني من المرجعيات ظلال صور مصنعة عن طريق لعبة العلاقات الداخلية في النص نفسه. هكذا وعلى سبيل المثال سارد الرواية أو السيرة الذاتية ليس هو بالضرورة المؤلف، الشخص الذي كتب النص والأدب لا يعبر عن الحقيقة إلا حينما يربطها بنظام خاصة من الأشكال المقسمة والمنظمة لكلمات والأشياء وفق نمط معاير لما تفعله لغة التواصل العادي. وبهذا الأسلوب الخاص يدفع بنا الأدب إلى عالم مستقل الدلالات. وفي آخر المطاف، يظهر أنَّ العنصر الدال في الإبداع الأدبي ليس هو الكلمة في حد ذاتها ومعناها المعروف كما هي الحال في اللغة الطبيعية - ولكن هو شبكة الدلالات الثانوية والتصنيفات، والإيحاءات التي تفرضها العلاقات المستحدثة. المبدعة بين الكلمات.

وصف فلوبير Flaubert في "التربة العاطفية" - *L'education sentimentale* - لاجتياح القرمدة في فيروي 1848. يحول حشد الناس مفرداً ومضاعفاً - كأنه زلزال سيل سريعة من الرؤوس العارية أو حيوان مفرد - أخطبوطي بل أفعوان خرافي "الهدرة" Hydre . وهذه الاستعارة - الشعب، الهدرة - تتعكس على طول المقطع:

وفجأة دوى النشيد الوطني، هوسيني وفرديريك Hussonnet et Frédéric مالا على الدرابزون فإذا بالشعب، يهرع إلى السلم وهو يهز مد أمواج الرؤوس العارية، خوذات، حراب بتهور حتى ضاع الناس في الكتلة الصاخبة الدائمة الصعود كنهر كبحه التيار المعتمد بخوار عميق واندفاع لا يقاوم.. وفي الأعلى، تم لكتلة الانتشار سقط النشيد فلم يعد يسمع سوى وقع الأحذية مصحوباً بهدير الأصوات. الدلالات المشيرة للحيوانية - "الكتلة الصاخبة" "خوار" "المد والجزر الاعتدالي" "الهدير" في ارتباطها وأطوابها تفرض تشبيه شعب 1848 بحيوان الأساطير Hydre وبهذا النهج يرد التاريخ المعاصر على أعقابه إلى طبيعة ما قبل الثقافة، إلى الأزمنة البدائية المظلمة التي لم يتمكن فيها الإنسان من السيطرة على الوحش حيث لم يتغلب أنداك "هرقل" على هدرة لارن L'Hydre de Ierne.

هذا النموذج السابق يشير إلى إمكانية إعطاء أشكال متميزة ومعانٍ أصلية

لشيء عوين من قبل فقط بواسطة الكلمات المتدالوة يومياً والتي يستعملها الجميع. والأسلوب لا يكمن بالضرورة في الانزياح Ecart فحسب كما تعتقد الأسلوبية الأدبية. ترتيب وتنظيم الملفوظ الوصفي بنيته - هو الذي يملك خاصية التحويل يجعل الدلالات الأدبية مغایرة تماماً أو متتجاوزة لمجرد انعکاس الحقيقة.

عندما تعرف الشكلانيون الروم على النسبة التاريخية للأدب احتاجوا على مفهوم "الأدبية" ورفضوه. عرف إدراك الأدبية والأدبية تغيراً ملحوظاً ودائماً عبر العصور. السبب ربما - الذي جعل أرسطو يستبعد في تعريف الأدب كل أشكال التعبير الفــدي، بل كل خطاب مباشر باسم الشاعر: لم يقول شيئاً في كتاب الشعر" - عن الشعر الغنائي الذاتي للشاعرة صافو sapho والشاعر pindare باندار.

وعلى نقیض أرسطو يجعل القرن 19 الفرنسي من اليومية الحميمية Journal intime شكلاً أدبياً كاملاً. إذن لا يمكن أن يوجد جوهر أو روح أدبي لازمني وكوني للأدب ولهذا فمن الأجدى لنا الحديث عن "ظاهرة الأدب" بدل الأدبية. يبقى مفهوم الأدبية يحتفظ بقيمة نقدية لا جدال فيها كما لاحظ ذلك Gerard Genette في "مقال-مشروع" في مجلة FIGURES 1966 "بنوية ونقد أدبي".

النسوان المؤقت للمحتوى، التقليص المؤقت لـ "الذات الأدبية" من الأدب إلى ذاته اللسانية تساعد على مراجعة بعض المسلمات القديمة بـ "حقيقة" الخطاب الأدبي دراسة عن قرب - منظومة المصطلحات. لقد اعتبر الأدب لزمن طويل رسالة بلا رمز وأن الأوان وأصبح من الضروري النظر إليه لحظة كرمز بلا رسالة.

والنقد الأدبي لن يستمر طويلاً مع الشكلانية حبيس وصف النسق الإبداعي: هذا الموقف حسب تصريح Gerard Genette يبقى مؤقتاً وعابراً. وبالمقابل هناك إيجابية أكيدة لإظهار الدور الذي لم يدرك منذ زمن طويل - وهو دور الشكل في صنع المعنى. بهذه سنبين كيف يجدد الأدب علاقتنا بالواقع كما أكدته تحليل R. Jakobson عن طريق الوظيفة الشعرية للغة.

الوظيفة الشهرية للغة

في الفصل 11 مقالات في اللسانيات العامة المعروفة "اللسانيات والشعرية" et

يحدد R. Jakobson الوظائف المختلفة للغة حسب العامل الذي يشدد عليه عقد التواصل أو فعل التواصل الذي تشارك فيه العوامل التالية الباعث، المتنقى، السياق، الشفرة أو الرسالة. والوظيفة الشعرية للغة "والتي ليست ملكاً خاصاً بالشعر المنظوم فحسب ولكنها هي الوظيفة المهيمنة في الأدب عامه"- تمثل أساساً في جذب الانتباه نحو شكل الرسالة نظراً للأهمية التي توليه لتنظيم المعنى.

لقد "صار الشكل صعباً" على الأقل مدركاً عن طريق موازاة مختلفة ومتعددة: رجع الأصوات في الظواهر التالية القافية، السجع أو الجنس بنيات تركيبية متشابهة بل كل التنازرات الممكنة الوجود بين أشخاص الرواية أو بين الفصول. هكذا تتوقف شفافية اللغة للأشياء. الوظيفة الشعرية لا تطمس المرجع (العلامة) لكن تجعلها غامضة أو شديدة الغموض. في هذا الصنف تكمن فضيلة النقد الأدبي المقاومة لأنمطة التواصل الاعتيادي.

عندما تصير العلاقة بين المفهوم وال العلاقة أو توماتيكية، يتوقف مجرى الأحداث، ويموتوعي الحقيقة... والشعر هو الذي يحمينا من الأنمطة، ومن الصدا الذي يهدد عبارات الحب والحدق والاحتجاج والتفاهم والإيمان والفكـر (جاكسون ما الشعر؟")

درس الشكلانيون والبنيويون كل الأساليب والطرق التي بها يتجلـى الإيقـاع الخاص للأعمال الأدبية، حـيز وـزمن مـميزـان عن مـثـيلـهما فيـ العـالـمـ الشـكـلـانـيـونـ الروـسـ فيـ فـتـرـةـ 1920ـ وـصـنـاعـ الشـعـرـ (ـجـ.ـ جـنـاتـ وـتـ.ـ تـوـدـورـفـ)ـ وـالـسـيـمـيـاـنـيـونـ الفـرنـسيـونـ لـفـتـرـةـ 1960ـ (ـرـ.ـ بـارـتـ أـ.ـ رـ.ـ قـرـيمـاسـ)ـ اـهـتـمـواـ بـالـمـظـاهـرـ الـمـخـتـلـفةـ لـلـبـيـتـ وأـشـكـالـ تـرـكـيـبـ الـعـقـدـةـ وـتـنـظـيمـ الـخـطـابـ السـرـديـ.

شهرية الشعر

الشكلانيون الروس والشعر

فضلـتـ الـبحـوثـ الـبنـيـوـيـةـ الـأـولـىـ التـصـدـيـ لـلـقـصـانـدـ الشـعـرـيـةـ،ـ لأنـ "ـالـنـثـرـ يـطـرـحـ عـلـىـ الشـعـرـيـةـ قـضـيـاـ مـعـقـدـةـ"ـ،ـ "ـالـموـازـاتـ فـيـ النـثـرـ لـيـسـ مـضـبـوـطـةـ بـدـقـةـ بلـ ضـعـيفـةـ الـانتـظـامـ جـاـكـبـسـونـ

القصيدة القصيرة المحكمة الشكل كما وصفها بودلير والرمزيون - مالارمي وفاليري اللذان يستشهد بهما مراراً جاكبسون - تجسد بال تمام مفهوم "الأدبية" السابق الذكر . استجابة للمفهوم المثالي "الشعر النقي" كما تعارف عليه شعراء نهاية القرن 19 ينبغي للقصيدة أن تكون مغلقة على نفسها، لا تحيل، متقدة البنية متميزة بوضوح عن النتاجات اللغوية العادية.

يصرح بودلير أن "كلَّ ما يتجاوز الانتباه الذي توليه ذات إنسانية إلى شكل شعري [...] ليس قصيدة". يجب الاقتدار على قراءة القصيدة كما نشاهد لوحة بل يجب ضبطها أو إدراكها ككل. تفي بهذا الشرط السابق الذكر السونتا (القصيدة القصيرة) وكل الأشكال المحدودة الطول. وإذا ما اخترنا كتابة قصيدة طويلة ينبغي أن تدرك كـ "سلسلة متلاحقة من القصائد القصيرة التي تؤثر تأثيراً وجيزاً" بو poe.

تختلف أشياء القصيدة عن أشياء العالم وهي لا توجد إلا داخل القصيدة ولا معنى لها إلا في حضن منظومة معقدة من العلاقات و "التباشيرات". وبين الشعر كل معقد لا يقبل القسمة "حيث الكل" دلالي، تبادلي، تضافري، تناظري" بودلير . لاحظ بودلير عند تقديمِه لغرا بـ poe أن كل القصيدة "تدور" على كلمة واحدة أبداً Never.

هذه الكلمة تجب العناصر الأخرى للقصيدة وعلى الخصوص الغراب. Never تناظر Raven الكلستان يربطهما جناس بواسطة رجع حرفين متساو. ويستخلاص مما سبق أن غراب إدغار Edgar poe ليس عصفور حقول بل ما هو إلا تناغم يصدِّي الكلمة - التيم في القصيدة وهي هنا الغراب.

التنظيم المعقد، في داخل القصيدة لكل طبقات الملفوظ "الفن الدقيق للبنية المبتعدة هنا" والتي تحدث عنها مالارمي في مقدمة تخلق القصيدة، تعمل على مجز الصوت والمعنى وتجعل الدلالة تابعة للعبارة. تلتزم القصيدة مزيداً من القواعد أكثر من الكلام العادي. ليست القصيدة كالثغر تقبل الاندثار والنسيان بمجرد تبليغ المعنى. فهي تكرر ، تستعرض بل تدوم بفضل متانة بنيتها وبفضل العلاقات التي تسجها ما بين كل عناصرها.

تعتبر البنية أو الهيكل الضامن الأساسي لحياة الآثار الأدبية العقلية،
Baudelaire

يظهر أن وصف الخصائص المتعلقة بالقصيدة لا تكفي للقبض على "أديبها". لمعرفة كيف يجري تحويل الكلام المعتمد إلى آثار شعرية يجب دراسة بنية اللغة الشعرية. واستناداً من طرق ومناهج اللسانيات البنوية ينبغي تحديد الوحدات الصغرى وإعداد نحو الشعر *grammaire de la poésie*.

خلاصة:

بسط التيار البنوي نفوذه على كل العلوم الإنسانية والنقد، فصل النص الأدبي عن تاريخه وأطروه الخارجية وساهم في انطواء الأدب على نفسه وأيد مقوله الأدبية أو الشعرية تنشأ من الكلمات لا من الأفكار، والأدب ما تصنعه اللغة يعني أنه مصنوع بمادة سبق لها وأن كانت دالة.

فصلت البنوية الفنان عن الإنسان ورأى أنه لا ينبغي الاستدلال أبداً من الأثر الإبداعي إلى الرجل بل من الأثر الإبداعي إلى القناع ومن القناع إلى الآلة وأن الأسلوب يقع في اللغة لا في نفسية المستعملين للغة وانتهت إلى أن الأسلوبية تتجلى في الانحراف عن المعيار والاستعمال المشترك.

■ ■ ■

■ الهوامش

1- المقال مترجم من كتاب *Anne maurel* ، المعنون النقد، سلسلة دواير أدبية *Hachette* .1994

2- بودلير 1821 - 1867 ألف أزهار الشر ترجمة القط الأسود لـ *poe* ألف كذلك الخمر والخشيش.

3- ملارمي ستيفان 1842 - 1898 أيداعاته على التوالى الأشعار الباريسية، الفن للجميع، الأفق. والأزهار، قبر ايدقاريو.

4- جيستاف فلوبيير 1821 - 1880 مؤلفاته: الطاعون في فلورونس، صالحونبو، مذكرات مجنون.

5- لويس كولات محضية فلوبيير.

6- فاليري بول 1871 - 1945 مؤلفاته: حلم، المسيرة الملكية، لا بيتي *Pythie* درس حول *poe- Edgar*

□□□

غوتة: عالم طبيعة

■ صلام حاتم ■

غوتة ليس الشاعر فحسب، بل هو أيضاً الشاعر العالم المفكر تفكيراً تقدماً، إذاً صح التعبير. فالوقت الذي خصصه من حياته المديدة لبحوثه ودراساته في علم الطبيعة هو أكثر بكثير من الوقت الذي صرفه في الشعر. في سنة 1765 قصد مدينة لايبزيغ، باريس الصغيرة آنذاك، ليدرس القانون، وإلى جانب ذلك أبدى آنذاك اهتماماً بالطب والعلوم الطبيعية، وحين انتقل إلى شتراسبورغ في سنة 1770 أخذ يستمع إلى محاضرات في التشريح والجراحة والكيمياء، كما أولى الجيولوجيا والتدين اهتماماً. وفي سنة 1776 وحين تبى دعوة الأمير كارل أوغست، دوق فايمر، وجد الحياة المنفتحة على الطبيعة في الغابة والحدائق العامة سر عان ما أناطت به مهام نمت مواهبه ومعلوماته العملية.

على أنه ليس في الإمكان الحديث عن غوتة الباحث في علم الطبيعة إلا في نهاية العقد الثالث من عمره.

في بداية من سنة 1780 نجد تحولاً في الوعي جلب معه نظرة جديدة إلى الطبيعة. والحق أنَّ ما يميز شخصية غوتة على نحو ملفت للنظر هو شمولية المعرفة.

في العقد الأول من إقامته الدائمة في فايمر كانت حياته على تتواء في الجوانب لا مثيل له: كان أمين سر الدوق ووزيراً ومستشاراً في شؤون الدولة والثقافة والمال وقانونياً متقدماً وموظفاً إدارياً. وكان جاماً وباحثاً في الطبيعة وشاعراً يهتمُّ بالإهتمام نفسه بكلِّ فرع من هذه الفروع، إلى جانب عمله في شؤون الغابات وتنظيم وتوسيع الحدائق العامة التي يصفها في تاريخ دراساته النباتية كان

هناك التعدين في إلmineao الاستثمار الجيولوجي للتوري بغرين ومهما في لجنة إنشاء الطرق والمنشآت المائية والإلقاء محاضرات في التشريح في مدرسة الرسم الحرة في فاييمار، وفيما بعد وقبل كل شيء الإشراف على معاهد جامعة بينا التي عرفته أكثر وأكثر بمسائل تتعلق بعلم الطبيعة؛ فضلاً عن ذلك وبصفته عضواً في هيئات علمية عديدة كان على اتصال بالبحث المعاصر في الطبيعة. كل هذه الأعمال لم تكن إلا حافزاً للتوغل في الحقل الامتناهي لأبحاثه العلمية ومشاهداته ووصفه. وسعى من وراء هذا كله إلى الاقتراب من الامتناهي.

انطلق غوته من الطبيعة باعتبارها حياة لا باعتبارها المادة الميتة، إذ أنه لم يكن له شأن بطبيعة لا روح لها وتحكم بها قوانين ميكانيكية رياضية. فالقانون الذي يقصده غوته ليس السيادة المطلقة لمبدأ السبيبية، إن مفهوم الطبيعة عنده لـه صفات ديناميكية، ويرمي بهذا إلى نظرة تتطرق من قوة فاعلة فعلاً موحداً وتوضح الكون من مبدأ أساسى خلاق يمكن أن يسمى المرء إله أو فكرة أيضاً.

لا تهم غوته الطبيعة الإله من حيث هي نظام مفاهيم مستقر، بل يهمه ترابط لا متناه لقوى حركة كما تهمه أسمى الصور للشيء الواقعي والشيء المؤثر، إذ ليس في الإمكان إدراك كنه شيء إلا من تأثيراته.

غوته يرى ويبحث عن الطبيعة الإله في الواقع المحيط به، في الحادثة الطبيعية الكونية كما تحدث في الزمان والمكان. والطريق إلى ذلك هي الروية الحسية المباشرة، النظام الممارس يومياً وكل ساعة لرؤية الأشياء كما هي وتلقفها بعين هادئة دقيقة. فكل فهم وإدراك للطبيعة يبدأ بالانطباع الحسي المباشر أي بالحادثة الطبيعية الحرة المكتشوفة مباشرة أمام الحواس. وهذا الانطباع يستحيل بدوره إلى معرفة أيضاً.

كان علم الطبيعة قد قطع الشوط بعيد في أثناء حياة غوته بدءاً من الاشتغال بظواهر الكهرباء حتى بدايات المغناطييسية الكهربائية، وبهذا كان البحث في الطبيعة جزءاً لا يتجزأ من ثقافة عصر غوته. فهو هواية الإنسان المتقدف ثقافة شاملة. وعلى هذا يجب لأن يفهم بأنه ميدان معزول وليس عملاً لقوى العقلية التي تتمي الشيء الفردي في الإنسان. والبحث في الطبيعة، كما رأه غوته، يجب أن يربط لا أن يفصل، فالقناعة الأكثر أساسية التي تقوم عليها مؤلفاته في علم الطبيعة هي على الأرجح إيمانه بوحدة الطبيعة.

وبما أن الطبيعة تشمل الإنسان، فما من شيء في الطبيعة يقف منفرداً بذاته. كل شيء موجود من أجل الآخر، الواحد من أجل الكل والكل من أجل الواحد، ولهذا كان كانت تصورات غوته عن الطبيعة والفن والمجتمع أنها تندمج في وحدة، وهذا الاندماج يؤدي إلى تركيب أو كل، ويكون البحث في علم الطبيعة معتبراً بقدر ما هو مفيد لهذا الكل، فكل باحث يصنف يتوكى السيطرة ويريد أن يسقط الشيء الفردي من حسابه لكي يتصرف بعد ذلك بكل ارتياح. غوته ينوي أن يضع علماً يجل ويعجل، لا علماً يخضع ويدلل. ولهذا لم يتقبل قانون العلم على أنه شيء معطى، بل اختبر أصله وكفاءته ومضمونه، فهو يبحث عن قوانين تنظم الكل، وهناك، كما يعتقد، قانون أزلية يحرك كل شيء تحريراً بطيئاً، وليس في وسع الطبيعة أن تصل إلى كل شيء تريده إلا بالتعاقب، فلا تتفزز قفزات. وفي سنة 1771 يكتب: "الطبيعة كلها لحن ينطوي على تناغم وانسجام. "جوهر الطبيعة هو التلاحم والتواافق. "أي شيء هو التناغم إلا أن يكون القواعد وأي شيء هو اللحن إلا أن يكون الممارسة؟"

نظرة غوته إلى الطبيعة تتطلق من الإنسان، مركز كل شيء، ومن تجربته المباشرة إلى الطبيعة وانطلاقاً من هذا المركز تتنظم الظواهر في نظام منطقي سليم.

"فاوست"، أعظم شخصيات غوته، يسعى ويجهد علمياً ليعرف أسرار الطبيعة؛ وغوته، خالق فاوست، يتوكى أن يفهم الطبيعة بالتفصيل وبالكليمة على أنها مثله، مقتضاها أن الإنسان والطبيعة منظمان على نحو مشابه ومتناسبان، بحيث يعكس الروح بصفة مرآة خلقة صورة الكون؛ فالكون "واحد متناسق" والإنسان أيضاً "واحد متناسق".

علم الطبيعة الخاص بغوته هو قبل كل شيء عمل الإنسان والشاعر غوته الذي بحث عن المعرفة التي ينبغي أن تكون صالحة في ذاتها وسارية المفعول، وقد أراد أن يضيف بعلمه هذا حلقة إلى سلسلة معرفة العلوم الطبيعية للعصر الحديث. أما اختبار شرعية مؤلفات غوته في علم الطبيعة وصحتها وأهميتها في إطار البحث السادس في هذه الأيام فهو مهمة عالم الطبيعة ولا يتسع المجال الآن لإلقاء الضوء على هذا الجانب.

إذاً في الثمانينات تبدأ أبحاث غوته والدراسات المنتظمة في العلوم الطبيعية.

فكـل الاهتمامـات تقرـيباً التي شـغلـت غـوـته فـي وقت لـاحـق يـمـكـن تـبـع بداـياتـها فـي تلكـ الفـترةـ. حتـى مـلاـحظـاتهـ المـتـعلـقةـ بـعـلمـ الـظـواـهـرـ الـجـوـيـةـ المـدوـنةـ فـي الـيـومـيـاتـ الإـيطـالـيـةـ تـدلـ عـلـىـ أـنـ غـوـتهـ اـهـتمـ بـتـرتـيبـ الـظـواـهـرـ الـجـوـيـةـ وـشـرـحـهاـ قـبـلـ أـنـ يـتـعـرـفـ عـلـىـ عـلـمـ تـشـكـلـ الـغـيـومـ لـلـإنـكـلـيزـيـ لـوكـ هـوارـدـ (1772ـ1864)ـ بـثـلـاثـيـنـ سـنـةـ. إـلـىـ جـانـبـ الـدـرـاسـاتـ فـيـ مـجـالـ الـجـيـوـلـوـجـياـ وـعـلـمـ الـتـعـديـنـ يـحـتلـ التـشـرـيعـ وـعـلـمـ النـبـاتـ الـحـيـزـ الـأـعـظـمـ. فـفـيـ سـنـةـ 1781ـ يـحـضـرـ مـاحـاضـراتـ يـوسـوسـ كـرـبـسـتـيـانـ لـودـرـ (1753ـ1778)،ـ الـإـخـتـصـاصـيـ فـيـ عـلـمـ الـعـظـامـ وـأـسـتـاذـ التـشـرـيعـ فـيـ بـيـنـاـ. كـماـ أـنـ كـارـلـ فـونـ لـينـيـهـ،ـ عـالـمـ الـطـبـيـعـةـ السـوـدـيـيـ المـشـهـورـ (1707ـ1778)،ـ كـانـ أـحـدـ أـوـاـنـ الـبـاحـثـيـنـ الـذـيـ أـخـذـ غـوـتهـ يـقـتـنـيـ مـؤـلـفـاتـهـ فـيـ عـلـمـ النـبـاتـ قـبـلـ سـنـةـ 1780ـ. فـقـدـ تـبـحـرـ فـيـ نـظـامـ لـينـيـهـ الـنـبـاتـيـ. وـفـيـ أـنـثـاءـ رـحـلـتـهـ سـنـةـ 1785ـ إـلـىـ كـارـلـسـبـادـ يـجـمـعـ الـنـبـاتـاتـ لـبـحـثـهـ بـهـمـةـ كـبـيرـةـ وـحـمـاسـةـ عـالـيـةـ. وـفـيـ حـدـيقـةـ مـنـزـلـهـ وـالـحـدـائقـ الـعـامـةـ بـفـايـمارـ تـشـغـلـهـ فـكـرـةـ الـنـبـةـ الـأـولـىـ وـتـنـطـغـيـ عـلـىـ أـيـ عـلـمـ أـدـبـيـ أـخـرـ تـتـكـونـ لـدـيـهـ قـنـاعـةـ نـهـائـيـةـ بـنـتـابـقـ أـصـلـيـ لـكـلـ أـجزـاءـ الـنـبـاتـ،ـ وـفـيـ سـنـةـ نـفـسـهاـ يـسـتـبـينـ لـهـ مـبـداـ التـحـولـ فـيـ صـقـلـيـةـ فـيـ أـنـثـاءـ رـحـلـتـهـ إـلـىـ إـيـطـالـيـاـ الـتـيـ تـعـدـ نـقـطـةـ تـحـولـ فـيـ دـرـاسـاتـهـ فـيـ عـلـمـ الـنـبـاتـ،ـ هـنـاـ فـيـ إـيـطـالـيـاـ وـعـنـدـ زـيـارـتـهـ حـدـيقـةـ الـنـبـاتـاتـ يـجـدـ مـعـلـومـاتـهـ فـيـ عـلـمـ الـنـبـاتـ مـحـقـقـهـ. فـقـدـ رـاقـبـ عـلـىـ الضـفـافـ وـزـهـورـ الـجـنـطـانـيـاـ كـيـفـ تـتـبـدـلـ أـشـكـالـ الـنـبـاتـاتـ تـحـتـ تـأـثـيرـ اـرـتـقـاعـ الـجـبـلـ،ـ كـماـ تـعـرـفـ فـيـ مـسـتـهـلـ هـذـهـ الرـحـلـةـ عـلـىـ عـالـمـ الـنـبـاتـاتـ بـدـءـاـ مـنـ نـبـاتـ الـأـلـبـ حـتـىـ الـنـبـاتـ الصـقـلـيـ؛ـ هـنـاـ بـحـثـ عـنـ نـبـةـ أـصـلـيـةـ مـرـئـيـةـ حـقـيقـيـةـ وـخـيـلـ إـلـيـهـ فـيـ وـسـطـ هـذـهـ الـمـجـمـوعـةـ مـنـ الـنـبـاتـاتـ أـنـهـ تـوـصـلـ إـلـىـ الـنـبـةـ الـأـصـلـيـةـ:ـ "فـيمـ أـتـبـينـ أـنـاـ هـذـاـ الشـكـلـ أـوـ ذـاكـ نـبـةـ إـنـ لـمـ تـكـنـ كـلـهـاـ مـكـوـنـةـ وـفـقـ نـمـوذـجـ وـاحـدـ؟ـ"

فالـنـبـةـ الـأـولـىـ،ـ فـيـ نـظـرـهـ،ـ نـمـوذـجـ وـمـفـتـاحـ يـسـتـطـيعـ المـرـءـ أـنـ يـوـجـدـ بـهـ نـبـاتـ إـلـىـ مـاـ لـاـنـهـاـيـةـ تـكـونـ لـهـ حـقـيقـتهاـ وـضـرـورـتـهاـ،ـ وـأـدـرـكـ فـيـمـاـ بـعـدـ،ـ فـيـ جـزـءـ مـنـ الـنـبـةـ نـفـسـهاـ أـيـ فـيـ الـوـرـقـةـ،ـ الشـكـلـ الـأـسـاسـيـ لـلـنـبـةـ الـمـتـحـولـ بـشـكـلـ دـاـنـمـ؛ـ فـالـعـضـوـ الـأـصـلـيـ يـدـعـىـ وـرـقـةـ تـتـحـولـ إـلـىـ سـاقـ وـكـمـ وـزـهـرـةـ،ـ إـلـىـ ثـمـرـةـ وـبـذـرـةـ تـنـشـئـ الـنـبـةـ.

فالـوـاحـدـ فـيـ الـمـتـوـعـ أـيـ الـوـرـقـةـ باـعـتـارـهـ عـضـوـاـ أـسـاسـيـاـ لـلـنـبـةـ.ـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ التـحـولـ هـوـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ عـمـلـيـةـ تـصـاعـدـ،ـ طـرـيـقـ مـنـ الـبـسيـطـ،ـ لـاـ بـلـ مـنـ خـشـونـةـ الـوـرـقـةـ إـلـىـ نـعـومـةـ الـزـهـرـةـ وـجـمـالـهـ.ـ ثـمـ بـالـطـرـيـقـ نـفـسـهاـ تـتـحـولـ أـيـضـاـ الـنـبـةـ الـأـصـلـيـةـ إـلـىـ أـجـنـاسـ وـأـنـوـاعـ حـالـيـةـ وـلـاحـقـةـ بـأـنـ تـسـتـجـيـبـ بـحـكـمـ دـافـعـ "ـالـتـكـوـنـ الـدـاخـلـيـ"ـ إـلـىـ

المؤثرات الخارجية من تربة ومناخ وسطح وبحر.

إن الأبحاث المتعلقة بعلم النبات تم تلخيصها في عام 1790 في المؤلف (تحول النباتات)، وفيه يعرض غوته لأول مرة نتائج دراساته في علم النبات، وكان همه أن يحصل على نموذج لشكل النبتة أو مقاييس تفاصيل الكائنات الحية.

غوته يؤسس الطريقة الموروفولوجية أو علم التشكيل من خلال مقارنة منهجية لأشكال النباتات. كل بنية مختلفة عن الأخرى، ومع هذا هناك أشياء مشتركة يمكن مقارنتها بعضها ببعضها بكليتها وجزئياتها.

وهذا الشيء بين النباتات في تحولات متعددة دائمًا، فالشكل شيء متحرك، شيء في صيغة ورثة ورثة، وعلم التشكيل إذاً هو علم التحول، وهذا بدوره هو المفتاح لكل علامات الطبيعة ورموزها. وبهذا ينتقل غوته من البحث عن البنية الأصلية إلى السؤال عن كيفية التنظيم، فلا الصورة الأصلية تحتل الصدارة، بل قانون التشكيل، أي ليس السؤال عن بنية أساسية، بل البحث في قانون تشكيل النباتات عن الشكل الذي تلعب به الطبيعة، وجملته أنه إن يصور الطبيعة فاعلة وحية متوجهة في هذا كله من الكل إلى الأجزاء.

علم التشكيل هذا هو علم ظواهر الأشكال، وفهم الظواهر هنا على أنها نتائج من غير أسباب أو معلول من غير علة، إنه وقائع وأشياء، والعلاقة ليست علاقة سببية ميكانيكية، بل علاقة تأثير عضوية.

إنه لخطأ أن تقول: إن السمكة موجودة من أجل الماء، بل إن التعبير السليم هو أن السمكة موجودة في الماء، ومن خلال الماء. "إن وجود مخلوق ما نسميه سمكة ممكن فقط في ظل شرط عنصر نسميه ماء، لا ليكون فيه فقط، بل ليتصدر فيه أيضًا. وهذا ينطبق على المخلوقات الأخرى أيضًا." فالنموذج والبيئة يحدان كلاهما شكل الحيوان ولأن البيئة تشارك في تكوين الشكل، فإن المخلوق مزود ببيئته على نحو لا مزيد عليه.

غوته جاء إلى علم النبات من علم التشريح المقارن حيث اتضح أمام عينيه الترابط الطبيعي للأجزاء في الهيكل العظمي الذي يحفظ فيه "طبع الأكيد" لكل شكل على مدى الأزمان وبشكل مؤكد."

في قطعة غير مكتملة حول شكل الحيوان وتعود إلى سنة 1790 يصف "النمط

العظمي" بأنه "نموذج عام" يجب أن يخضع له البشر والحيوانات على سواء. فهو يتكلم عن مبدأ التشكل نفسه الذي يوضح وحده تشابه الأشكال الحيوانية. وفيما بعد يستعمل مفهوم "الحيوان الأصلي" كصورة مقابلة للنسبة الأصلية. وفي مقالته "مدخل عام إلى علم التشريح المقارن"، تاريخ 1795، يتكلم منطلاقاً من علم العظام، عن نموذج تشريحي بصفته قاعدة مقارنة ويسميه "الصورة العامة" التي تحلق فوق المتنوع وتشمل أشكال الحيوانات كلها على قدر الإمكان؛ وتهمنه جماجم الحيوانات التي يقارنها بلا تردد بجمجمة الإنسان، ورائدة الرؤية أو المعرفة أن العظام هي القواعد الأساسية للتشكل وتشمل صفات كائن ما. والفرق بين الإنسان والحيوان ليس في عظام إفرادية، بل في البناء الكلي، وفي النوعية التي تتطابق فيها الأجزاء كلها. وسواء أظهر عظم ما صغيراً أم كبيراً، ملتحماً أم منفرداً، فإنه في بنية الحيوانات كلها المكان الثابت نفسه. وتبعاً لذلك فإن النموذج هو صورة ترتيب العظام في بنية الحيوانات، الصورة المجردة من العدد والشكل والحجم. فالثابت هو المحيط الذي يكون فيه كل عظم موجوداً والمتغير هو شكل الأجزاء وعدها وحجمها. حتى عالم الحيوان ينظر إليه غوته على أنه كل تكون بموجب قانوني الثانية والتصاعد من الحيوان الأصلي، والحيوان الأصلي بدوره يعزوه، على الأقل بالنسبة لعالم الحيوانات الفقيرية، إلى عضو وحيد هو الفقرة تكون من أجزاءها المتغيرة العمود الفقري من الذنب إلى الجمجمة، وعظام الجمجمة فهمها غوته أنها فقرات رقيبة متحولة. كان غوته مقتضاً أن كل الأجزاء الرئيسية التي يتكون منها شكل حيوان كامل يجب أن تكون موجودة في الوقت نفسه لدى الحيوان الآخر.

جزء واحد فقط من بنية العظام الحيوانية لم يجده بعد الإنسان في بادئ الأمر، وفي رأي علماء تشريح رواد كان ينبغي ألا يجده أيضاً، إلا وهو العظم القاطعي الذي يشمل القواطع العليا الداخلية. عند الإنسان، كما سمع هو، تبت الأسنان القواطع العليا مباشرة من عظم الفك، وهذا يعني، أن العظم القاطعي يفقد إلى الدرز الذي يفصل عند الحيوانات الجزء الوسطي الأمامي من الفك العلوي. وهذا الخبر لم يرض غوته، فتابع عمله بالتشريح المقارن؛ وشاهد جمجمة الإنسان بلا حرج واكتشف الدرز الدقيق الذي يفصل فيها أيضاً العظم القاطعي من الفك العلوي الخارجي. وعلى هذا أعتقد غوته أنه اكتشف شيئاً جديداً عند الإنسان، وغمراه فرح طاغ لهذا الاكتشاف، ذلك أن بعض علماء التشريح أنكروا على الإنسان هذا العظم وذهبوا إلى أن جمجمة الإنسان البالغ تفتقد إلى هذا العظم القاطعي، والظاهر لأن

الدرز الخارجي يتلحم مبكراً، وفي هذا وجد المرء فرقاً جوهرياً للإنسان عن الحيوان؛ وبعضهم، ومنهم غوته، ذهبوا إلى أن العظم القاطعي مكون عند الإنسان أيضاً، إلا أنه لم يعد في الإمكان التعرف عليه بسهولة لاتحامه من الخارج بعظم الفك، على حين هو عظم مستقل عند الإنسان حتى السنة الرابعة وعند الحيوان طوال الحياة -ففي جسم الإنسان تصاعد العنصر الحيواني إلى أغراض علياً؛ وتحدث غوته في ملحق لمقالته حول العظم القاطعي أن هذا يختفي أخيراً على استحياء عند الإنسان، المخلوق الأibil، مخافة أن يشي بشراثة حيوانية. إن شكله وقف على نوعية الطعام الذي يتناوله الحيوان. هذا ويسعى العظم القاطعي في الأدبيات الألمانية عظم غوته لأن الاهتمام به ازداد لدى علماء الحيوان من خلال دراسات غوته التسريحية المقارنة. أما الهيكل العظمي الإنساني فإنه يتميز في نظر غوته بأن عظام الجبهة فيه متكونة على نحو أشد لا عدة الأكل كما هي لدى الحيوانات. وأكثر الأفكار جرأة وأهمية أنه ما من حيوان بمفرده يمكن أن يكون النموذج العظمي للجنس بكامله، كما أن الإنسان لا يمكن أن يكون النموذج للحيوانات الثديية، ذلك لأنه يتمتع بأسمى كمال عضوي، فلا الإنسان نموذج للحيوان، ولا الحيوان نموذج للإنسان. إن المقياس النموذجي المثالي يمكن أن يشكله النموذج (النط) العظمي الذي تشكل بموجبه الإنسان والحيوان؛ والإنسان يعلو الحيوان مرتبة ذلك بأنه لا يتعلم من أعضائه فحسب، بل يستطيع أيضاً أن يؤثر فيها وأن يطورها ويسيطر عليها. أما الحيوانات فتحتكم بها أعضاؤها: "فكلاهما ازداد المخلوق كاماً ازدادت الأجزاء اختلافاً عن بعضها. ففي تلك الحال يماثل الكل الأجزاء كثراً هذا أو قل. أما كلما شابهت الأجزاء بعضها ببعضاً قل خصوصيتها بعضها بعضاً. فخصوص الأجزاء دليل على مخلوق كامل."

هنا تترسم إمكانية فهم الطبيعة كلها سلسلة متصاعدة تصاعدًا مستمراً. على أن الانتقال من نباتات إلى حيوانات أو من نموذج حيوانات دنيا إلى نموذج الحيوانات الثديية لم يقم غوته قط في أظهاره. إن هدف البحث في العظام مماثل لهدف البحث في علم النبات: الدوام في التحول والواحد في الكل يواجهنا في النباتات والحيوانات ولو في صور مختلفة تماماً. فالنط أو النموذج هو الدائم المستمر والتحول الشيء البعيد عن الحواس والمتبدل تبدلاً غير متناه. وقد اهتم غوته منذ زمن مبكر بالفكرة أن تنوع الأشكال تطور زمنياً من أشكال بسيطة، أي أن السلسلة تصعد من الكائن المنظم تنظيمًا أعلى ويكون في قمتها الحيوان الأكثر

تكاملاً، ولا سيما الإنسان، وفكرة الكمال العضوي لا علاقة لها بعملية الانتقاء الطبيعي الذي يوضحها داروين من خلال نشوء أنواع عديدة على من أنواع أكثر بدائية. الكمال في نظر غوته مقياس كيفي نوعي يسمح بالقيام بتصنيفات وسط الأحياء المقارنة مثل "أعلى" و "أدنى".

سلسلة غوته عكسية فالنظرية إلى الأمام وإلى الوراء، تقارن مختلف التشكيلات من أبسط الطحالب إلى معجزة الوردة، ومن الحصان إلى عجل البحر، ومن الغزال إلى الأسد. إنه يبحث عن الشيء المماثل في الشيء المختلف لا لكي يحدده تحديداً تجريدياً، بل ليراه بعين العقل، إن لم يكن بالعين المجردة. هذا الشيء المرثي بعين العقل، الشيء المماثل في مختلف المتنوع، يسمى في علم العظام "النمط" أو "النموذج" وفي علم النبات "النبتة الأصلية". غوته يحاول أن يحصر الشيء المشترك بين الكائنات في الحيوان الأصلي والنبتة الأصلية، في النموذج الحيواني والنموذج النباتي بالمقارنة. فلدى الحيوان الأعلى يكون الجزء أو العضو الذي يبدو خاصعاً للتحول على خير الوجوه عنصراً فقرياً يتكرر في تحول دائم بدءاً من رأس الذنب إلى عظم الجبهة الأمامي. أما لدى النبتة العليا فالورقة على القسم البرعمي بتحولها تقود من الجذر الأقل تشكلاً إلى الزهرة الأعظم تشكلاً. وبهذا يتجلّى في الوقت نفسه مبدأ الثانية والتصاعد؛ الثانية في تعارض المتحول بواسطة التحول - عند الحيوان ذنب ورأس، عند النبتة قطب الجذر وقطب البرعم، أما التصاعد فيكون في تعاقب الوصلات التي تربط القطبين معاً ربطاً معقولاً.

وهذا النوع من الرواية أكد الإيمان بطبيعة الإلهية واحدة أزلية، وبال فكرة التي تسود العالم الداخلي والعالم الخارجي على سواء وتوافق أسرار الطبيعة والعقل. فقانون الثنائي يدل على وحدة الطبيعة التي تشمل الإنسان أيضاً، وقانون التصاعد يدل على تمييز مجالاتها.

أحب مجال بحث لغوته كان علم البصريات، إذ أنَّ غوته كان قبل كلِّ شيء إنسان عين من الطراز الأول؛ فعالِم الظواهر بوفرته نفذ إلى أعماقه عن طريق عضو العين. في العين ينعكس العالم من الخارج والعالم من الداخل. فإلى جانب البيولوجيا فإن علم الألوان هو الموضوع الأساسي لبحثه في الطبيعة وأهم إنجازاته.

وعلم الألوان في نظر غوته ليس مجالاً فرعياً للفيزياء فحسب، بل هو قبل

كل شيء أيضاً حقل تأثير للحياة الواسعة ذو طبيعة خاصة يجب أن يتغلغل فيه لأنه لا غنى له عنه في نظرته إلى الطبيعة. إلا أن عليه أن يصارع في علم الألوان بعصوبية أكبر منها في علم النبات وعلم العظام. فمذهب نيوتن يقف عائقاً في الطريق، نظريته المعتبرة لدى الفيزيائين عن انقسام الضوء إلى ألوان؛ إذ يكاد لا يوجد أية نقاط تماส بين علم الألوان غوثه وعلم بصريات نيوتن. فضوء نيوتن قيمة مجردة مستقلة عن عملية الرؤية. إذ أنه يريد أن يوضح الألوان على نحو فيزيائي ولا يريد أن يلاحظها ويصفها في وفرتها الحية. وتهم نيوتن صفات الضوء الثابتة التابعة لقياس والحساب، أما غوثه ففهمه الظواهر الأساسية، إنه يقف من الألوان موقف البيولوجي فيكتب تاريخها وحياتها في الواقع الذي يظهر بدءاً من نشأتها في العين الإنسانية وفي أرق تحولات الضوء وسطوح الأجسام حتى أعقد ظواهر الألوان وأكثرها ثباتاً وديمومة. ولم يغادر قط مجال الملاحظة الواقعية وأكَّد الشروط التي تبرز في ظلها الظواهر الملحوظة من قبله.

بدأت دراسات غوثه وتجاربه في مجال علم الألوان في سنة 1790 وواصل ذلك على مدى عقدين من الزمن تقريباً؛ إلى أن ظهر علم الألوان في عام 1810 في مجلدين، فكان عملاً انصبَّت فيه كل الاكتشافات المنسية التي تم التوصل إليها في هذا المجال عند القدماء وفي العصور الوسطى والقرون اللاحقة؛ وبهذا فإن هذا العمل يمثل أفضل مصدر لدراسة الظواهر في عالم الألوان ويشمل ثلاثة أقسام: 1- قسماً تعليمياً 2- قسماً هجومياً يتناول فيه نظرية نيوتن 3- قسماً تاريخياً ومواد حول تاريخ علم الألوان التي فهمها غوثه رمزاً لتاريخ العلوم كلها.

في القسم التعليمي تناول الألوان تبعاً لشروط ظروفها على أنها ألوان فيزيولوجية وفيزيائية وكيميائية؛ يلي ذلك ثلاثة فصول أخرى قصيرة، يلخص فيها أهمية الألوان في الطبيعة والحياة الإنسانية ويعتبر علم الألوان أساساً لرمذية ألوان ممكنة. وفي هذا العلم لا يوجد فرق بين العالم الداخلي والعالم الخارجي. فاللون الذي يملأ صدرنا واللون الذي يتجلَّ لنا هما العالمان الداخلي والخارجي.

يعيب غوثه على فيزياء نيوتن أنها عزلت التجارب عن الإنسان، إذا جاز التعبير، فالظواهر اختلفت في أعداد، وعين الذي يرى اللون لم تدخل في الحساب. غوثه لم يكن ليستطيع أن يتصور عالماً كائناً بذاته ومنفصلاً عن المشاهد. فما كان يهمه لدى كل تأمل في الطبيعة هو لقاء الأنَا والأَنْتَ، الذات والموضوع،

وإدارك أخوي للنظر.

بعد عودته من البندقية في بداية سنة 1790 نظر مصادفة من خلال موشور إلى جدار أبيض. لم ير أية ألوان. تمت قائلًا: علم نيوتن خاطئ. وبحسب الشروط التي يظهر فيها اللون للإنسان يميز غوته ثلاثة مظاهر للألوان: فيزيولوجية وفيزيائية وكيميائية.

الألوان الفيزيولوجية تخص العين وبهذا تخص شواهد المشاهد، فهي تظهر رد فعل العين على المؤثرات الخارجية ويمكنها أن تنتج من طريق إثارة معدومة اللون من الخارج. وبتأثير الضوء والظلام على الشبكية يظهر القانون الأساسي الذي يملأ تأثيره الطبيعة كلها: فالعين تتكمش بالظلام وتتمدد بالضياء. وبتأثير الضياء والظلام فإنهم نقىضهما على الفور، إن شيئاً مظلماً يؤثر في العين زماناً ما، يحمل العين عند زواله على أن ترى الشكل نفسه مضيناً وبالعكس.

أما الألوان الكيميائية التي تتبع الشيء المشاهد وتلازمه بصورة دائمة في أغلب الأحيان فتختلف الألوان الفيزيولوجية، فهي موضوعية بأسرها وتنتجها عمليات كيميائية تظهر على أجسام جامدة، فلا تظهر على سطح الجسم المشاهد فحسب، بل تخترقه أيضاً، هنا طور غوته المفهوم الأساسي للتصاعد نحو الأحمر.

فالأرجواني شكل الذروة. في العالم الخاص بعلم المعادن لا يوجد إلا تصاعد من جهة الأصفر، مثلاً لدى الحديد الذي ينتقل بواسطة التسخين من الأصفر إلى الأزرق عبر الأحمر، هذا وتأخذ الألوان الفيزيائية مكانها بين الألوان الفيزيولوجية والكيميائية. وهذه لا تتبع شخص المشاهد ولا الشيء المشاهد، بل إنها لا تبرز إلا بواسطة مواد لا لون لها. ويدخل قبل كل شيء في هذا الباب الألوان الجوية أي تأثيرات الألوان التي يتم إحداثها بأن يرى ضوء الشمس من خلال السديم الجوي أو بأن يشاهد ظلام الفضاء اللامتناهي من خلال السدم التي يضيئها ضوء النهار. نيوتن علم أن الألوان كلها يحتويها الضوء الأبيض، والانكسار في المنشور يقسم الضوء إلى ألوان إفرادية، وكل لون من ألوان الطيف يتعدد طبقاً لذلك بزاوية الانكسار. غوته يؤكد أن الانكسار وحده لا يكفي لكي ينتج ألواناً. ظواهر الألوان لا تنتج إلا عندما تزاح المسافات أكثر ضياء إزاء مساحات أكثر ظلاماً وبالعكس.

على الحافة فقط حيث يتجاوز الضوء واللاظوء. النير والمظلم، تنشأ الألوان، وتوصل غوته إلى الظاهرتين الأصليتين: -الأبيض فوق الأسود (الانتقال

من الأبيض إلى الأسود) أي الكدرة المضاءة أمام الحلقة ينشأ اللون الأزرق، وإذا صارت الكدرة التي نرى من خلالها الحلقة أكثر شفافية تصاعد اللون الأزرق إلى اللون البنفسجي.

- الأسود فوق الأبيض أو الكدرة أمام الضوء ينشأ الأصفر حتى الأحمر. فإذا تكثفت الكدرة التي نرى من خلالها الضوء الأبيض تصاعد اللون الأصفر إلى لون برتقالي.

أما الأخضر فلا يدخل في عداد الظاهرة الأصلية. فهو لا ينشأ إلا إذا غطى الإطار الأصفر والإطار الأزرق كل منهما الآخر. وفي الإمكان صنع هذه الألوان حين يثبت المرء أفقاً شريطاً أبيضاً على أرضية سوداء، عندها ينشأ من فوق إلى تحت: فوق تظهر جهة الأصفر (الأسود فوق الأبيض) وتحت جهة الأزرق، وعلى حين يختار المرء عرض الشريط اختياراً مناسباً ويحسن ضبط بعده عن الشريط يستطيع أن يتوصل إلى أنَّ الألوان تغطي بعضها بعضاً إلى حد ما صوب الوسط، أي أنَّ الأصفر من فوق والأزرق من تحت، وبالمزج يحصل المرء على الأخضر ثم على طيف نيوتن: فوق الأحمر فالبرتقالي فالأخضر فالأخضر فالأزرق ثم البنفسجي. وهذه الظاهرة ليست في نظر غوته أصلية، بل مولدة ولا تحصل إلا مصادفة من كلتا الظاهرتين الأصليتين لجهة الأصفر وجهة الأزرق. وفي وسع المرء أن يضع شريطاً أسود على أرضية بيضاء، ففي هذه الحال يظهر من فوق إلى تحت أولاً الأزرق ثم البنفسجي فالأسود ومن ثم بدءاً من الحافة السفلية الأحمر والبرتقالي فالأخضر. ومن اللونين، الأحمر والبنفسجي، ينشأ اللون الذي سماه غوته فيما بعد الأرجواني.

هذا هو الانتقال النبيل للأصفر إلى الأزرق الذي يؤدي إلى الألوان المتتصاعدة تصاعداً ضارباً إلى الحمرة. في هذه الألوان: أصفر، أزرق، أخضر، برتقالي، بنفسجي، أرجواني تكتمل دائرة الألوان الغوتية. نيوتن لم يدرك إذا الروعة لحقيقة عالم الألوان واكتفى بالجانب الأرداً لأنَّه قام بتجارب بشق، أي بشرط فاتح محدد بالظلمة. فالشقوق أو التقويب في مصراع النافذة تضعف الضوء ولا تسمح بأن تظهر الروعة الكاملة لعالم الألوان.

غوته يسمى الألوان ظاهرة طبيعية أولية لحسنة العين تتجلّى مثل بقية الظواهر من خلال عملية الفصل والتضاد والمزج والربط؛ ويؤكد حرکية الألوان

وتبدلها وسرعة نشوئها واحتفائها وارتباطها وانفصالها.

هذا وإنْ هناك علاقة فعلية بين اللون والإحساس؛ فكل لون يؤثر في الوجدان تأثيراً جلياً، والإنسان ينسرح صدره للون بصورة عامة، إنه يحتاج إلى اللون احتياجه إلى الضوء، وكل لون يهيئ لحالة نفسية خاصة تظهر على نحو عفوي: فاللون الأصفر مثلاً له دائماً تأثيراً دافياً بهيج يبحث على العمل، على حين يحدث اللون الأزرق شيئاً متراقباً يتمثل في الإثارة والهدوء. فالآخر الشافي الذي كان يناسب للأحجار الكريمة في أزمان سابقة يثبت التأثير العميق في النفس الإنسانية، وفضلاً عن ذلك يتكلم غوته على إمكانيات استعمال جمالي ورمزي للألوان. فالأرجواني رمز للعظمة والجلال، كما أنَّ الأخضر يرمز إلى الأمل، وما إلى ذلك. إنَّ ما اكتشفه غوته في ميادين العلوم الطبيعية والطريقة التي نظر بها إليها وجعلها في متناول يده، فهو من دون شك ممتع ذو قيمة باقية إلى حد ما. أما الجزء الخالد من آثار غوته فهو العمل الأدبي، مع أنَّ بينهما كلِّيَّة علاقَة متبادلة وتأثيراً متبادلاً.

هذا غيض من فيض؛ ونأمل أن تكون صورة غوته عالم طبيعة قد توحدت في أذهاننا مع صورته شاعراً كبيراً على النحو الذي يقربنا منه أكثر وأكثر.

□

□ ثبت المراجع والمصادر (باللغة الألمانية)

- 1- غوته، يوهان فولفغانغ فون: مؤلفات غوته. طبعة هامبورغ في 14 مجلداً. دار نشر كريستيان فاغنر، هامبورغ 1960 (طبعة ثالثة). المؤلفات في علم الطبيعة: مجلد 13 أو 14.
- 2- شتاينغر، أميل: غوته في ثلاثة مجلدات. دار نشر أطلانتيس، زيروريخ وفرايبورغ في برلينساو 1964.
- 3- شيدر، غريته: الإله والعالم. ثلاثة فصول في نظرية غوته إلى العالم. هاميلن 1947.
- 4- فيفيتور، كارل: نظرة غوته في الإنسان. دار نشر فرانكفي، بيرن وميونيخ 1960.
- 5- مولر - زايدل، فالتر: تاريخية العصر الكلاسيكي الألماني. الأدب وصيغ التفكير في نهاية القرن الثامن عشر. دار نشر مينسلر، شتوتغارت 1983.

□□□

الشجر

- 1- من قصائد التلاشي، تأليف: بيتنت أليكساندر. ترجمة رفعت عطفة.
- 2- قرب السكة الحديد، تأليف: إيفور شكلياز فيسكي،
ترجمة يوسف ضمرة.



من قطائد التلاشبي

POEMAS DE LA CONSUMACION

1966 - 1965

بيثنتي أليكساندري
VICENTE ALEIXANDRE

■ ترجمة وفتحت عطفة ■

ولد في إشبيليا يوم 26 نيسان 1898 وعاش في مالقة، حيث عمل أبوه، مهندساً للسكك الحديدية حتى عام 1909 حين اضطرَّ بسبب مرضه للانتقال إلى مدريد لأنَّ هواء البحر لا يواتيه. كان اتصاله الأول بالشعر من خلال الشاعر البرغواطي روبن داريو عام 1917 عندما قدم له الشاعر الإسباني داماسو ألونسو مختارات من شعره فاكتشفَ في نفسه الشاعر وراح يقرأ لشعراء آخرين مثل أنطونيو ماتشادو، الوحيد الذي حفظ له أشعاراً عن ظهر قلب. احتُكَ بشاعراء جيل السابع والعشرين الذي ينتمي إليه من خلال ذات الشاعر داماسو ألونسو وتعرف على رافائيل البرتي خلال معرض فني له أقامه في الأيتينو عام 1922، فقدموه له كفنان وليس كشاعر.

تعرف على ف. غ. لوركا ليلة عرض مسرحيته ماريانا بينيدا عام 1927. من أعماله: نطاق 1928، سيف كالشفاه 1932، خراب الحب 1935، ظلَّ الفردوس 1944، ولَّ الأرض 1935، تاريخ القلب 1954، في مجال رحب 1962 وأخرى غيرها. حصل على جائزة نوبل للأدب عام 1977.

كلمات الشاعر

ما زالت تتنفس بعدها الكلمات، العينة،
الكلمات التي مازالت لفظ أو شفالة؟
أوراقاً طيارة،
مزيداً من الأوراق المبعثرة. من
يدري؟
كلمات خربة، مثل صدى أو ضوء
يموت هناك في ليل عظيم.

وترتاح وديعة، جليلة،
تُطلَّ تحت الضوء على لسان بشري
يجهد بالتعبير عنها.
واليد تخلص حركتها للعثور عليها،
لا بل: لتكتشفها، مجديّة، بينما
تبرق، توحى،
حين لا تت弟兄 خيبة،
هكذا تبقى أحياناً، تنام،
فضلة نهاية نار لم تلمس
إذا ماتت لا تنسى،
وتخلف ذاكرة واهنة، ها هي هناك.

كل شيء في ليل عميق.
الموت نسيان للكلمات، النوابض،
الزجاج، الفيوم
ليهم بنظام خفي نهاراً،
أكيد ليلًا، في هوة هائلة.
هي ذي الأرض هناك، صارمة
لا تسمح بأي حبٍ مركبة ناقص؛
ولا قبلة أخرى لا تكون لها،
ولا بحب آخر غير الحب الذي
ينتشر مخنوقاً.

في الليالي العميقة
تلقي الكلمات المهجورة أو الغافية
تجاوياً.

كل شيء في ليل عميق.
الموت كلمات قيلت
في لحظات المتعة أو الغضب،
النشوة أو الهجران،
حين تستيقظ الروح ويطل على
العينين
نور أكثر من أي صوت خبير.
خبير جاهز بكلماته على الصفحة
المفتوحة،
يتکئ إليها أو أنها تدرك الهواء
مع الصوت وترتاح. ليس بفضيلة
قصوى،
لكن بنظام صائب، إذا أرادت.
فهي، الكلمات، تنساع مطواعنة
لفضيلاته

وقدمت مادة موسيقاها الباطلة
بإيماعه مركزة، دون أن أدرى
بوجودها.

أردت شرب ظلها بين الحشود،
كمن يشرب ماء صحراء خادع.
نخيل... بلس أغنى. لكن أحدا لا
يُصغي.

والكتبان الرمالي تنبض بلا حلم.
زيفاً أصنعي أحياناً إلى ظلن يجري
في جسد متبايج. أو أبصق وحيداً.
"احترق".

لكنني لا أحترق. أنام، أنام... آه!
انته".

||

الماضي : "بيت ديفي نقى"

هنا في البيت الصغير،
ثلاث أشجار أمامه، الباب منتصب،
الصوت:

كل شيء يدوم، أو ميت
حين أعبر. أتذكّر: "بيت ريفي نقى".
نقى مم، من الريح
هنا نهضَّ هذا الطفل
بالرجفة.

على الورق الطيار، من يعرفها أو
ينساهما؟ ربما زلت ذات مرة، في
من يدرى؟ ربما زلت ذات مرة، في
قلوب أخرى قليلة.

ساماكات مشتتة

كنت لسنوات مختلفاً،
أو كنت نفسى. أخطأت إمارات،
إجراءات، وغداة
أو نصراً فريداً، حزناً دائمًا.
أحببت من لم أبغ حبه. وكرهت من
كان لي.

سوراً، كان البحر، ربما جسراً
خفيفاً.

لا أدرى هل عرفت نفسى أم تعلمت
جهلها.

إذا احترمت الأسماك، الفضة الحية
في الساعات،

أو أنني حاولت السيطرة على
النور. هنا كلمات ميتة.

نهضت باضطرام، سكت بظل
متاخراً.

اضطربت بهم. أنشدت رماداً.
وإذا ما أدخلت وجهها في الماء فأننا

لم أعرف نفسى. نرسيس حزين.
رويت ظروفًا. لعنت فضائعات

صوتك الذي بموته يحيا، مثلّي حين
أعبر من هنا
وما أزال أكلمك.

كنت أكثر تمسكاً،
ديومة،
ليس لأنني قبلاً
أو لأنني أمسكت بالوجود راسخاً
فبك.

بل لأنك كالبحر يغوص خائفاً بعد
أن يغزو الرمل.

**بالخضراء أو بالزبدة يبتعد البحر
مبهجاً.**

وَكَمَا ذَهَبَ وَعَادَ أَنْتِ لَا تَعُودُين
أَيْدِا.

ربما لأنني لم أستطع العثور عليك
متذرجة على شاطئ بلا نهاية.

أثار زبدك تبقى على الحواف
حين يذهب الماء.

لا أحد غير الحواف. غيره
الصوت الذي بقي فيَّ.

الطلب قبلاتك.
ساحرة في الضوء، ميّة تعود.

ساحرة في الضوء، ميّة تعودُ.

هذا نظر إلى الرمل الميت،
إلى الطين مثل قفاز،
الصوّع مثل وجنتين شاحبتين،
والذهب العتيق
يمنح في الشّعر قبلة
بلا بارحة. اليوم. غداً.
الأوراق سقطت، أو أنها صعدت
اليوم
من الأرض إلى الشجرة
وما زالت تتناظهر بالوله، الوجود،
الحفيظ.
وأعبر فلا تمنخ ظلاً،
هي، موجودة. ولا دخان.

أسيهر. أعيش.
لا أستطيع،
عليَّ ألا أتذَّمِّر.
لا شيء يحيا. ستارة تحركها الريح
ولا وجود لها. واصمت.

القبلات، البحرين

لا تهم الشعارات
ولا الكلمات الفارغة؛ هي مجرد
هبة ريح.
يهم صدى ما سمعتُ وإليه أصنف.

لكن العالم يدوم،
ليس بين شفتين فقط: القبلة تنتهي.
لكن العالم يدور،
حرّاً، بلى، مثل قبلة،
حتى بعد موته.

كلمات قليلة

كلمات قليلة
سأهمس بها لك. قليل هو إيمان
الإنسان المتردد.
العيش طويلاً متعتم. فجأة وإذا
بالمعرفة ليست معرفة بالذات.
ومع ذلك سأقول. فعيناي ترددان ما
تنسخان:
جمالك، اسمك، صوت النهر،
الغابة، والروح على انفراد.

رأيت كل شيء وامتلكتاه. هذا ما
تقوله العينان.
ترددان على من يراهما، لكنهما لا
تسألان أبداً.
لأنهما إذا كانتا تأخذان من النور
اللون، من الطين الذهب،
ومن المذاق كلّه الثقل الناقب،
فإنهما لا تجهلان القبل، الهمس،

رؤيا فتية

من أمواه أخرى

تللاشى الكلمات التي تقول موتاً،
ذهبوا
حين تولد.
كما بين صوتين، هناك قبلة أو
همس

المعرفة ضحك، والسخر يضحك.
يضحك، فالأرض صدر يخفق
مختاجاً.
قهقهة كثيرة هي ليست صوتاً بل
حياة،
أنواراً تصاعد من شيء، صدر:
الكون.

جسد بهيج. لا هم ما يحمل،
بل نبضه في الفضاء،
مثل طفل طاف، مثل طفل في
السعادة.

هذا نظر الفتى فرأى العالم حرّاً.
ربما بين قبلتين،
ربما في حضن القبلة:
هذا ما شعر به بين شفتين.
كانت ضحكة بليلة، منه أو من
العالم.

أخيراً

كلمة أخرى ويكون وقعها في غير محله.

الصدى أحياناً مثل أغنية مقاجنة.
وفي أخرى تتشتعل مثل الصوفان.
أحياناً لها صوت الأشجار الهائلة
في الظل.

خفق أجنحة فسيحة: نسور، اندفاع،
خفق، عروش.

ثم أصوات إلى الأعلى.
أصوات أكثر أو ظل مباغت.
الصوت المبعثر وصمت العالم.
حزن الفجوة بلا حواض.
وفجأة الكلمة الأخيرة،
دغدغة الماء في الفم الظامن،
أو قطرة الناعمة في العينين
الضريرتين
المحروقتين بالحياة ونيرانها.
آهكم من السلام هو الحلم.

ولا الأريح.

فقد رأينا أشجاراً ضخمة، همساً
صامتاً،
نيراناً مطفأة، جذوات، شرائين،
رماداً،
والبحر، البحر حتى القاع، يأشواكه
البطيئة،
بقايا الأجسام الجميلة فيه تعيد ما
الشواطئ.

قليلًا من الكلمات، بينما يسكت آخر،
كلمات الريح في الأوراق وأنا أقبل
شفتيك.

بعض الكلمات الواضحة، بينما
أغفو في حضنك.
بينما يسمع الماء في الصخر. بينما
ساكناً أنا ميت.



قرب السكة الحديد مقاطع من قصيدة طويلة

إيفور شكلياز فيسكوي

■ ق: يوسف ضمروه ■

ولد الشاعر عام 1938م في "بيلوروسيا". وقد (سقطت) طفولته في جحيم الحرب، وما تلاها.

أصدر كتابه الأول "أنا قادم" في مدينة (مينسك) عام 1962م. تخرج من معهد غوركي للآداب في موسكو. أصبح عضواً في اتحاد الكتاب السوفييت عام 1964م. أى أثناء دراسته في معهد غوركي، وذلك عندما بلغ الخامسة والعشرين من العمر.

صدر له ما يقرب من عشرين كتاباً شعرياً. بالإضافة إلى بعض الروايات القصيرة. وبعض الترجمات من لغته الأم (بيلوروسيا).

فاز بجائزة الدولة عام 1987م، وذلك عن ديوانه الشعري ("أصغى للسماء والأرض") يقاتل شعرياً واجتماعياً وصحفياً لحفظه على الطبيعة المفتون بها.

هذه المقطوعات التي نقدمها الآن، هي متفرقات من قصيدة طويلة كتبها عام 1983، وصدرت تحت عنوان (كلمة حول السلام).

المصدر: مجلة الأدب السوفييتي - النسخة الإنجليزية - العدد [٩] - 1988م

ذلك البيت قرب السكة الحديد
وغلاماً في قميص أبيض
يحمل جزءاً العشب إلى
"المتنبئ"
البارد الغامض

وبينما الريح
تصرخ من مصب النافذة
فلتصرخ أنت مع الفرح
لأن الوقت ما "فات" بعد
وأصرخ مع الحزن
حيث قطارك سوف يظل
منتظراً
حتى تُخبي العجلات تلك
الصلصلة

-2-

لا أقدر أن أستعيد الآن
شجرة من البنـولا... وحيدة

-1-

تصحو في العتمة
وحيداً تماماً
فرحاً كطفل بعد يقطنه الطازجة
لكن وعد العاصفه
صارمٌ وقوى
تشعر الآن بقدرة على البكاء

كم هي حلوة روائح العشب
البري
في الليل الدافئ
حالاً تفتح الأبواب في المدى
وتلتهبُ الآفاقُ بالضوء
من يقدر الآن،
أن يقدم العون لك؟؟؟
فتتأمل!!!

وحاول
أن تستعيد هواء الطفولة

-3-

فجر يأتي في غلالة الضباب
آثار لطائر (الوشق) على
الرمل
حول العوسيج
قرب النافذة
يتسلل الضوء إلى الغرب
كأن (الوشق) المسكين
يحمل نحو البعيد البعيد...
قصائدي
العصافير خفيفة وحرّة كالريح
وبشكل ما
أشعر أن هواء حرّا
يندفع إلى جانبها
يطلب أجسادها الرشيقه،
في اندفاعها العفوبي
ومن الأرض إلى السماء
يصاعد الماء
وألق الأجنحة الزرقاء

تماماً
ولا أذكر الآن
غيمة واحدة
تعبر الغيوم السماء
في ريف ناعم
تكبر الآن... قائمة وتضيء
وأغلق عيني...
أشجار البتولا
والحور
وغيوم الثلج
وضفاف الغيم الرعدي
تطير كلها
ترمز
تساب وتطفو
تمتزج معاً... لكن
شجرة وحيدة من البتولا
لا تجيء إلى
ولا أذكر الآن أبداً،
غيمة مفردة

غيمةٌ رعدية

تسلكُ الآن هذه الطريق
كأنها عرفت ذلك الجرف
المطوق،
بالصفصاف الباكى
حيث استلقت ذات يوم... هناك

-6-

ضحكات النساء
تفرع الآفاق
يصرخ الصدى
عالياً في السماء
وطير (الزقزاق) يبكي،
حزيناً في الحقول
ضاحكةً أصداء الطائرات،
ولا تبكي.

تحت شجرة الأناناس
مقعدٌ وحيدٌ
يُشاركتني المتعة والحزن
والهواء الريبعيُّ دافئٌ

يُضيء الشمس

وطوفان الماء
يجرف الأعشاش إلى البحر
تحليق الطيور
انطلاقٌ موغلٌ في المدى
لا بحثاً عن قصبةٍ مُدجنةٍ

-5-

هناك شيء ما
أحبه في الغيم
حتى الغيم الرعدى جميل
بحيرةٌ بি�ضاءٌ صغيره
أو آذارٌ مجفَّفٌ أعرفه تماماً

في وقار جميل
تعوم الغيمةُ في السماء
وفي حزن تساقط فجأةً
كأنها تودُّ استعادة الأيام...
ألم تكن على الأرض منذ عام؟

لقد ارتديتِ ملابس الكبار،
حسناً... تليق بكِ...
تعالي نمر بالمدرسةِ الخالية
لا أحد يزعجكِ الآن من الخلف
لا من ينتقد المعطف الذي
ترتدien
أو يطالبكِ الآن بإسدال الضفائر

تقودينني إلى الرسومات
الملاصقة على الحجر
وفي وحدةٍ شموليةٍ نصغي في
القيظ
إلى طقطقة العجين
والهواء الساخن في الطريق،
عالياً يصاعد في الأفق
تعاسةُ الحيوانات
تغزم قلبينا الفتبيين
رغم أنا
لم نفقد بعد ما هو ودي...
خرير جداول
ونحنني فجأة

بارد... متى يشاء
يكتم الضجيج بشكلٍ فتأن

أصغى للأسى
للفرح
لأصوات السماء
والأرض
اقتحم الأرض مفتوناً
وأشرب من أي سراب...

-7-

حلم طفولي:
شارع حالٍ
شمسٌ جالسة
تقذفُ نحو ساحتنا الخالية
بآخر ضوءِ حزين
وفي الجوارِ،
لا أحد...
والصوتُ الوحيد:
إيقاع أقدامنا الخفيف

فقط ...

لو تحضر لي قطعة خبز باردة
مزوجة برائحة السماء
والدموع ...

- 9 -

رأيتُ الخراب والدمار
الأرض اليباب
الطائرات في عتمة الحرب
تطفيء في حقول الوحشة
الشاملة
الضوء الوحيد
في منزلٍ وحيد

رأيتُ أمي

في حولها تُشعّل الصوفان
باحتكاك الفولاذ والصوان
آنذاك ...

شيءٌ واحدٌ كان يملؤني
احتراماً ...
الأعماق الزرقة للسماء

لنباله تتعكس في العيون
تجيء مباشرة من الكون

- 8 -

أصحو على رنين الإوز
برودة مُتشعة في كل مكان
وصيق
وأنا ...

أنا حتى رنين الإوز
وجع لا حدود له
لهواء لا يُحد
ليلاً ونهاراً

يواصل الإوز القطبي الرنين
يطير من الشمال
سريعاً
سريعاً ...

ألا تُصغي لمفاصل الأبواب
التي تتأوه
في البيت القديم
بعد ذاك الغياب
الطوبل؟

ونحن الاشان
نسير نحو الضوء الأزرق -
الرمادي الملطخ
حيث في رقة تمسّنة السماء
والطرقات ...
ألا تملك أرضاً
تتاغماً خاصاً بها!؟؟؟

-11-

حين يفر الإوز من البحيرة
وتمخر الغيوم السود زرقة
السماء
تملؤني متعة عالية
فأشعل فوق الهضبة
نيران وحدتي
تطير الشرارات فوق رأسي
وتعلق الرفائق النارية
في الهواء
وبعد وقتٍ طويـل
يجيء دفء الرماد

كان العالم كله
مزئراً بغيوم الرعد
بدت السماء فوقـي
ذاهبة إلى التلاشي
وبعقلـي
بقوـة أحاطت الأسلاك
 فأصبت مثل فراشـة،
 بالأذى ...

-10-

ثلج كثيف
ما زال يغطي الحقول
لكن الطيور
أزواجاً أزواجاً تصرخ في
جنون
فوق الأشجار العارية
وغرابـان
يطيرـان في المدى
غـبيان،
رشـيقان
يشـقان زرقة السماء

أرثي أناساً مضوا من زمانِ
بعيدٍ
ولا أنادي،
أولئك الذين عرفتهم

يظل حياً في وإن مات

استرخي هنا
دون جرأة على الذهاب
رماد من ذاك الساقط على
كتفي؟ ...



القصة

- ١-سنة الطبيعة، جاك لندن ، ت: راتب مصطفى رسلاان
- ٢-الرجل البدن، ريموند كارفر ت: محسن الخفاجي
- ٣-الروح خالدة، فاسيلي بيلوف، ت: عاطف كامل أبو جمرة
- ٤-التنبل، ألفريد أرندرش، ت: عدنان حبّال.
- ٥-جريمة شارع بلا شار الغامضة، تأليف: كاميلو خوسيه ثيلا ،
ت. علي أشقر.
- ٦-الحبل، كاترين آن بورتر، ترجمة: إياد حسن جبير.
- ٧-الأسير، راديارد كيلينغ، ترجمة: ترفيق الأسد.
- ٨-النزة القصيرة للسيد لوفدai، قصة: إيفلين واو -
ترجمة: أسعد الصالح.



سُنَّةُ الطَّبِيعَةِ⁽¹⁾

THE WAL OF LIFE

■ ت: راتب مصطفى وسلام ■

جاك لندن

JACK LOINDON

جاك لندن كاتب قصصي وروائي أمريكي. ولد سنة 1876 وتوفي سنة 1916. من أشهر أعماله: (ابن الذئب، مجموعة قصصية 1900)، (نداء الجذور، 1903) و(ذئب البحار، 1905) و(العقب الحديدي، 1907) و(حكايات جرت في البحر الجنوبي، 1911). أكسبت أسفاره الكثيرة بحار عادي وذكرياته في مناطق الألاسكا قصصه أطرا وأفكارا مستمدة من فكر نيتشيه وماركس وداروين "البقاء للأقوى"، وزودته النظرية الطبيعية -الاصطفاء الطبيعي للأجناس- بالمادة الفكرية لأعماله. تتحدث معظم قصصه عن البحار والسفن وعن أراضي القطب الشمالي المتجمدة. تتحدث هذه القصة عن مجموعة من الهنود الذين عاشوا في القطب الشمالي المتجمد. هذه القصة -سنة الطبيعة- معدة بإنكليزية خاصة.

كان (كوسكوش)، الرجل الهندي الهرم، والزعيم السابق لقبيلته، جالساً على الثلوج. كل ما يستطيع فعله الآن هو الجلوس والإصغاء للآخرين. لقد ضعف بصره كثيراً بحكم سنه، لكن سمعه لايزال حاداً. آه! ذلك صوت حفيته من ابنته - (سيتكوم توها). إنها تضرب الكلاب جاهدةً لجعلها تقف أمام الزلاجات الثلجية من

⁽¹⁾ العنوان الأصلي للقصة *the Law of Life* وترجمته الحرافية "قانون الحياة" ، وارتاحت ترجمتها "سنة الطبيعة" نظراً لما يغرسنا به المغزى العام للقصة.

أجل تسريجها. لقد نسيت جدها مثلاً نسيه الآخرون أيضاً. اضطررت القبيلة للبحث عن أراضٍ جديدة للصيد. ثم تأجّيل هذه الرحلة الثلجية طويلاً، والأيام تمرُّ بطيئةً موحشةً في القطب الشمالي. لم تستطع القبيلة أن تنتظر قدوم الموت، وكوسكوش كان يحضر.

أوحت طقطقة جلود الحيوانات المتجمدة لкосكوش أن خيمة الزعيم قيد الإزالة. الزعيم هو ابن (كوسكوش)، وهو صياد جبار، بينما يترك والده ليموت هنا وحيداً! استطاع كوسكوش أن يسمع صوت ابنه يبحث النساء على عدم التفاسع في العمل، وأنصت باهتمام لأنها المرة الأخيرة التي يسمع فيها صوت ابنه، وسمع بعدها أنين طفل صغير، ومناغاة إحدى النساء لتهديته. لابد أنه (كوتى)، إنه ولد مريض، وسيموت قريباً، وسيحرق رجال القبيلة حفرة في الأرض الجليدية لدفنه فيها. ثم سيغطون جسمه الصغير بالحجارة لمنع الذئاب من الاقتراب منه. حسناً، ما فائد حياتنا؟ تمر بضع سنوات وفي النهاية نموت. الموت يتربص بنا، فاتحاً فاه جوعاً. ولا عجب في ذلك فالموت له بطن أشره من بطون جميع الكائنات الأخرى.

أنصت (كوسكوش) لأصوات أخرى: صوت الرجال الجليدية المتينة المختلفة على الزلاجات لتبثت أمتعة الرجال؛ أصوات السياط الجليدية اللاصعة تحت الكلاب على التحرك وجر الزلاجات. آه! أسمع أنين الكلاب من وطأ ذلك! الآن يرحلون! وفي هذة صمت الليل المهيب تحركت الزلاجات واحدة تلو الأخرى. لقد خرجوا من حياته وتركوه وحيداً يواجه آخر ساعة مريرة له على وجه الأرض. لكن ما هذا الصوت؟ الثلج يرتصن تحت وطء حداء أحدهم. وقف رجل إلى جانبه ووضع يده بلطف على رأسه الهرم؛ لقد كان ابنه "البار". في تلك اللحظة ذهب خيال (كوسكوش) إلى الماضي حيث كان الأبناء يتربكون آباءهم الهرميين بدون وداع. لم يوقظه إلا صوت ابنه:

سأله ابنه: "هل تسير الأمور على مايرام؟"

أجاب (كوسكوش) العجوز: "نعم، تسير الأمور على مايرام.."

قال ابنه: "الخطب إلى جانبي وهاهي السنة اللهب تضطرم، الصباح رمادي، والبرد قادم. ستنتح السماء، لا بل إنها تنتح الآن."

أجاب الأب: "نعم، إنها تنتح الآن.."

ردَّ الابن: "رجال القبيلة مستعجلون، بأحمالهم الثقيلة، وبطونهم الخاوية، إنهم يرحلون بسرعة لأن الطريق طويٍل. أنا راحل الآن. هل كل شيء على مايرام؟" "كل شيء على مايرام... أنا مثل ورقة في آخر سنة لها تلتتصق بالشجرة، ومع هبوب أول نسمة سأهوي أرضاً. صوتي مبحوح كصوت المرأة الحزبون، ولم تعد عيناي تبصران موطن الخطوة التالية لقدمي. لقد انتهيت يابني.. نعم، كل شيء على مايرام!؟"

أحنى (كوسكوش) رأسه على صدره وأنصت لوقع خطأ ابنه على الثلج فيما كان يرحل. مد يده وتحسس الحطب إلى جانبه عوداً تلو الآخر، وفي قراره نفسه كان يعلم أن النار ستلتهمهم جمعياً، وخطوة فخطوة سيكتفه الموت، وعندما تحرق آخر حطبة، سيهاجمه البرد: في البداية ستتجدد قدماه، ومن ثم يداه، وسيسرى الخدر بتؤدة من الأطراف إلى الأحشاء، وبعدها سيرتاح. الأمر بسيط، فكل الرجال سيموتون.

شعر (كوسكوش) بالأسى، لكنه لم يفكر بمصدر هذا الأسى فقد كانت تلك سنة الطبيعة! إنه ابن هذه الأرض، ولم يكن هذا المصير جديداً بالنسبة إليه. إنه مصير كل حي، والطبيعة لا تتعاطف مع الأحياء، ولا تكرث بالفرد أبداً، فجل اهتمامها منصب على التجمعات والسلالات والأجناس. إنها فكرة مبهمة بالنسبة للعجز (كوسكوش)، لكن عقله البسيط استطاع إدراكها. لقد شاهد أمثلة حية على ذلك خلال مسيرة حياته: تكون النسخ البسيط في الصباح الباكر، ومن ثم تفتح الأوراق الخضراء، ناعمة الملمس كالبشرة النضرة، فسقوط الأوراق الصفراء اليابسة. في ذلك تتجسد مسيرة الحياة كلها، لقد حدّدت الطبيعة للفرد مهمة واحدة؛ إذا لم يؤدها، يموت. وإن أدّها، فالامر سيان، يموت أيضاً! الطبيعة لا تعيَا بأحد؛ فشمة أناس كثيرون كانوا مطبيعين، لكن هذه الطاعة لم تمنع عنهم الموت، فقبيلة كوسكوش قبيلة عريقة، عرف فيها رجالاً هرميين كما عرف آباء هرميين آخرين من قبل، وبالتالي فإن عيش القبيلة في الماضي وانصياع كامل أفرادها للطبيعة ضارب في القدم، لكن معالم وجودهم وموطن استقرارهم ذهبت الآن مع الريح. لم يحسبوا أيام حياتهم لأنها كانت مجرد سلسلة من الحوادث، وكان رحيلهم أشبه برحيل الغيوم من سماء الصيف، وكوسكوش نفسه مجرد حادثة عابرة، وسيرحل

أيضاً. لم تكتثر الطبيعة بأحد؛ لقد حددت هدفاً واحداً للحياة لكنها قيدتها بقانون: هدف الحياة الخلود. ولكن هيهات! فالموت يحكمها.

وهكذا مثلاً آخر عن قسوة الطبيعة: الفتاة العذراء مخلوق جذاب ملفت للنظر؛ بفتونها وشموخ صدرها، ورشاقة جسدها، وبريق عينيها، لكن مهمتها الأزلية ماثلة أمامها: يشرق النور في عينيها، تتسرع خطواتها، لتصبح أكثر جرأة وأرق فواداً مع فتيان القبيلة، وتهبهم من هيجان عاطفتها دائمًا لتردد جمالاً في عيون الناظرين، حتى يأتي أقل الصيادين قدرة على ضبط عواطفه ويأخذها إلى خيمته لتطبخ له ولخدمه ولتصبح أمّاً لأطفاله. ومع مجيء ذريتها، يتلاشى جمالها: تضمر أضلعها وتجر بعضها بعضاً، ليخبو السحر في عينيها، ويكون مرح الأطفال قرب النار العزاء الوحيد لخدود المرأة الهندية العجوز الذابلة، لقد أدت وظيفتها، وبعد فترة قصيرة، مع أول وخزة من وخزات المague، أو أول رحيل مفاجئ للقبيلة، ستترك هذه المرأة في وحشة الثلج وحيدة، كما تركت أنا، مع كومة ضئيلة من الحطب. ذلك هو القانون!

أذكي (كوسكوش)، زعيم القبيلة السابق، النار بعد آخر من الحطب وبدا يجتر ذكرياته، تذكر كيف ترك والده في أعلى قنم جبل (الكوندايك) في أحد فصول الشتاء يواجه حتفه وحيداً.

مررت على (كوسكوش) أيام وفيرة الطعام والراحة والمرح حيث كانت البطون متخصمة، بل إن الطعام ترك لفسد ويتغفن، في تلك الأيام كانت الحيوانات ترعى في مضاربهم آمنة مطمئنة، وحتى النساءكن مخصوصات وأنجبن الكثير من الأطفال، كما عاصر لسبع سنوات أوقات ندرة الطعام وخواء البطون؛ حين اخترى السمك وتعذر صيد الطرائد.

تذكر أيضاً، عندما كان غلاماً صغيراً، كيف افترست الذئاب أحد الأيتام القطبية الشمالية. كان معه صديقه (زينجها)، الذي قتل فيما بعد في نهر (ليوكون). آه! بالقصة ذاك الأيل:

في ذلك اليوم خرج (كوسكوش) و (زينجها) للعب عندما شاهدا على حافة النهر آثار خطوات أيل حديثة.

قال (زينجها): "إنها خطوات أيل عجوز، لا يستطيع أن يركض كالآخرين، إنه

متخلف عن أخيه بحيث فصلته الذئب عن الأيائل الأخرى، ولن تتركه أبداً. وكان الأمر كذلك، لم تتوقف الذئب ليل نهار عن نهش أنفه وعض قدميه، ومكثت معه حتى النهاية.

شعر (زِينجها) و(كوسكوش) بسرعة جريان الدم في عروقهما فالنهاية ستكون مشهداً يستحق المتابعة!

تفقيراً أثر خطوات الأيل والذئب، وكل خطوة روت لهم قصة مختلفة، رأوا المسأمة بكمال تفاصيلها، هذا هو المكان الذي توقف فيه الأيل ليبدأ القتال، كانت سماكة الثيج ثلاثة أقدام، ضرب الأيل أحد الذئاب بحافره التقييل فصرعه على الفور.

وشاهدوا أيضاً كيف حاول الأيل جاهداً الفرار عبر صعود التلة، لكن الذئب انقضت عليه من الخلف، فتقهقر الأيل وسقط ساحقاً اثنين منهم، كان واضحاً أن النهاية قاب قوسين أو أدنى، فالطريق تخضب بدم الأيل، وسمع كوسكوش وزينجها أصوات هدير المعركة -لم يكن ذلك الصياح عواء هازجاً للذئاب مجتمعة، بل حشرجة وحوش تنهش لحم فريستها.

زحف كل من (كوسكوش) و(زِينجها) على بطنه خشية الذئاب، وشاهدوا النهاية بأم أعينهما. كانت النهاية صورة مؤثرة لازمت كوسكوش طوال حياته، ترأت الآن لعينيه الباهتين الكليلتين كما رأها مع زينجها في الماضي الغابر.

تأمل (كوسكوش) ماضيه لفترة طويلة، حتى خمدت النار وتغلغل البرد في عظامه. أذكى النار هذه المرة بعودي حطب، تاركاً عودين ستكون حياته رهينة بهما. آه! لو تذكر (سيتكوم توها) جدها الآن، وتعود حاملة ملء ذراعيها حطبان، عند ذلك ستطول ساعاته المتبقية، وسيكون الأمر يسيراً، لكنها كانت دائماً طفلة لا مبالية، ولم تتحترم أجدادها منذ أن وقعت عيناً (بيفر) -حفيد (زِينجها)- عليها للمرة الأولى. لكن ماجدوى هذا الكلام الآن؟ ألم يفعل (كوسكوش) الشيء ذاته في شبابه المنصرم؟ أغار (كوسكوش) سمعه لوهلة لسكون المطبع، ربما يرق قلب ابنه ويعود مع القافلة ليحمله إلى حيث ترعى الأيائل المترهلة بكثرة.

أرهف (كوسكوش) سمعه، وهذا عقله المضطرب للحظة، لم يجد أية حركة

على الإطلاق، تنفس في غمرة السكون المهيب، إنها عزلة رهيبة. وضع إحدى قطعتي الحطب الأخيرتين فوق النار. أنصت! أي صوت غريب هذا؟ أتراه يصدر عن احتراق الحطب في النار؟ لا، إنه ليس الحطب! سرت القشعريرة في جسده عندما عرف الصوت.. الذئاب قادمة! أعادت صرخة أحد الذئاب إلى ذهن (كوسكوش) صورة الأيل الهرم الممزق جسده إلى أشلاء يتقاطر منها دم قان على الثلج، خضب العظام المجرومة رمادية اللون لكن بعد أن جمد. كما تراءات له أشكال الذئاب الغبراء المندفعه بعيون براقة، وألسنة طويلة سال لعابها، وأنيات حادة وهي تقترب منه بحذر بطيء لتكمل الحلقة من حوله.

داعبت أنفه هبة هواء باردة ورطبة، وعلى إثرها انقضت روحه واستيقظت. امتدت يده إلى النار وسحبت منها عوداً مشتعلًا. شاهد الذئاب النار لكنه لم يخف، بل استدار وأصدر عواء في الفضاء دعا به أخوته الذئاب. لبّت الذئاب نداء الجوع وقدمت مسرعة.

أصغى الهندي العجوز للذئاب الجانعة وهي تشكل حلقة حوله وحول ناره الضئيلة. لوح (كوسكوش) بالعود المشتعل. لكن الذئاب اللاهثة لم تتحرك من مكانها. بل إن أحدها أخذ يقترب أكثر كما لو أنه يريد أن يبلو قوة هذا الرجل العجوز، تقدم الثاني، وتبعه الثالث؛ كما لو أن فكرة التراجع كانت مستبعدة تماماً.

لماذا علي أن أقاتل؟ وعلام أثبت بالحياة؟ سأل (كوسكوش) نفسه، وأفاقت العود المشتعل، ليسقط من يده ولتحمد ناره في الثلج. كانت حلقة الذئاب تضيق عليه أكثر فأكثر، حين قفزت إلى مخيلته صورة الأيل أثناء معركته الخاسرة. فطأطا (كوسكوش) برأسه على ركبتيه:

ما الذي سأجنيه إن قاتلت؟ أليست هذه سنة الطبيعة؟



الرجل البدين

ريموند كارفر

■ ترجمة. محسن الخفاجي ■

أجلس الآن قرب سجائرى وقهوة مع صديقى ريتا، وأنا أحدثها عن ذلك، وهذا ما أخبرتها به. كان الوقت متاخراً من يوم أربعاء بطريق عندما أجلس (هيرب) الرجل البدين في موضعى كان أسمى من رأيته حتى الآن، وإن كان أثقل المظهر وحسن الهنadam بما فيه الكفاية. كان كل شيء فيه كبيراً، ولكن ما أذكره جيداً هو أصابعه، طويلة، ثخينة، أصابع لدنة.

كان على الاعتناء بالمناضد الأخرى، مجموعة من أربعة رجال أعمال، متطلبين جداً، ومجموعة أخرى من أربعة أشخاص، ثلاثة رجال وامرأة، وهذان الزوجان العجوزان، وصبّ (ليندر) الماء للرجل البدين، وأعطيت الرجل الوقت الكافي ليقرر ما سيطلب.

قلت: مساء الخير. هل أستطيع أن أخدمك؟

كان ضخماً يا ريتا، وأعني ضخماً حقاً.

قال: مساء الخير. مرحباً، نعم، أعتقد أنني جاهز لأطلب الطعام الآن.

كانت له طريقة الكلام هذه. أنت تعرفي. وكان يصدر صوت نفخ بين الحين والأخر.

-أعتقد أننا سنبدأ بسلطة التيضر، ثم ببناء من الحساء وخبز إضافي مع الزبد، إذا سمحت، يخنة لحم العجل، كما أعتقد.

ثم قال:

— وبطاقة مشوية بالكريمة الحامضة، ثم سترى بخصوص الحلويات لاحقاً، أشكرك جداً. قال ذلك وسلمتني قائمة الطعام. أسرعت إلى المطبخ، وطلبت من (رودي) أن يجهز الطلب، والذي استقبل ذلك بتوجه أنت تعرفين (رودي). إنه يكون هكذا حين يعمل وما إن خرجت من المطبخ قالت لي (مارجو) — أنت تعرفين (مارجو) تلك التي تلاحق (رودي).

— من هو صديقك، البدين هذا؟ إنه بدين حقاً. لأن هذا جانب من الأمر. أعتقد أنه جزء من الأمر حقاً.

وضعت (سلطة القيسير) على منضدته، وهو يراقب كل حركة مني. أشأء ذلك كان يقوم بمد الزبدة على الخبز ويضعها جانباً، ويصدر الصوت النافخ طوال الوقت. على أية حال، كنت متذكرة مع الأمر، وشيء من هذا القبيل، ودلت كأس الماء خاصة.

قلت: أنا آسفة، إن ذلك يحدث دائماً حين يكون المرء على عجلة. أنا آسفة جداً هل أنت على ما يرام؟ سأجعل الصبي ينظف ذلك في الحال.

قال: لم يحدث شيء كل شيء على ما يرام، ونفخ، لا تقلق بشأن ذلك، فنحن لا نهتم — وابتسم ملحاً — ما إن ذهبت لأنادي ليندر، وعندما عدت لكي أقدم السلطة، لاحظت أن الرجل البدين قد أكل كل الخبز والزبدة، وكان قد أنهى سلطته عندما جئت بمزيد من الخبز بعد قليل، وأنت تعرفين حجم إباه (سلطة القيسير) تلك.

قال: أنت لطيفة جداً، وهذا الخبز شهي جداً.

قلت: أشكرك.

قال: حسناً، إنه جيد جداً، ونحن نقصد ذلك حقاً، نحن لا نستمتع بخبز كهذا دائماً.

وسألته: من أين أنت؟ لا أعتقد أني رأيتك سابقاً.

فليس هو بالرجل الذي يمكنك أن تنسنه بسهولة، وضحكت (ريتا) ضحكة صغيرة مكبوة.

قال: من دنفر

لم أقل شيئاً آخر عن الموضوع كي لا يظن أنني فضولي.

قلت: سيكون الحساء جاهزاً خلال بعض دقائق يا سيد.

وذهبت إلى مجموعتي الرباعية من رجال الأعمال المتطلبين جداً. وحين
قدمت حسأه لاحظت أن الخبز قد اخترى مجدداً، وكان يضع آخر قطعة من الخبز
في فمه.

قال: صدقيني. نحن لا نأكل هكذا طوال الوقت. قال ذلك ونفخ، قال: عليك أن
تعذر علينا

قلت: لا تفك في ذلك مطلقاً. أفضل رؤية رجل يأكل ويستمتع بالأكل.

قال: لا أعرف. ماذا يمكن أن تسمى بذلك، ونفخ، وعدل من وضع منديل
المائدة، ثم التقط ملعقته.

قال (ليندر): يا الله، إنه بدرين

قلت: إن الأمر ليس بيده لذلك فعليك أن تصمت.

وووضعت سلة خبز ومزيداً من الزبدة. قلت: كيف وجدتَ الحساء؟

قال: أشكرك. كان جيداً، جيداً جداً، ومسح شفتيه وذقنه، هل تظنين أن الجو
دافئ أم أنني أشعر بالدفء فقط؟

قلت: كلا إنها دافئة هنا.

قال: ربما سنخلع معطفنا.

قلت: تفضل واحلله. إن المرء يجب أن يكون مرتاحاً.

قال: ذلك صحيح. صحيح جداً جداً.

ولكني رأيت بعد فترة قليلة أنه ما زال مرتدياً معطفه.

ذهبت المجموعات الكبيرة الآن والزواجان العجوزان، وأصبح المكان خالياً،
وأثناء تقديمي يخنة لحم العجل والبطاطا المشوية مع الخبز والزبدة الإضافية، وبقي
لوحدة في المطعم.

وسكت كثيراً من الكريمة الحامضة فوق بطاطته، ونشرت لحم الخنزير

الملح والثوم فوق الكريمة الحامضة، وجلبت له مزيداً من الخبز والزبدة.

قلت: هل كل شيء ما يرام؟

قال: جيد، ونفح، ممتاز، شكرًا لك، ونفح مجددًا.

قلت: استمتع بعذائقك، ورفعت إبأء السكر ونظرت داخله، واستمر ينظر إلى حي ذهبت مبتعدة.

كنت أعرف أنني أسعى وراء شيء ما، لكنني لا أعرف ما هو.

قالت (هاربيت): كيف يبلي وعاء الأحشاء العجوز؟ إنه سيجعل رجليك تبلیان
أنتِ تعرفين (هاربيت).

قلت للرجل البدين: بالنسبة للحلويات فلدينا (كرين لانتيير ناستل) التي تكون من فطيرة (البادنج) مع الصلصة، أو فطيرة الجبن، أو كريمة الفانيلا المثلجة، أو عصير تفاحة الصنوبر.

قال: إننا لا نؤخرك. أليس كذلك، نافخاً، وقد يداً قلقاً.

قلت: لا. أبدأ، بالطبع لا. خذ ما يكفيك من الوقت، وسأجلب لك المزيد من القهوة أثناء قيامك بالاختبار.

قال: سنكون صادقين معك، وتحرك في كرسيه، ساختار (كرين لانتون اسبنسل) وبإمكاننا أن نتناول صحناً من كريمة الفانيلا المثلجة. كذلك مع قليل من شراب الشوكولاتة. إذا سمحت. لقد قلت لك بأننا نشعر بالجوع.

ذهب إلى المطبخ لتهيئة الحلويات التي طلبتها بنفسها، وقال (رودي)، و(هارييت) : لديك زبون بدين من السيرك هناك، أليس كذلك؟ وكان برودي قد خلع متنزره حينذاك، وأنت تعرفي ما أعنيه.

قلت: هل هو بدين يا (رودي)? ولكن لم تكن تلك القصة بأكملها. ضحك (رودي) فقط.

وقال: لا بد أن يحب حلوها على جسدها البدين.

قالت (جوان): من الأفضل أن تخرس يا (رودي) وكانت قد دخلت المطبخ في تلك اللحظة.

قال روسي لجوان: لقد بدأت أشعر بالغيرة.

وضعت حلوي (الكريں لانتون سبتس) أمام الرجل البدين وإناء كبيراً من كريمة الفانيلا المثلجة مع شراب الشوكولاتة جانباً.
قال: شكرأ لك.

قلت: غلى الربح والسعفة، وغمرنني شعور ما.

قال: صدقى أو لا تصدقى، إننا لا نأكل هكذا دائمأ.

قلت: أنا أكل وأكل ولا يزداد وزنى، وأنا أرغب في زيادة وزنى.

قال: لا. لو كان الخيار بيدنا، فلا، ولكن لا خيار لدينا، ثم النقط ملعقته وأكل.

قالت (ريتا): وماذا أيضاً؟ وهي تسحب واحدة من سجائري وتشعلها، ساحبة كرسيها قريباً من المنضدة. لقد بدأت القصة تبدو مسلية.

هذا هو كل ما في الأمر. لا شيء آخر. أكل حلواه، ثم ذهب، وذهبنا إلى البيت أنا ورودي.

قال (رودي): يا له من بدين. متمدداً كما يفعل عندما يشعر بالنعاس، ثم إنه ضحك وعاد لمشاهدة التلفزيون.

وضعت الماء على النار لصنع الشاي وأخذت حماماً. وضعت يدي على خصري وتسائلت، ماذا سيحدث لو أن لي أطفالاً وتحول أحدهم ليصبح مثل هذا الرجل بديناً.

صبيت الماء في الإبريق، وهياط الأكواب وإناء السكر، وكانت علبة السكر نصف ممتلئة. أخذت الصينية إلى (رودي) وقال (رودي) كما لو أنه كان ينتظراها.
قال رودي:

لقد عرفت مرة شخصاً بديناً، شخصين بدينين، شخصين بدينين حقاً حين كنت صبياً. كانا إباءين كبيرين. يا إلهي، لا أتذكر اسميهما. (فات) كان الاسم الوحيد لأحدهما كنا نسميه (فات) الصبي الذي يسكن إلى جوارنا. كان جاري، والصبي الثاني جاء بعد ذلك وكان اسمه (وibli) كان الجميع ينادونه (وibli) ما عدا المعلميين (وibli وفات) قال (رودي): أتمنى لو أتيك صوريهما.

لم أفكر بشيء لأقوله، لذا فقد شربنا شيئاً وبعد فترة قصيرة ذهبت إلى الفراش، ونهض (رودي) أيضاً، وأطفأ التلفزيون، وأغلق الباب الأمامي وبدأ يخلع

ثيابه. دخلت الفراش وتحركت إلى حافته، وتمددت هناك على بطني، ومبشرةً وبعد أن أطفأ الضوء ودخل الفراش، انقلبت على ظهري واسترخت قليلاً، وشعرت فجأة بأنني بدينة. شعرت بأنني بدينة بشكل مرعب. بدينة جداً، حتى أن (رودي) أصبح شيئاً نحوياً، وبالكاد كنت أشعر به.

قالت (ريتا): إنها قصة مضحكة، ولكنني كنت أرى أنها لا تستطيع أن تفهم شيئاً منها شعرت بالكآبة، ولكنني لم أرغب بمواصلة الحديث معها، فقد أخبرتها الكثير جداً حتى الآن.

جلست تنتظر هناك، وأصابعها الرقيقة ترتب شعرها.

تنظررين ماذا؟ أريد أن أعرف.

إنه شهر آب.

إن حياتي ستتغير. أنا أشعر بذلك.



■ المصدر ■

the penguin book of international short stories, 1945-1985.

ولد الكاتب الأمريكي ريموند كارفر Raymond Carver عام 1939 وهو أحد أبرز كتاب القصة القصيرة الأمريكية في القرن العشرين. حصل على المنحة القومية للأدب مرتين عام 1979، وفي عام 1983 تخلى عن كرسيه في جامعة سيراكيوز ليتفرغ للكتابة. صنع مجده الأدبي بثلاث مجموعات قصصية هي: (ماذا سنكلم عندما نتكلم عن الحب؟) (كاتدرائية) (أرجوك، إهداً، أرجوك).

تعد قصص كارفر أهم نماذج تيار الواقعية الذي ظهر في مطلع الثمانينيات وقد قلم المخرج السينمائي المعروف روبرت ألتمان باستهانام روح فلمه ذاتي الصياغ "مختصرات" من عشرة قصص من أجمل أعمال كارفر التي تركز على الريف الميت، والضواحي الخالية من الروح، والطرق المفتوحة إلى العدم، وأبطاله شخصيات ضائعة في عالم حاقد بالتفاصيل القاهرة المنتمية للنزعة الاستهلاكية الحديثة.

توفي كارفر عام 1988 بعد إصابته بسرطان الرئة.

the stories of raymond carver, picador, 1985

□□□

الروم خالدة*

فاسيلي بيلوف

■ نقلها عن الروسية: عاطف كامل أبو جمدة ■

وهكذا، كانت المدافئ محماء. وتتوسطت على النوافذ لفترة قصيرة قطرات من الماء، إلا أنها سرعان ما جفت. لقد اختفت في منزلني ذي المثلثة عام طراوة ونضارة ما قبل الخريف. هناك دلوان ملئان من ماء النهر النقى في المطبخ، وقد أخرجت ما فى جعبه الطعام، والطاولة خالية من الأوراق الزائدة. الهاتف مفصول، أما البوابة فليست مغلقة - فليأت إلى من يشاء، وأنا سأسعد بأى آت. إلا أننى أعرف أن أحدا لن يأتي، إن لم تناهه.

كل ما يلزم للعمل الجدى متوفر عندي.

أنا وحيد ولست مشغولاً، متدعى، قدماى تحتذيان جزمة لبادية دافئة طريمة. والأهم من كل هذا أننى لست مستعجلأ إلى أي مكان. وتتصاعد في حالة من التأجج الفرح، الذى يسبق دائمًا العمل المبدع السهل. هنا اكتشفت بفزع كبير أن نظارى قد بقيت في المدينة... يا إلهي، ما العمل؟

يا للأسف... لقد سيطر على غنج طفل مدلل، وعدوه، ثم نسوا، أن يشتروا له لعبته الغالية. هرولت يائساً إلى جناح أمى، فهناك رأيت ذات مرة في قفة الإبر وأقماع الخياطة والأزرار نظارة أنيفيسا إيفانوفنا القديمة. أمى كانت تسعنى دائمًا

* نشرت هذه القصة باللغة الروسية في العدد المزدوج (5-6) للعام 1997 من مجلة ABPOPA (أفرورا) التي تصدر في مدينة بطرسبورغ.

(الآخرون كانوا يسعونني أحياناً، ولكن ليس دائماً).

ولكن، هيئات. لم تسعوني في هذه المرة. نظارة أمي ضيقة وضعيفة. يبدو أنها ليست أكثر من (+) درجة ونصف. كم رغبت بالمجيء إلى القرية، وكأنها كانت تقول: "خذني معك، فهناك أحسن لي. هناك سأبدأ بالسير بمفردي". كانت تطلب هذا مازحة وكأنها كانت تعرف أنها لن تذهب إلى القرية. أختاي، لا هذه ولا تلك، لم تكونا قادرتين على المجيء معنا شتاء، فجئت إلى هنا بمفردي.

ولكن، يا للسخافة. مرة النظارة غير موجودة ومرة أسقطت القلم بين الحشائش - فأصبحت ضعيفاً لا حول لي ولا قوة، كالعجز. لا قراءة ولا كتابة... شعرت كيف يتتحول انفعالي إلى حزن. وراحت اللامبالاة الكينية تتسلل إلى من كل أرجاء بيتنا القديم. أيعقل أنه لم يبق أمامي إلا أن أعود إلى وصل الهاتف وتشغيل الراديو والتلفزيون - هذه القبور المزركشة وعلب النخر والتسوس الإعلامي، مقدمة النصائح الليلية؟

يومياً، في موسكو وفي فولوغدا⁽¹⁾، يأتي سمير دياكوف في الساعة الثامنة مساء إلى في البيت. في كل يوم يحاول هذا المقيت أن يوحى إلى طوال الليل، محملاً بعينيه، في أي بلد بانس كريه أعيش أنا. ويتمكن من خلال تمحيصه في الأحداث اليومية أن يصدق في وجهي عدة مرات. من أين له أن يعرف أنني لن أزعز البندقية عن الجدار ولن أرکض إلى محطة القطارات كي أدفع آخر ما لدى من نقود ثمناً لبطاقة إلى بريد نيسنستروفيه⁽²⁾؟

إنه واثق من أنني لن أفعل هذا أبداً. يا له من خنزير... شيطان - يحذر تصرفاتي، وينطلق في ذلك من جهازه الإلكتروني الإشعاعي. لا يخطر لباله أبداً أنه قد يكون مخطئاً، وأنه لم يبق لدى من الصبر إلا ثالثة الثمالة. أجل؛ أنا في الحقيقة لم آخذ بتلاببيه ولم أمسك بعد بخناقه. إنني أوجل ثانية سفري إلى

⁽¹⁾ مدينة فولوغدا: عاصمة محافظة فولوغودسكايا في شمال غرب جمهورية روسيا الاتحادية - المترجم.

⁽²⁾ بريندنستروفيه هي منطقة في مولدافيا قامت فيها بعض الاضطرابات بعيد إعلان مولدافيا عن خروجها من الاتحاد السوفيتي وإعلان جمهورية مولدوفا. قامت هذه الاضطرابات بين الأغلبية الروسية القاطنة في هذه المنطقة والقوميين المولدافيين المتعصبين - المترجم.

تيراسبول⁽³⁾. وأغسل مرة بعد مرة بصقاته النتنة بأمطار وطني فولوغدا، الغزيرة المنبته للفطر.

إنني أنظر عبر النافذة إلى أحوال طرقات آب، مكتباً، وكأنني أنظر معجزة ما، كانت تبدو وراء شارع قريتنا المتحضرة شجيرات غيراء جارنا المنقلة بعنقائد الشمر الكثيفة.

ما أكثر الثمار! من بعيد يحس المرء بتعلق العناقيد التي تحني إلى الأرض هذه المفاصل الخشبية. يبدو أن غصن الشجرة ينتظر بصبر كبير أن يأتيه، في نهاية المطاف، سرب من الشحارير الرصاصية الجائعة. فهي ستقضى على هذه الثروة الجميلة بخمس دقائق.

لقد رأيت مرة كيف جردت الشحارير بغارة واحدة شجرة الغيراء التي عندنا. كانت هذه العصافير تتقى الثمار بنهم مستجعل، حتى أن بعضها كان يتعلق بالغصن وقد تدلّى رأسه إلى الأسفل وهو ينقد. ولكن لماذا لا تكون إحدى أشجار الغيراء برئالية اللون والأخرى حمراء؟ الأضطراب واللانسجام النفسيان لا يفسحان المجال لا للتفكير بهذا ولا للإحساس بالاختلاف اللوني. حتى أتنى أغضب من نفسي لأنني أسمح لنفسي بالتفكير. وكذلك هو الحال بالنسبة لكل ما أزمع عليه. مع ذلك، يا للهدوء الكبير، ويا للكآبة العظيمة. لكنني ما زلت أكابر ولا أشغل شيئاً. هي، هذه التقنية الحديثة للعينة، تتنصب تحت الطاولة! الحاكى يوتّر أعصابي ويخرجنى عن طوري، كالثور، بلونه الأحمر كأنه الراية الحمراء. ها أنا أدخل شوكة "الفيش" في تقبى "الإبريز" الكهربائي بلاوعي وبلا تفكير... فتبعد الأسطوانة المغبرة الموجودة على القرص منذ الربيع الماضي بالدوران. وبلاوعي أيضاً أنزل عليها الذراع. الأصوات تملأ الجو المؤطر بالجدران، وأنا أقاوم، إلا أنها - هذه الأصوات - حيوية ونفاذة.

"قصول السنة" يعنيها الكسي تشير كاسوف... طبعاً هذا هو، تشايكومسكى، الذي كان يصدح في هذا البيت الريفي في الربيع وفي موسم حصاد الحشائش!

⁽³⁾ مدينة تيراسبول: في جمهورية مالدوفا. تقع على الضفة اليسرى لنهر دنيستر، وهي مركز منطقة بريلنيستروفيه - المترجم.

الموسيقى تغمرني كما يغمرني دفء المدفأة: أطبقت عيني مستنداً إلى المدفأة⁽⁴⁾. جلست أصغي وكأنني أغفو، إذ ليس بالضرورة أن ينام المخلوق مستيقاً... الخيوں والفيلة أيضاً تستطيع النوم واقفة. قال لي مرة صاحب أشجار الغيراء البدية وراء النافذة: "لا تفكّر كثيراً. دع الحصان يفكّر، فرأسه أكبر".

أنا الآن، بحق، لا أفكّر ولا أصغي إلى "أغنية الخريف". عيناي جافتان، إلا أنني أبكي... أتذكر الطفولة وما كان منذ نصف قرن. لم يزُل شيء ولم يمت شيء، حتى بقررتنا الصغيرة "بيريوزكا"⁽⁵⁾ ذات القرن المكسور، "بيريوزكا" التي كنا نقتنيها مناسفة مع جيراننا. عندما انتقل نصف "بيريوزكا" الثاني ذات مرة لحوزتنا وجدنا أن الضريبة غير مقدور عليها. وأمنا تحكى لنا كيف قادت "بيريوزكا" مسافة أربعين كيلو متراً إلى محطة قطارات الطريق الحديدى الشمالي "بوندوغا" لإدخالها ضمن خطة إنتاج اللحم. جرّت البقرة بحبيل عبر طرق الغابات المترعة والقرى، وطوال الطريق كانت الدموع تتسلّك على سحنة "بيريوزكا". أنا ما كنت لأصدق هذا لو كان الراوى إنسان آخر غير أمي.

أنا أعلم أن أمي ستموت قريباً، وهي تعرف هذا، حتى أنها تحاول أن تمزح، إلا أنني دائمًا أقطّعها بتحفظ وأقول: "ماما، كل أترابي في القرية قد أصبحوا في القبور..." و أصدقاني روبتسوف وشوكشين - أيضاً. روبتسوف كان أصغر مني سنًا. جميعنا، شيخ وشباب، سواسية أمام هذه المسألة. ولذلك لا تتحدثي بعد الآن عن الموت...". "لن أتحدث، لن أتحدث"- ويمر يوم أو يومان فتعود لتقول، وكأنها تمزح: "الحمد لله. لقد بدأت رجلاً بالتورم. لن أعيش طويلاً.

ذكريتها ما تزال حادة لا ترحم، كالسابق؛ أما طيبتها الصادقة تجاه أبنائهما وأحفادها وأبناء أحفادها فقد أصبحت أكثر إلحاحاً واتساعاً. تفهم كل شيء، فعقلها ليس أضعف من عقلِي بشيء، ومع ذلك فموتها قريب. كلانا يعرف هذا، أنا وهي. لكنني أحابُ دائمًا ألا أفكّر بمماتها. شفقة عظيمة تغمرني.

اليأس يتسلل من كل أرجاء بيتنا الخشبي، لأن كل شيء في هذا المسكن

⁽⁴⁾ المدفأة في البيوت الروسية الريفية هي حجرة مبنية من الأجر يوقد فيها الحطب. في الشتاء ينامون على ظهرها ليلاً، فلا غرابة في أن يستند المرء إليها - المترجم.

⁽⁵⁾ بيريوزكا - شجرة البتولا الصغيرة. هكذا سميت هذه البقرة - المترجم.

مرتبط بأمي. ما أكبر الحزن الذي كانت تنظر به إلى أمي وأنا أغادر البيت إلى القرية تاركا إياها في المدينة! "خذني معك!". لم أكن أسمح لها بالكلام عن الموت. كنت إما أنفجر أو أبرهن لها أن كل هذا ليس من شأننا. غير أنها تعرف أنه لم يبق لها أن تعيش إلا قليلاً، وأنا أعرف، لكنني أتهرب من هذه المعرفة كالطفل الصغير الذي يغطي عينيه عندما يلعب لعبة "التخبية".

في وقت من الأوقات كنت أتمنى أن أموت قبلها - إلى هذه الدرجة كانت مقيدة بالنسبة لي حقيقة حتمية موت أمي. وفيما بعد، وبمساعدة أمي نفسها، أدركت أخيراً أن الرغبة بالزوال أولاً، كي أتهرب من لوعة الفقدان، هي أيضاً خطيئة ومظهر من مظاهر الأنانية الفصوصى، يقترب من جريمة الانتحار. كذلك هو الأمر، ولكن يا للكآبة... أن تشعر، وأنت متحرر من أي وهن نفسي، وبكامل عقلك وتمام ذاكرتك، أن تشعر كيف يقترب منك بخطى حثيثة الفنان الأرضي، بشكل يجعل الفاصل بينك وبين هذا السر لا يمتد لسنوات، بل لمجرد أسبوعين وربما لأيام. في هذه الحالة بالضبط بقيت هي في المدينة، وها أنا ثانية في القرية أستمتع بدفء المدفأة والهدوء المحبسين. ماذَا أفعل؟ أنا كنت أحضرتها إلى هنا لو كان هناك أسفلت. لو لم يكن "الإسعاف" على بعد ستين كيلومتراً من البيت، ولو...: قريباً سينتهي كل شيء بالنسبة لها...

على الجدار، فوق منضديٍ علقت نسخة مصورة عن لوحة الفنان فولكوف: بوشكين ينهض فوق التلوج متغلباً على آلامه ليسدد مسدسه نحو مارق دولي يرتدى، على سبيل التمويه، معطف ضابط الحرس الروسي⁽⁶⁾. موسوعة بيترنر لا تسمى دانتيس ضابطاً، بل دبلوماسياً. لا يهم الإنسان الذي سيكون مالكاً لقصر فاخر أية جهة يخدم: أكانت هذه الجهة نيقولاى الأول أو الماسونى خان فرنسا نابليون الثالث.

سيموموت ألكساندر سير غيفيفيش بوشكين، لم يبق له في الحياة إلا القليل القليل. العربية تنتظر والميقانيون تجمدوا في صمتهم. وبوشكين يسدّد ثانية إلى عدو وطنه. لقد ولدت بعد مضي تسعين عاماً، فقد انصرم قرن إلا القليل على ذلك

⁽⁶⁾ لوحة المبارزة بين بوشكين وخصمه دانتيس التي جرى فيها بوشكين ومات متأثراً بجراحه - المترجم.

الشقاء في بطرسبورغ - ولكن لماذا أبكي بلا دموع، ضاغطاً على أسنانى النادرة
في فمي؟.. أبكي على أمي وعلى بوشكين.

ربما أنت تشيخ وتصبح عاطفياً داماً؟ ربما... كله ممكن، أيها السادة
الديمقراطيون!

حلمت أنني عجوز قديم،
جاف، خفيف، مثل دخان خريفي
لا يعرف لا الألم ولا المعاناة...

وهكذا لم تجد السطور، ولم تجد الكلمات التي يقولها غفريت الغابة، من أجل
الجزء الثاني من حكاية "كوتتشي الذي لا يموت"⁽⁷⁾ تتماتها. منذ حوالي عشرة
أعوام، عندما كنت ما أزال قادراً على القراءة بلا نظارات، كانت لدى رغبة
جامحة في كتابة القسم الثاني من هذه الحكاية، غير أن أحد أصدقائي، وقد أصبح
الآن راحلاً، أبدى موقفاً بارداً من حكايتها، فأهملتها. مازال الاهتمام بالشخصيات
الوثيقة قائماً. أو ربما تخيلت فقط أن يوري سيليزنيوف وقف من الحكاية موقفاً
بارداً؟ هذا ممكن أيضاً. المهم أن الجزء الثاني لم يولد لسبب من الأسباب، ومضى
الوقت. والآن أنا تابع وخاضع لهذه - ما أسمها؟ - ديوبريرية⁽⁸⁾. أسمع أصواتاً
عظيمة، أصواتاً أبدية نفاذة. وهي تحملني على التفكير بأنه لا فرق بين الأحياء
والأموات. فالروح خالدة لأنها فريدة ولا تشبه أحداً. "أغنية الخريف" لا تشبه أحداً.
أليست هي - روح تشايكوفסקי - التي تحلق في بيتي؟ ربما يكون هذا تجديفاً،
ولكن عندما أكون بمفردِي لا أحس بفارق بين أصدقائي الأموات وأصدقائي
الحياء. كلهم بالنسبة لي أحياء على قدم المساواة، كما هي حية روح بيوتر إليتش
تشايكوف斯基. "أغنية الخريف" تتصدح، فأشم رائحة الفطر من سلة تقيلة تصدر

⁽⁷⁾ "كوتتشي الذي لا يموت" هو رجل هزيل طاعن في السن، واحد من شخصيات بعض الحكايات
الخرافية الشعبية الروسية - المترجم.

⁽⁸⁾ ديوبريرية - كما في معجم اللغة الروسية المعاصرة - هي وحدة قياس قوة انكسار الضوء في
العدسة أو المرأة الكروية. الكلمة يونانية الأصل وتعني المراقبة والقياس. في القاموس
الروسي العربي نجد مقابل الكلمة الروسية كلمة "ديوبتر" بالعربية وإشارة إلى أن الكلمة
تستخدم في علم البصريات. مجموعة المراجع تفيد أن ديوبريرية هي وحدة قياس قوة عدسة أو
مجموعات عدسات - المترجم.

صريراً، وأرتعش من رطوبة الغابة ومن أوراق أشجار البتولا والحور المتساقطة، وأحس بكل ما يدور وراء البوابة.

"الآن أرتدي جزمتي وأخرج إلى الحقل الخريفي - أفكر بهذا وأنقل بنفسي ذراع الحاكي إلى مكان حصاد الحشاش - أو، الأحسن أن أصفعي إلى كل هذا من البداية...".

ولكن أين هي، هذه البداية؟ هل يمكنني أن أعتبر ميلادي الشخصي، مثلاً، بداية لأي شيء؟ فقبل مجئي بزمان كان يتداولاً قرب الكانون أبي وأمي، جدتاي وجدائي، أمهات أجدادي الأربع وأباء أجدادي الأربع. أربعة عشر شخصاً (أنا الخامس عشر). لدى كل إنسان جدود. لأجل الجميع كان الجمر يتقطط في المدافن في الأماسي. كل واحد كان يسمع قصف الصقع المدوي وراء الجدران. وهنا لا بداية ولا نهاية، كما لا وجود لهما في اللغة السماوية السوداء التي لا تعبر لها، المهيمنة فيما بين نجوم الليل. كانت الأنوال تقع في البيوت الريفية. كانت تخذل، كما كانت تخذل لي، على جمر المساء المأكولات الحلوة. والنساء الفلاحات كن يصنعن من العيدان ما يصنعنه الآن، وكانت حكايات الجدات تحكي، كما حكى لي ذات يوم حكاية الباشق من فم أبي جدي ميخائيل غريغوريفيتش. الآن أحارو العثور على التشابه الذي أفلت مني بينه وبين تشاكوفسكي، لكنني لا أستطيع، ولا بأي شكل، التقاط هذا التشابه أو التعبير عنه.

ما هو المشترك بين الجمرات الحمراء تحت المضطجع الدافئ المقام بجانب المدفأة الفلاحية الجبار، ونيران الموقد في مدينة بطرسبورغ، النيران التي كان ينظر إليها متآمراً المعاصر العظيم لجدي؟ آه. كل شيء هنا مشترك مع أنه لا يشبه بعضه البعض! طبعاً لم يكن الصقع يقف وكأنه بندقية موسين⁽⁹⁾ لا في جدران شقة من شقق بطرسبورغ، ولا في بيت فون ميك⁽¹⁰⁾ النير، في ضواحي موسكو،

⁽⁹⁾ موسين هو سيرغي إيفانوفيتش (1849-1902) مصمم روسي لأسلحة الرمي، جنرال في الجيش الروسي، صنع في العام 1890 بندقية ذات مخزن للذخيرة عيار 7.62 مم ثلاثة الخطوط نموذج 1891- المترجم عن الموسوعة السوفيتية الكبرى.

⁽¹⁰⁾ فون ميك، كارل فيودوروفيتش (1821-1876) أحد الرأسماليين الروس كان مالكاً لقدر كبير من أسهم شركات الطرق الحديدية في روسيا. زوجته ناديجدا فيلاريتونفا (1831-1894) كانت تتولى رعاية تشاكوفسكي- المترجم عن الموسوعة السوفيتية الكبرى.

حيث لم يكن الطباخون يسمون البطاطا العادية تقاحاً. إذن لماذا أسمع الآن جرس جد أبي في فالداي⁽¹¹⁾؟ ولماذا أسمع العدو الإيقاعي المنعش على الدرس الزلق، وقهقهة الجمهور المحتفل بعيد "ماسلينيتسا"⁽¹²⁾، والدوران على لوح الدراسة، الذي طالما حدثتنا أمي عنه؟ كل هذا يبدو وكأنه تجسد، ووسعته، دون انتقاد أي شيء منه، هذه الأصوات الخالدة. وهكذا يصبح واضحاً تماماً أن لا شيء يذهب بلا أثر، ولا شيء يضيع أو يحدث عبثاً. خفت الغصة في حنجرتي، ثم تلاشت المراارة،وها أنا أعود لأسمع من جديد فعلاً الرنين الصباغي للثلوج التي تجمدت في الليل. إنها تبهر بصرى بانعكاسات الأشعة الصباغية الذهبية. البرد يلسعنا جميعاً نحن الجائعين منذ الصباح. إلا أنها ترکض إلى المدرسة على قشرة الثلج المتجمدة... كم هو مفرح وسار اختصار الطريق الصباغي بالركض مباشرة عبر الحقل والدغلة الصغيرة، مفرعين الطيور الحانقة والمتوتزة في مناداة إنشائها، ومنتفحصين كومة الثلج التي قفز منها ثعلب أحمر ذو صدر أبيض وكأنه يطير بأجنحة. إنه نفس ذلك الثعلب الذي حاول في المدينة استصدار تعليمات تمنع البواشق من الوقوف على الأشجار لكي "يجولوا هم على المروج الخضراء".

ما زالت المروج الخضراء بعيدة عنا، نحن المسرورين والجائعين، ولكن هنا هو أول زرزور أسود يحط على رقعة من الأرض ذاب عنها الثلج وها هي أول زهرة ثلج قد أخرجت رأسها من تحت الثلج لترى النور. أحس وأنا أصغرى إلى الموسيقى بضعف وعجز هذا المخلوق الضئيل وكأنه طفل وليد. ولكن، يا لها من عظيمة، قوة الحياة شديدة الشكيمة، الأزلية وغير الخاضعة لاي سلطان! برُد الثلج الأبيض المبهِر في كل مكان، بينما شقينا تمكن من الظهور في كل مكان. في الجوار طبقات من الثلوج البيضاء حجراً الصقيع، أما هنا في هذه الرقعة الصغيرة التي ذاب فيها الثلج، بعيداً عن الأنفاس القطبية وعلى بقعة شفافة من الماء بين الثلوج المتصلة تذوب متقدمة قطعة جليدية رقيقة لتحل محلها، قطرة إثر قطرة، أرض مجردة. أما هي - زهرة الثلج الوليدة، فلم تكن ترفع رأسها من الأرض حتى

⁽¹¹⁾ مدينة فالداي هي مركز ناحية في محافظة نوفgorod- المترجم.

⁽¹²⁾ ماسلينيتسا هو الأسبوع الذي يسبق الصوم الكبير، وهو عيد للربيع اقتبسه السلافيون الأرثوذكس مما قبلالأرثوذكسية. تمارس في هذا العيد طقوس وتنية احتفاء بقدوم الربيع- المترجم.

استعجلت إلى الإزهار ...

"الحياة أقوى من الموت"- اندفعت إلى الورق هذه الجملة السخيفة، فتنازلت له عنها، مع أنني أعرف أن المقارنة بين مفهومي الحياة والموت ليست مقارنة متكافئة. فالموت ما هو إلا جزء من الحياة. فلماذا أستسلم للإغواء وأساوي في الحقوق بين الكل والجزء؟ فلأشطبن هذه الجملة وانتهي الأمر! "لقد كتبت الجملة وهي الآن حية بمعزل عنك"- قال صوت كأنه خارج من الأنف، جاءني من بعيد- أمن العدل مكافحة ما هو حي بمعزل عنك؟ والجملة، على ما أظن، ليست جملتك. إنها مقتبسة". يا له من خبيث... دائمًا يخرجك هذا الصوت الآتي من بعيد عن إيقاعك، ويضاغع ويتوسّع وعيك. يشاركك ويسطر عليك. "الروح خالدة"- هكذا رحت أعزّي نفسي، لكن الشك عاد ليفنّي. القلب يتلهّف إلى التجسيد المادي لهذا الخلود، وأنا لا أستطيع أن أستسلم، ولا بأي شكل من الأشكال. ليس المقصود هنا موتي الذاتي (فأنا أفكّر به بكل هدوء- لست أدرى لماذا)، بل المقصود هو موت أخي القاسم القريب، أو موت أصدقائي الذي تحقق. أنا لا أستطيع تقبّل الموت. وفهمه. أنا أحتج! حتى مقتل آخر كلاب جارنا، الذي أطلقت النار عليه من أجل بيّعه لصنّع شابكا⁽¹³⁾، وشُرب بثمنه على الفور، يثير في نفسي عدم التوافق. وماذا أقول عن موت ياشين وشوكتشن وسيليزيونوف وروبوتسوف وبيريدرييف⁽¹⁴⁾؟ مازلت حتى الآن لا أستطيع إجبار نفسي على الجلوس وكتابة ذكرياتي. أحاول التملص باستمرار، وأبحث عن طرق جديدة للتصالح مع هذا الواقع المؤسف. وهذا هي الآن قد خطرت لي فكرة لنيمة- أن لا فرق بين أصدقائك الراحلين وأولئك الأحياء الذين يعيشون بعيداً عنك. أليس الأمر سوء: أليسا مثل بعضهما الصوت الصادر عن الحاكى (الإنسان ميت منذ زمان) والصوت الصادر عن سماعة الهاتف لـ"لـإنسان حي يرزق الآن"؟

إنها شيطانية... غواية عارضة، لكنها ليست عديمة الأذية. شيء مخجل. تناولت السترةقطنية المضربة وقبعة الرأس، ولففت كيما اتفق "البورتيلانكي"⁽¹⁵⁾،

⁽¹³⁾ الشابكا هي قبعة الرأس الروسية المصنوعة من الفراء- المترجم.

⁽¹⁴⁾ أدباء سوفييت قضاوا، وهم من أصدقاء المؤلف- المترجم.

⁽¹⁵⁾ البورتيلانكي هي شريحة من القماش يلغها الفلاحون الروس على الأرجل قبل ارتداء الجزمات الشتوية بقصد الحماية الإضافية من البرد- المترجم.

ثم احتذيت جزمة القماش العسكرية. أطفأت تشايروفسكي في نيسان واندفعت خارجاً من البيت.

في الخارج كان يسود آب. ما يزال يتردد في أذني صوت قبرة بيوتر أيفانوفيتش تشايروفسكي النيسانية. لم تطر بعد، مع أنك - كما بدا - لم تكن تسمعها في لحظات التأمل الحزين. يقال أنه لم يُسمع في ضواحي موسكو صوت القبرات المرح منذ عدة سنوات، وهذا يعني أن تشايروفسكي وألكسي تشيركاسوف قد خلصا روح طير الحقول الروسية الصغيرة هذا وخلداه عبر أصوات مدهشة. فعندما اختفت من الحياة هذه القبرة، مثلاً اختفى ببل الأبييف⁽¹⁶⁾، راح تغنى وتترفرف في سماء الفن العالمية الخالدة. بالمناسبة - تشايروفسكي خلد أيضاً الببل... ولكن من ذا الذي يتتصيد وبخنق مغني الحقول والغابات، وكيف؟ في نواحينا، مازالوا يعيشون في بعض المناطق، ومازالت من الممكن سمعتهم في أماكن محددة في الربيع. ياله من انتصار للحياة، ويا لها من متعة تسمع في أصوات القبرة المهدارة، عندما ترور تصعد عمودياً وكأنها ترتفع طبقة إثر طبقة في السماء حاملة معها أغنيتها الخاصة! ربما لن أسمع في الربيع القادم صوت قبرات ناحيتي فولوغدا، إذ ستكون فخاخ التقدّم الفولاذية قد سحقت حتى هؤلاء المغنيين الذين لا حول لهم ولا قوة. أما ما هو التقدّم - فإنما ألمسه هنا عند كل خطوة...

كانها ليلة خريفية تركب عربة ذات سبع جياد، ففي الليل هبت عاصفة. أنا أعرف أن هذه العاصفة هي آخر عاصفة في هذه السنة، ولن يهب غيرها. كان على أن أرتدي ثيابي وأخرج من البيت، إلا أنني تكاسلت حتى عن الاستيقاظ.

من خلال المنام، فقط، كنت أسمع خرير الرعد المخنوق. ربما تكون العاصفة كلها مجرد حلم؟ لا لقد كان صوت العاصفة حقيقياً. لم تكن تزمر من الأعلى، بل من الجانب، كالجرارات التي تجوس الدروب قرب البيت، أيضاً، في الليل غالباً، لست أدرى لماذا. كلما كان إشفافي على سائقي الجرارات السكارى أكبر كانت

⁽¹⁶⁾ الأبييف هو الكساندر الأبييف (1787-1851) موسيقار روسي كان يكتب الألحان الغنائية الفولكلورية في بداية القرن التاسع عشر وكان يكتب الموسيقى الرومانسية للأغاني ذات المضمون الاجتماعي مثل "الشحادة" و"الببل". كان من أوائل من جسدوا موسيقياً أشعار بوشكين العاطفية. ألف أيضاً للأوبراء والباليه ولفرق الحجرة الموسيقية وغيرها - المترجم عن المعجم الموسوعي للغة الروسية.

معاندهم لأشفافي أعظم. إلا أنه لا يسعني أن أعتذر بأبناء قريتي هؤلاء: أمس كان أحمق لا أعرفه قدما على جراره من الدار المركزية، فأوقف الجرار وراء بيت تيمونيحا، جمع من الحقل بعض الحجارة وراح يغير على طير غريب كبير لا أحد يعلم من أين جاء، كان يقف على هرم من حشائش العام الفائت طيرا كبيرا ساكنا. خفت أنا أن أفرزه فأسرعت إلى البيت لأحضر المنظار المكبر. لم يحدث أبداً أن حطت مثل هذه الطيور وراء بيتي! ربما كان مالكا الحزين، أو ربما كان لقلقا جله من ضفاف ديسنا الملوثة المسمومة بحثا عن أرض صالحة. ولشدة اضطرابي لم أتمكن من تذكر لونه. اليوم لم أحمل معى المنظار، فالطير الذي كان على هرم الحشائش لم يعد موجوداً حتماً منذ زمن بعيد. إلى أين طار هذا الطير؟ وعموماً، هل ما يزال حيا؟ البط أيضاً على درجة من السذاجة والتقة تجعله يغط نفسه في الربيع في مستنقعات المياه المجاورة للطريق ويتمشى فيها متباخرا.

ومع أن البنادق ليست موجودة في كل بيت، كما هو الحال في كاراباخ⁽¹⁷⁾، إلا أنه توجد بعض البنادق. نعم توجد، وتوجد ذخيرة أيضاً. ليته ينعدم شيء من اثنين - إما البط أو الذخيرة. يقول لي محرضي الداخلي: "لا سلطة لك في هذا، فلماذا تهز بذلك؟" أنا أحاول ألا أصفعه إليه... فأصرخ بنفسي بلا صوت: "لا أريد أن أكون اثنين. لا أريد... ولذلك لن أفكر لا بالذخيرة ولا بالبط". أعود من الحقل إلى القرية وأخلع حذائي على السلم، ثم أدخل البيت، وأضع ناقل الصوت على الليلة الحزيرانية البيضاء فتنفذ هذه الليلة بقوه وتغرق بيتي الخشبي الدافئ بنور صيفي شمالي، وتتفذ إلى كل جدرانه وسقوفه الكهرمانية. وعندما يختفي النور الفضي الشفاف وتبدأ السماء الوردية اللون الكبيرة بالبزوغ أعود لأنكى إلى المدفلة وأطبق عيني... كان يكفي تشايروفسكي أن يؤلف سلسلة "قصول السنة" أو "باركارولا" وحدها حتى يبقى وإلى الأبد خالداً في الفن الروسي. لقد أصبحت روحه خالدة. أنا الآنأشعر بكل كيانه أن روح تشايروفسكي خالدة. لقد اجتمع كل شيء في هذه الأصوات التي لا مثيل لها: تعدد ألوان أعشاب الحقل قبيل يوم

⁽¹⁷⁾ كاراباخ هي المنطقة المتنازع عليها بين أرمينيا وأندريجان والتي دارت فيها معارك مريرة بين سكانها من الطرفين في نهاية الثمانينيات - المترجم.

إيفان⁽¹⁸⁾، والألوف المؤلفة من روانحها- الأصوات المنصبة كلها في عبير جماعي واحد، والشمس العالية في قبة السماء الرحيمة غير المكتملة، والأفق الذي تشوّهه حزم السراب، وفرحة الظل في عز الظهيرة. مازال التعب الشتوي بعيداً، ومازال الدم الأخضر يتدفق في أشجار وأعشاب موطنني. نهرنا مازال نقياً، مثلاً هو ضميري، عندما أغوص، والأصح- عندما أسقط في صورة السماء المنعكسة على مائه. متى كان هذا؟ أتساءل وأحس بسخافة السؤال وبعدم تكافئه مع وضعـي. ليس "كان"، بل موجود الآن! لم يخفق شيء... ومع أنه لا يجوز أحياناً الشرب من النهر، والآن في أيام حصاد الحشاش لا أحد يشرب منه، فقد كنت أسمع أحياناً، وأسمع الآن أغنية، هي ليست أغنية حاصلـ واحد، بل أغنية فرقة كاملة عاندة إلى القرية في أمسية صيفية دافئة. لم يعودوا منذ زمن بعيد يزرعون الجودار خارج القرية، إلا أنـي رأيته وأراه الآن. المنجل يتلمع في يد أمي ليتصـهر في لجة السماء الذهبـية. أزحف متسللاً تحت سقيفة عالية من حزم السنابل أقيمت لتجفيفها، مختبـاً عن أتـرابـي ونحن نلعب "التخـابـية". أبحث عند التخوم عن توت الأرض وانتشقـ راحتـه الإلهـية بـحقـ. منذ أسبوع جلبتـ في دلو فيه ماء صدفـتين هـما تماماً مثـلـاً كـانتـا قبل نصف قـرن مضـىـ. وفرـخـ سـمـكةـ أـخـضـرـ ما يـزالـ يـقـفـ عند تـجمـعـ صـغـيرـ للمـيـاهـ الدـافـةـ على ضـفـةـ النـهـرـ.

الصدفـتانـ حـيـّـانـ في دـلـوـيـ، إـلـاـ أـنـنـيـ شـربـتـ كـلـ المـاءـ تـقـرـيـباـ. سـأـذـهـبـ وأـطـلـقـهـماـ ثـانـيـةـ فيـ النـهـرـ. ربـماـ أـشـاهـدـ فـرـخـ السـمـكـ المعـهـودـ. لـاـ شـكـ أـنـهـ كـبـرـ خـلالـ أـربعـةـ أـسـابـيعـ مـنـ وـجـودـيـ هـنـاـ، كـمـاـ كـبـرـ خـلالـ هـذـهـ الفـتـرـةـ مـهـرـ. جـارـنـاـ "مالـيشـ" (الـصـغـيرـ). لـقـ ولـدـ أـدـهـمـ، ذـاـ حـافـرـ أـبـيـضـ. هلـ أـصـبـحـ الآنـ أـغـبـرـ؟ مـنـذـ زـمـنـ بـعـيدـ لـمـ تـعـدـ الشـمـسـ شـمـساـ صـيفـيـةـ، فـفـيـ بـيـتـيـ تـرـنـ مـوـسـيـقـيـ "أـغـنـيـةـ الـخـرـيفـ" الـخـالـدـةـ.

أشـعـرـ بـعـمقـ وـعـيـ بـحـسـ السـعـادـةـ. مـنـ أـينـ هـيـ السـعـادـةـ إـذـاـ... لـاـ ضـرـورـةـ لـلـسـؤـالـ. ربـماـ تـحـلـقـ السـعـادـةـ فـيـ طـراـوةـ الغـابـةـ الـخـرـيفـيـةـ، أـوـ أـنـ كـهـرـمانـ

⁽¹⁸⁾ يوم إيفان هو عيد قديم لدى السلاف الشرقيين وهو يصادف يوم 24 حزيران حسب التقويم الشرقي القديم، أي 6 تموز حسب التقويم الميلادي المتبـعـ المـتـرـجـمـ.

"موروشكا"⁽¹⁹⁾ المستنقعات هو الذي ينشرها. أتناول ثمارها وأنا جالس في الطحالب، وكأنني على أرائك مجرية من الريش، أجمع حفناً ملء راحتي من هذا الثمر، ثم أزدرد هذا الجسم الكهرماني اللذيد. يقال أن بوشكين طلب وهو على فراش الموت أن يسرعوا إلى أقرب دكان ويحضروا له موروشكا منقوعة. تذكرت هذا فلم تعد هذه الثمار البرية ثماراً أصبحت حفنة من الدموع برتقاليّة اللون... حبوب الأَس الأسود أزدردها في المستنقع أيضاً بالحفناً - أليست هذه سعادة؟ الأَس الأسود بالحفناً... (شيء مضحك...) لو تركت في المدينة مع نظارتي حتى أسنانى الحديدية، الأميرية - كما يقول جاري - لما كنت سأضيع في مستنقعي الحبيب. كل الأَس الأسود بالحفناً واسحق بسانك هذه الثمرات الكبيرة الناضجة ضاغطاً ليها إلى سقف حلقك ولثتك، فلن تموت من الجوع). البعض وحده هو الذي يفسد هذه السعادة العظيمة في هدوء الغابة المشمسة. أشفق على الأعزاء والأقرباء، فاخجل من ملء فمي بحفناً الأَس الأسود، إذ أن هذه الإمكانية ليست متوفرة لهم الآن. إذن، إلى السلة، إلى السلة! أليست هذه سعادة؟ إذا ما خرجت من الغابة فتحدق بك البقرة بنظرة طيبة مستغربة، وكأنها تتتسائل: من؟ ومن أين؟ ثم تنتهد بعمق وصخب مثل كير الحداد، ولا تنسح لك، من حماقتها، الطريق. كم هو لطيف ومفرح عناد البقرة هذا. وهناك في القرية، عند مدخل العنبر تقف امرأة بنفسية الفتاة العذراء، ناظرة باتجاهي منتظرة اقترابي منها. أنا أعرف ماذا تنتظر وإلى ماذا تنظر. إنها تتلهف لتعرف من هذا القادم على الـدرب. عندما أقترب إلى المسافة اللازمة، وعندما تعرف أن هذا أنا تتوارى على الفور بخجل. أليس هذا فرحاً؛ أليس هذا سعادة؟ سعادة عظيمة أن يكون للمرء ولو أصدقاء. أما أنا فللي، إلى جانب هذه الموسيقى وهذا الوطن الأخضر، أم وزوجة وبنت وأخوات وأخوة. وإن كانوا بعيدين عنّي، فهم بجانبي، وأنا اسمعهم وأراهم جميعاً. بعد هذا المسير المتعب سأوقد الحمام، كما وقد ثلاثة من جيرانى حماماتهم. إنى على قدر كبير من السعادة لأننى أميز بالرائحة دخان حطب الصنوبر عن دخان حطب البتولا وعن دخان حطب الحور الرومي...

⁽¹⁹⁾ موروشكا هي نبتة معمرة من ذوات الأزهار الوردية اللون، تعيش بشكل رئيسي في مستنقعات التundra المحمية وفي مناطق الغابات. ثمار هذه النبتة قابلة للأكل - المترجم عن المعجم الموسوعي للغة الروسية.

أم أن هدوء الحقول قبيل الشتاء ينعشني؟ سرب من الإوز المهاجر يسرع
مندفعاً نحو الجنوب. لقد اخفت الموروشكا الذهبية من الغابة منذ زمن بعيد.
الغرانق التي تقضي ليلها في الحقل البارد تقرقر. وفي بيتي تصدح "أغنية الخريف"
الخالدة. كم كان ميديداً، سعيداً ومديداً ذلماً ذلك اليوم، لو لم يتتصاعد دخان
بريدنستروفيه... .



التذليل

قطة الكاتب الألماني : ألفريد أندرش

■ ت: عدنان حبّال ■

لمحة عن الكاتب:

- ولد ألفريد اندرش (Alfred Andersch) في 4 شباط 1914 في مدينة ميونيخ عاصمة بافاريا وكبرى مدن جنوب ألمانيا، وأمضى فيها طفولته وصدر شبابه حيث تعلم بعد حصوله على الثانوية مهنة إدارة المكتبات دون أن يجد في الأعوام 1928-1930 أيامة مكتبة يعمل فيها. كان أبوه ضابطاً في الجيش مشاركاً في الحرب العالمية الأولى لكنه مات حزناً وقهرأً بعد انتهاء هذه الحرب بهزيمة ألمانيا.. شارك ألفريد العاطل عن العمل في نشاطات الشيوعية حتى اعتقل مع بعضهم إبان العهد النهيري وعمل بعد الإفراج عنه تحت المراقبة موظفاً صغيراً في ميونيخ ثم في هامبورغ حتى استدعي للخدمة الإلزامية عام 1940 واشترك في حملة غزو فرنسا ثم سُرّح بعد سنة وعاد إلى العمل المدني في فرانكفورت.

استدعاءه الجيش النازي ثانية للخدمة العسكرية ودفع به عام 1943 مع آخرى إلى إيطاليا. لكن ألفريد سلم نفسه هناك للأميركيين وقرر مقاومة النازية بالكتابة والقلم بدلاً من السلاح التقليدي، وفور عودته من الأسر الأميركي عند نهاية الحرب العالمية "الثانية"، اشتراك مع زميله الأديب إيريش كستنر في تحرير "الجريدة الجديدة" (*Die neue seitung*). ثم أصدر مع هانس فيرنر ريشتر مجلة "النداء" (*Ruf*) التي ما لبثت السلطات العسكرية الأمريكية المحتلة أن منعت صدورها.

الفريد أندرش أحد مؤسسي (الجامعة 47) وخرج إلى الشهرة العالمية

بغضلها. ظلَّ يشارك بفعالية في الإذاعة والصحافة والمؤتمرات والندوات الأدبية حتى عام 1958، إذ أنه أثر الاعتكاف والإقامة في مدينة بيرتسونا السويسرية الجميلة وتوفي فيها عام 1980.

حصل على العديد من الجوائز الأدبية الهمامة، وترجمت له في كتاب "غناء العناكب وقصص ألمانية أخرى" قصة اسمها: قصة لورد غلوستر ترجمها مجدي يوسف وصدرت في بيروت عن دار صادر للنشر عام 1967. لكنَّ أهم أعماله هي: كتاب "كرز الحرية 1952" الذي يبحث في موضوع الهجرة بحثاً عن الحرية، ورواية "زنزيبيا أو السبب الأخير" عام 1957 - "الحرماء"، رواية 1960، "قصص" 1971، ثم قصائد: "تمردوا فالسماء زرقاء"، عام 1977.

لعلَّ أهم ما يميز أدب ألفريد اندرش هو الاهتمام بالإنسان المسكين الذي يتعرض لأهوال الحروب غير العادلة دون أن يكون له هدف يسعى إليه. هذا الإنسان الذي لم يشعر في ألمانيا بالهزيمة فحسب، بل شعر بالضياع وانعدام القيمة والجدوى من استمرار حياته أيضاً، ورفض التعويضات الاستهلاكية التافهة.

قصة "التافه" نموذج من معاناة شباب ألمانيا العائدين من الحرب النازية الخاسرة، وهي من مجموعته (قصص) الصادرة عام 1971..

انظروا هذه الكتلة الزجاجية العملاقة تدخل إليها القطارات عبر مغارات مضاءة داخل جبل الظلمة الرمادي الأزرق، تجدوا فيها زهوراً ومشروب الجمعة وأحمر الشفاه والصحف اليومية وكذلك النقانق وبطاقات السفر وشطائر المسلمي والمناديل والاستعلامات وحليب البقر ومتع المسافرين، كما أنكم تجدون ماء الكولونيا ودورات المياه ودلائل البناء وإعلانات حفلات زفاف النساء مصورة بالألوان..

أما أنا فانتظر إلى يدي وهي تسلَّ من شعاع ضوء خافت وكأنها تخرج من بطنه منجم سحيق وتمتدُ على طاولة بيضاء ناصعة مصنوعة من الفورمايكا وقائمة في صدر كشك المشروبات، ثم تقترب من الفنجان وهي تهتز كالعادة في رعشة لا تكاد العين تلحظها.

لقد بدأت يداي منذ ثلاث سنوات تقريباً ترتعشان، وصار الشيء المهم الوحيد

في حياتي هو هذه الارتعاشة في يدي. كلَّ ما عدا ذلك لا يهمَ أحداً ولا يهمني أيضاً. فلا يهمني مثلاً أتنى أتأجر بالملابس المستعملة التي لا قيمة لها، ولا يهمني أن أعيش على حساب امرأة، كلما وجدت امرأة غبية تتفق علىَّ، ولا يهمني أن أنام في غرفة خشبية على سطح بيت في الشارع المطل على نهر "الإله"، أو أتنى أسلم غالباً في النهار وأدفع لقاء ذلك خمسين ماركاً كلَّ شهر، إنه مبلغ زهيد على كلِّ حال..

لقد نهضتَ اليوم من نومي في وقت يُعتبر باكراً بالنسبة لي. وأنا لا أجازف بالسير في طريق الجريمة والتحول إلى مجرم بمعنى الكلمة. وهذا يكفي مبدئياً للكشف عن شخصيتي. إذ أنَّ بعض المجرمين الحقيقيين يحاولون أحياناً أن يتكلموا معنِّي في الحانات، لكنني أرفض دائماً وأنتظر أنْ يأتني أعمل لحسابي الخاص. ليس من شأْن طبعاً في أنَّ الأذكياء منهم يكتشفون أسراري ويسبرون أغواري، لكنَّهم يدعونِي وشأنِي ويعرفونَ أنِّي لن أخبر الشرطة عنهم، فأنا لست مُخبراً عند أحد. مع أنَّ رجال الشرطة يقتادونِي أحياناً إلى مديرية الأمن الداخلي ويتحققونَ معي، فلا أبوج لهم بشيءٍ مما أعرف، بل أصنع أوراقي الشخصية أمامهم وأدوس بينها تلك الوثيقة التي تتضمن حصولي على وسام التقدير العسكري، وهو الصليب الحديدي من الدرجة الأولى. وهنا يوجهونَ إلىَّ فقط أسئلتهم الروتينية ويدعونِي أنصرف.

ثمة كل يوم لحظة واحدة أحسَ فيها بنفسي على أفضل ما أكون. هذه اللحظة هي لحظة وصولي إلى منطقة الضوء الخافت داخل جبل الزجاج اللامع وقد خرجت للتوَّ من كتلة الأضواء الساطعة المقرفة مسرعاً ومتختلاً أنها كانت كتلة من الصخور توشك أن تسقط على رأسي، وتذوم لحظة الخروج هذه ممتعة حتى تذكرني يدي اليمنى بأنها مازالت ترتعش. مع أنها في الواقع لا ترتعش بشدة مزعجة، وتكتف عن ارتعاشها فوراً عندما أمسك بها فنجان القهوة أو أي شيء مشابه. وهي، أي هذه الرعشة في اليدين، عندما بدأت عندي قبل ثلاث سنوات ذهبت فوراً إلى الطبيب، فسألني عما إذا كنت أفرط في التدخين، وأجبته يومذاك بأنني أدخلت خمسين إلى ستين سيكاراً كلَّ يوم، فشهق مدهوشًا وأعلن أنَّ رسم قلبي الكهربائي يظهر أنَّ حالة قلبي تدعو للأسف مقارنةً مع سنوات عمر ثري الخامس والثلاثين.

وأضاف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجله مما دمت لا أشكو من أي شيء آخر غير الرعشة. وقال لي: قلل من التدخين قبل كل شيء! ثم وصف لي أعراض ميوكاردون المهدنة. وظلت عاماً كاملاً لا أدخن في اليوم أكثر من عشرين سيكاراً فقط، ولكن الرعشة لم تخفي أو تتوقف، ولذا عدت اليوم إلى التدخين تماماً كما كنت في السابق، دون أنلاحظ أي زيادة في شدة الرعشة. لازلت أرتعش على النحو لا تلحظه العين العابرة، وما زالت رعشتي تجري على وترية واحدة.

إنني أشرب القهوة وأأكل شريحة خبز عليها بعض الطعام ثم أفكّر: ترى هل أرحل وأهاجر إلى مكان بعيد؟ وهذه الفكرة بالذات هي التي جعلتني أقضي معظم وقتِي في محطة قطارات السكة الحديدية وأبقى حتى يحل الظلام وأنا أفكّر بالسفر. لا سيما وأنه سبق لي أن سافرت عدة مرات إلى هامبورغ وكولونيا. وفي كل مكان أصل إليه أرى الشيء نفسه: محطة سكة الحديد وخارجها إضاءة ساطعة مثيرة للقرف. وهكذا فقد كان من الأفضل لي أن أبقى في فرانكفورت إذ أنّ عندي أصحاباً أراهم ومكاناً أنام فيه، وهكذا أشتري جريدة وأقعد على كتبة في مكتب بريد المحطة كي أقرأها. الورق خفيف، إنه لا يزن شيئاً، ولهذا فإن يدي لا تكفيان عن الارتعاش رغم إمساكِي الجريدة وقراءتها.

وعلى كل حال، مادمت أستطيع القراءة فهذا دليل على أن يدي لا ترتعشان إلا قليلاً. ذلك أنني عندما أقرأ أخبار حروب الجزائر والكونغو مثلاً، وانظر في الوقت نفسه إلى اليد التي أمسك بها الجريدة، أربط على الفور بين الصور المرتعشة التي ترسمها حروف أخبار الحرب في نفسي وبين يدي التي جعلت من صورة الحرب حركة دائمة تتسمج مع رعشتها فتسهل على القراءة، إلى أن تتحول الرعشة إلى هزة عنيفة كذلك التي كانت تهز يدي السليمتين سابقاً قبل ست عشرة سنة، وهما تدفعان حزام الذخيرة داخل المدفع الرشاش.

ربما كان من الأفضل لي والحال هذه أن أكفّ عن قراءة الصحف. لكن هذا لا يجدي نفعاً، وسوف أجد آلاف الأسباب التي تذكرني بأنني كنت في التاسعة عشرة من عمري أعمل وراء مدفع رشاش ضخم في كتيبة المظليين، وأنني كنت جندياً مقداماً وأحمل وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى...

دورات مياه الرجال في محطة فرانكفورت قديمة وواسعة الأرجاء، بل إنها

متاهة فسيحة، سواء بحماماتها المرتفعة المكسوة ببلاط سيراميكي أبيض معكر، أو بمراحيضها ومجاسلها الضخمة. ونحن نقف عادة في الفسحة المؤدية إلى الأحواض أو عند المغاسل، حيث لا تكون الرانحة الكريهة على أشدّها.. أشخاص يخرجون ببطء وأخرون يدخلون بسرعة. لكنّ عدتنا نحن الواقفين هنا يزيد في فترة ما بعد الظهر إلى أكثر من عشرة دقائق وبقى هكذا حتى يحل الظلام. بينما مجرمون حقيقيون، وكذلك أناس مثلّي لا يشتغلون بالأشياء الخطيرة. أما الأذال السفلة فنحن لا نرضي بوجودهم معنا أبداً، وإذا لاحظنا أن أحد الواقفين الجدد معنا نذل أو سافل طلبنا منه أن ينصرف عنا فوراً.. ويدور حديثنا أساساً حول الوسطاء الذين نأخذ منهم البضائع ونقوم بتصريفها، أو نتكلّم عن السينما والنساء ومجالات الشغل في أماكن أو بلدان أخرى، نتحدث أيضاً عن فرق المرتزقة أو العمالة في الخارج، ويقف معنا أحياناً أشخاص داروا في أنحاء عديدة من الدنيا. أما أنا فقد كان قراري النهائي هو ألا أسافر خارج بلدي، ولا أحس حتى برغبة في مشاهدة البلاد الأجنبية..

نحن نسمّي أنفسنا الأصحاب. نعم هؤلاء هم أصحابي الآن، لو لم تجذر إيماده السرية الثالثة من وحدي المقاتلة في الحرب لبقي لي أصحابي القدامى، ولما اضطررت للاعتماد على هؤلاء هنا، وكلهم مثلّي صعياليك تافهون، لقد فقدت أصحابي القدامى بعد أن فرغ آخر حزام ذخيرة كان معي ذلك الوقت قرب كاسينيو وكان زميلي الذي وقف معي على المدفع يقاتل حتى الطلاقة الأخيرة قد فارق الحياة مع وصول البولنديين إلينا الذين ألقوا على القبرص واقتادوني إلى مركز قيادتهم. حيث كان علىّ أن أنتظر طويلاً في دهليز التف فيه حولي بعض الصبية الظليان وقال لي أحدهم مراراً حتى استطعت فهمه: "إنهم سوف يقتلونك رمياً بالرصاص.."! وحدقت في وجه الصبي وصمت. ثم جاء من أخذني إلى ضابط بولندي بادر قائلاً لي: "أنت قمت بتغطية عملية انسحاب كتيبتك، هيا اذكر لنا موقع تجمعهم وسوف نعاملك كأسير حرب". ثم بسط أمامي خريطة حملقت فيها بادي الأمر تماماً مثل أيّ أعمى.

في اليوم التالي سلمني البولنديون إلى الأميركيان. وبالمناسبة فإن البولنديين لم يطلقوا النارقط على أحد من الأسرى، بل سلموهم سالمين حسب الأصول إلى الأميركيان. المهم أنهم أخذوني إلى معسكر أسرى التقى فيه بعد ذلك برجلين من

سريري كانا يظنن أنني قُلت، وكانا هما الوحدين الباقيين من أفراد السرية على قيد الحياة، ذلك لأنهما تعرضا للتصف من الجو قبل وصولهما إلى موقع التجمّع. وكنت قد شككت في أنها تأثراً عمداً كي ينجوا من الموت ويقعوا في الأسر، لكنني لم أقل لهما ذلك، وربما توضّح لي السبب في أنني فقدت رفافي القدامي، أما الشيء الذي لم يتضح لي ولا أستطيع حتى الآن تفسيره فهو لماذا بدأت يدائي فجأة ترتعشان؟؟؟ كان اهتزازهما في البداية عنفاً مع إطلاق حزام الذخيرة في المدفع، ثم جاءت فترة هدوء استمرت ثلاثة عشرة سنة، عادت بعدها هذه الرعشة المزعجة القبيحة..

وها أنا ذا أغادر دورة المياه وأصعد الدرج إلى أعلى. لقد خيم الظلام على الدنيا كلها في الخارج، وصار بإمكاني الابتعاد عن محطة السكة الحديدية، فلقد أعطاني بعضهم في دورة المياه عنوان رجل يريد أن يبيع ساعتين من ساعات اليد الفخمة. العملية ستكون سريعة ومجذبة، لكنني سأتسكع بعض الوقت في أنحاء المحطة.

انظروا إلى شجرة عيد الميلاد التي مازالت أضواؤها موقدة في قاعة كوات بيع تذاكر السفر، رغم انقضاء أيام عيد الميلاد، وانظروا جبل الظلمة يصطبغ هذه الأثناء بلون أسود مخلوط بالأزرق.. أما المغارات المضاءة فهي تتوهج بشرر متزايد بل تتلالاً. أيه، ليس هناك في العالم مكان بهذا الجمال!.. وكم أحسن بالتردد كلما توجهت إلى بوابة الخروج....



جريمة شارع بلا نشار الخامسة

تأليف: كاميلو خوسيه ثيلا⁽¹⁾

■ ت: علي أشقر ■

خواكين بونوم الذي كان ذا ساقٍ خشبية من صنوبر ترشح
صماً، صماً أصفر دبقاً وكأنه ما يزال ينزع من صنوبرة حية، أطبق
الباب وراءه وقال:

-أليدنا شيء؟

-لا شيء لدينا.

وتملك الغضب زوجه /منتشو أغرا ثابالا/ التي كانت فظةً وذات عين من
زجاج تنزع منها قطرة ماء صفراء دبقة وكأنها ماتزال تنزع من عينها الحياة التي
فقدتها في بوردو لما ضربها عليها أخوها الممثل فرمين من أثناء وباء الكوليرا.

تولوز مدينة حزينة قائمة في الشتاء بمصابيحها الغازية الصغيرة التي توقد
منذ الخامسة مساء، بأنغام أكورديوناتها البعيدة التي تتوجه كرستن معهورين؛
بعقابها الصغيرة ذات السنافر المخربة حول النواخذة؛ بنسانها المنكرات لذواتهن،
هؤلاء النساء المنكرات للذات اللاتي ينحرفن عن الطريق القوي ليوفرن ثمن أجهزة

(1) روايي وفاسق وشاعر وباحث لغوی إسباني. من روایاته: عائلة بسكوال دوارته - خلية النحل - مائزون على مبنین التي نال عنها الجائزة الوطنية في الأدب. حصل عام 1987 على جائزة أمير أستورياس عن مجلـل أعمالـه - وجائزة نوبـل للأـدـاب عام 1989.

أعراسهن، أجهزة أعراس لن يحتاجن إليها أبداً لأنهن لن يعودن إلى الصراط المستقيم. تولوز، كما قلت مدينة حزينة، وفي المدن الحزينة -كما هو معلوم- تكون الأفكار حزينة أيضاً وترهق الناس لشدة وطأتها.

خواكين بونوم كان عمل في كل شيء: كان عامل منجم، ورقيباً في سلاح المشاة، وعامل تجميل ومروج مواد صيدلانية وبانياً متوجلاً، وموظفاً في مصرف ميدي، ومهرجاً وجابي ضرائب وحارساً في بلدية أركاشون. من هذه المهن المتعددة التي مارسها وفر بعض آلاف من الفرنكات وصيّم على الزواج. فكر في ذلك ملياً قبل أن يقدم عليه، لأن الزواج مسألة خطيرة جداً. وطلب النصح إلى هؤلاء وأولئك خشية أن يتصرف بوعي من تفكيره فقط، ثم انتهى -كما تقول العامة- إلى أن صام دهراً وأفطر على بصلة. وكانت منتشو -وما أقبحها!- طويلة، ضخمة الأنف، شبه صلباء، مخصوصة، قرمذية اللون جدّ حقيرة حتى دفع أخوها -وهو لم يكن ضبعاً- إلى أن يغضب ذات يوم أكثر مما ينبغي له، فقلع عينها.

كان أخوها فرمين هذا قد اضطُرَ إلى مغادرة آثبيتيَا لأن سكانها الذين كانوا سيني الظنَّ جداً أخذوا يقولون عنه إنه خنثى، وجعلوا عيشه محالاً. لما رحل كان في التاسعة عشرة من عمره، ولما قلع عين أخيه بعد سنتين من ذلك، صار يقلّد نجوم مسرح الموزيت في بوردو. وكان يشرب فودكا، هذا المشروب الذي يُصنع من الكبريت؛ ويغنى "الحب والربيع"، وينتف حاجبيه.

خواكين الذي لم يضطرَّ، خلال حياته الطويلة الملأى بالأخطار، إلى أن يشكُّو أي حادث، فقد ساقه بعيد زواجه بأغلى طريقة، ذلك لما صدمه قطار ذات يوم عند خروجه من باليونا. هو يقسم ويؤكد القسم إن زوجه دفعته، لكن الأقرب إلى الحقيقة هو أنه سقط من تقاء ذاته متأثراً بكمية الكحول الكبيرة التي شربها. أما الشيء الواضح فهو أن الرجل ظلَ دون ساق، وبقي رهن البيت إلى أن صنعت له ساق من خشب الصنوبر. وكان يلقى بالمسؤولية على زوجه أمام الناس جميعاً، وما كل ليد هشني أن يسحقها ركلًا لو استطاع إلى ذلك سبيلاً. وكان يفكر كثيراً في مسألة الرجل هذه وأكثر مكان يسبب له الكرب هو أنه أصبح معوقاً. وكان يفكر.

-مائعش رجلٌ يضطر إلى أن يستند إلى كرسين كما يركل زوجه في مؤخرتها!

وكانَ منْتَشِّرُ تَسْخِرَ فِي حَضُورِهِ، مِنْ عَرْجَهُ الْدَّرَامِيِّ. وَكَانَ خَواكِينَ يَنْسِى أَلَامَ قَدْمِهِ إِذَا هُمْ بَلَعْنَاهُ. قَدْمٌ، مِنْ يَدْرِي إِنْ كَانَ الْقَيْ بِهَا فِي الْقَمَامَةِ حَقًا. شَيْءٌ وَلَا أَغْرِبُ إِنْ حَدَثَ!.

وَكَانَ الرَّجُلُ يَجِدُ الْمَصِيرَ الَّذِي حَلَّ بِقَدْمِهِ أَمْرًا لَا يَمْكُنُ التَّحْقِيقَ مِنْهُ، وَكَانَهُ سَرَّ مُسْتَسِرًّا.

-أَيْنَ يَكُونُ انتِهَىَ بِهَا الْمَطَافُ؟

تَرَكَ قَطْعَةً مِنَ الْجَسَدِ تَرْحَلَ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ فِي عَرْبَةِ الْقَمَامَةِ شَأْنُ خَطِيرٍ. لَكِنْ فَرْنَسَا بَلَدٌ مُتَحَضَّرٌ، وَلَعِلَّ الشَّرْطَةَ عَثَرَتْ عَلَيْهَا، وَنَفَلَتْهَا مُصْرُورَةً بِمَعْطَفِ كَانَهَا طَفْلٌ مَرِيضٌ إِلَى الْمَخْفَرِ... وَلَعِلَّ رَئِيسَ الْمَخْفَرِ ابْتَسَمَ بِبَطْءٍ ابْتِسَامَةً يَعْرَفُ رُؤْسَاءَ الْمَخَافِرِ وَحْدَهُمْ أَنْ يَبْتَسِمُوهَا مَتَى بَلَغُوا ذُرْوَةَ خَدْمَتِهِمْ. وَلَرِبِّمَا نَزَعَ عَوْدُ الْخَلَالِ مِنْ فَمِهِ، وَمَسَدَّ شَارِبِيهِ بِعَنْيَاهُ، ثُمَّ قَدْ يَخْرُجُ عَدْسَةً مَكْبُرَةً مِنْ دَرَجِ مَكْتَبِهِ، وَيَنْظَرُ إِلَى الْقَدْمِ. وَلَرِبِّمَا بَدَا شَعْرُ الْقَدْمِ كَالْخَيْطَانِ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ بِالْعَدْسَةِ؛ وَقَدْ يَقُولُ لِلْحَرْسِ، لَهُوَلَاءُ الْحَرْسِ الْعَجَانِزِ كَالْقَوَارِبِ، لَكُنْهُمْ فَضُولِيُّونَ كَالْخَادِمَاتِ.

-هَذَا وَاضْحَى، يَا شَبَانَ، وَاضْحَى!

وَرَبِّمَا تَبَادَلَ الْحَرْسُ النَّظَرَاتِ بِمَؤَخِّرِ الْطَّرْفِ سَعِيدِينَ بِإِحساسِهِمْ أَنَّهُمْ مَوْضِعُ سَرِّ السَّيِّدِ رَئِيسِ الْمَخْفَرِ. شَيْءٌ رَهِيبٌ! بَعْضُ الْأَفْكَارِ مَطْوَاعٌ كَلَابِ الْحَضْنِ، وَبَعْضُهَا عَنِيدٌ يَرْهَقُ الْذَّهَنَ كَأَنَّهُ الْعَفَارِيَّتِ. فَكَرْهَةُ الْقَدْمِ هَذِهِ هِيَ مِنَ الْآخِيرَةِ. يَحْسَنُ الْمَرْءُ بِالْقُلُقِ إِذَا تَرَكَ الْخَيَالَ يَدُورُ حَوْلَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ. نَحْنُ نَنْظَرُ إِلَى رَجَالِ الْشَّرْطَةِ بِخُوفٍ، لَأَنَّ رَجَالَ الشَّرْطَةِ لَيْسُوا الْبَابَا وَيُمْكِنُهُمْ أَنْ يَخْطُنُوا كَمَا يَخْطُنُ الْنَّاسَ كَافَةً، وَفِي ذَلِكَ يَكُونُ هَلَاكُنَا. فَيَجْعَلُونَا نَمِيلَ أَمَامَ رَئِيسِ الْمَخْفَرِ، وَرَئِيسِ الْمَخْفَرِ لَيْسَ هُوَ الْآخِرُ مَعْصُومًا، وَعَلَى الْأَرجُحِ يَنْتَهِي بِنَا الْمَطَافُ إِلَى الْغَوِيَانَا... وَفِي الْغَوِيَانَا يَنْتَشِرُ وِبَاءُ الْمَلَارِيَا فِي كُلِّ رَكْنٍ... مَثُلاً يَحْظُرُ عَلَى الشَّرْطَةِ وَجَدَانِيَا أَنْ يَطْلُبُوا قِبْسَةً مِنْ نَارٍ مِنَ الْمَارَةِ فِي الشَّارِعِ، لَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنْ قُلُوبَنَا سَتَضْطَرِبُ فِي صُدُورِنَا. يَحْظُرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَجَدَانِيَا، لَكِنَّهُمْ قَلَّمَا يَأْبَهُونَ بِهَذَا الْحَظْرِ: يَقُولُونَ إِنَّ ذَلِكَ غَيْرَ مَكْتُوبٍ فِي الْلَوَاحِ، وَبِمَا أَنَّهُ غَيْرَ مَكْتُوبٍ...

أَسْوَأُ الشَّرُورِ الَّتِي قدْ تَصادِفُ الْمَرْءَ أَنْ تَسَاوِرَهُ الْفَنَاعَةُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِأَنَّهُ صَارَ عَاجِزًا. إِذَا افْتَنَعَ بِالْقَضِيَّةِ فَجَاءَ، فَلَا خَطَرَ فِي ذَلِكَ: فَسُوفَ يَنْسَاهَا أَيْضًا فَجَاءَ صَبَاحَ

اليوم التالي. إنما السوء أن يتسرّب إليه الاقتتاع ببطء وبكل حرص لأنّه لن يجد حينئذ من ينزع هذه الفكرة من رأسه، ولسوف يصاب بالهزال بمرور الوقت، ويفقد حرمة وجهه ويعاني من الأرق، وهو المرض الذي يسمّ أبدان مجرمي أكثر من أي شيء آخر؛ وفي ذلك هلاكه الأبدي...

خواكين بونوم كان يريد أن يهدّد هذه الأفكار، بالأحرى كان يريد أن يهدّدها أحياناً، لأنّه في أحياناً آخر كان يتسلّي بالنظر إلى ساقه الخشبية، وكأنّ ذلك أمر مسلّ جداً، ويلمسها بعد ذلك بحنان، أو يحفر حرفياً اسمه الأولين J,B متعانقين ملتفين حول بعضهما.

-أعجّب برجل دون ساقين، يظلّ مع ذلك، رجلاً!

كان يقول دائمًا وكأنّما يريد أن يرى ذلك بوضوح أكبر، ثم كان يفكّر:

-هاهو فرميin بساقيه كلتيهما، فماذا يعني؟

لم يشعر خواكين قطّ بودّ نحو الممثّل. كان يجده -كما يقول- قليل الرجالية حتى يكون رجلاً، ونحيلًا جداً حتى يكون امرأة. وإذا ماجاء تولوز كان يعامله بجفاء بل ربما بشيء من القسوة أحياناً، وإن كان يجلبه دائمًا إلى بيته في شارع بلانشار. وكان فرميin إذا أغلظ له صهره القول، بدت عليه علامات الخوف، وكان ييلع ما يشاء أن يقول له. أما أخته منتشو فكانت تقول له عادة إن عينها قلت بمعجزة، وإنها لات肯 لأخيها سوءاً. بل على العكس من ذلك كانت تعامله بحفاوة، وكانت تهرع كل ليلة لتأمله من عند منضدتها وقت مجئه من العمل في المدينة إن كان يعمل. وكانت تتبااهي أمام جاراتها بفنّ أخيها. وعلى المائدة كانت تقدم له بكل حنان صحواناً كبيرة من الفطر الذي كان معجبًا به أيمًا إعجاب.

-أرأيت، ياسيدة، الدور الذي قام به في مسرحية راكيل؟ أرأيت دوره في بولوا؟ أرأيت دوره في مستغبيت؟ أرأيت مقامه في مسرحية آرخنتينا؟

والجارات لم تكن رأين قط شيئاً من هذا. وأصبح بهنَّ من جارات!

وكنَّ ينظرن إليها ذاهلات بل حاسدات وكان يبدو عليهم أنهنَّ يفكّرن كال التالي:

-ما أحسن أن يكون للواحدة أخ فنان!

ثم يعترفن بعد ذلك خجلى على شكل حميم:

رأول ما هو إلا إطفائي!... ببير هو مجرد عامل في محل السيد لافينستر... إترين قضى حياته وهو يداعب بمحسنة معدنية أكفال جياد دالاتا.. آه، أخ فنان....!

وكن يبتسمن حالمات، وهن يتخيلن رأول مؤدياً بالرقص دور المايسترو بدرور؛ أو ببير وهو يدور كالإعصار في باليه بتروشكا؛ أو إترين سانرا على رؤوس أصابع قدميه كأنه تمّ محضر... بعدها لهم ولتفاهتهم! وكانت الجارات تجيب أحياناً خشية يوصمن بالجهل، أن نعم شاهدن فرمين، /غارسون باسك كما كان/ يسمى في لوحات الإعلان -وفي ذلك ضياعهن، إذ تحاصرهن منتشو بأسئلتها، وتحاصرهن بظنوها، ولا تكف حتى تراهن خانعات، مقتعات، مستسلمات إعجاباً بفن أخيها.

خواكين على العكس منها، مكان يحس بود كبير نحو غارسون باسك. ولطالما قال لأخته إن عهد إيواء الممثل في سقيفتهن في شارع بلانشار قد انتهى وانقضى.

-بيتي فقير -كان يقول- لكنه شريف. وجلب أخيك للنوم في البيت يستدعي كثيراً من الكلام. لا تنسى ذلك.

وكانت منتشو تلّج في تعنتها وتؤكد أن الناس لا يهمهم أمر الجار في شيء؛ وتلّح على أنها لاترى أدنى سوء في مجيء أخي للنوم في بيت أخته، وتخصل إلى الصياغ بطريقة غير ملائمة، إن البيت كبير ويتوفر فيه مكان فائق لفرمدين. وهذا كذب. لأن الحجرة ضيقة جداً، لكن منتشو ما كانت تستجيب لحكم العقل، وما كانت تأبه بحجج زوجها الذي كان يبدي صبراً يفوق صبر القديسين. ومن يدرى إن كان إلحادها هذا إشفاقاً على أخيها أم لسبب آخر.

في الواقع، لا توجد حجرة واحدة في شارع بلانشار ذات اتساع كاف لإيواء شخص غريب. كان شارعاً قصيراً مزدحماً، ضيقاً ووسحاً، ويعلو البيوت على الرصيفين هذا الزنجار الذي تضفيه وحدها السنون، والدم المراق تضفيه على الوجهات. كان البيت الذي يقطن في سقيفته خواكين بونوم وزوجه، يحمل الرقم 17 مرسوماً أحمر على مصراع الباب، وفيه ثلاثة طوابق موزعة بين يسار ويمين، وملحق نصفه مخصص للعش ونصف الآخر يقى الزوجين المتعارفين،

من عوامل الطقس. في الجانب الأيسر من الطابق الأول. يقطن السيد ليبينار موظف البريد المتقاعد وبناته الإحدى عشرة اللاتي لا يتزوجن ولا يدخلن الدير ليصبحن راهبات ولا يهربن مع أحد، ولا يعملن عملاً نافعاً. وفي الجانب الأيمن منه، السيد دوران وهو رجل سمين جداً وغامض ودون مهنة معروفة، ومدموازيل إيفيت التي كانت تتبعه دماً وتبتسم للجيران على الدرج؛ وفي الجانب الأيسر من الطابق الثاني يعيش السيد فرواتان محاطاً بالقطط والببغاءات، والتي من يدرى ولا يدري من أين جاء بها؛ وفي الجانب الأيمن السيد غاستون أوليف -ليفي الذي له رanche الكريهة، ويتجاهر بكل ما يمكنه التجارة به، ويعمل الله إن كان يتاجر أيضاً بما لا تتمكن التجارة به؛ وفي الجانب الأيسر من الطابق الثالث، السيد جان لوبيث أستاذ البيانو؛ وفي الجانب الأيمن من ذات الطابق، مدام بير جراك - مون سورى ذات العطاء الدائم، والحديث الدائم عن زوجها الذي كان حسب زعمها مقدماً في سلاح المدفعية، وتشكو الزمن دائمًا وقسوة الحياة ومتسرقة الخادمات منها.... وأخيراً، كان يعيش في الملحق -كما قلنا- منشـو وخواكين سينا التوافق في حجرتها العارية، طابخين في مطبخ صغير على النشارـة التي تطلق دخاناً كثيفاً يلهب العيون. بـاب الحجرة منخفض الارتفاع بل هو أخفض من قامة رـجل، ولا بد لـمن يدخل الحجرة من أن يـحنـي رأسـه قـليـلاً. وكان خواكـين بـونـوم يـقومـ بـسبـبـ عـرـجـهـ بـأـنـحـاءـ جـدـ ظـرـيفـةـ عـنـ الدـخـولـ، وكان يـبعـثـ عـلـىـ الضـحـكـ روـيـتهـ يـفـعـلـ ذـلـكـ. إـذـاـ دـخـلـ، كـمـ نـعـمـ، أـطـبـقـ الـبـابـ وـرـاءـهـ.

-أـلـدـيـنـاـ شـيـءـ؟

-لـاشـيـءـ لـدـيـنـاـ.

خواكـينـ الرـجـلـ الذـيـ عـمـلـ لـمـ كـانـ يـتـمـعـ بـسـاقـينـ مـنـ لـحـ وـعـظـمـ فـيـ مـجـالـاتـ شـتـىـ، كـانـ يـجـدـ نـفـسـهـ الـيـوـمـ لـمـ صـارـ بـسـاقـ وـاحـدـةـ مـنـ لـحـ وـعـظـمـ، وـأـمـسـىـ بـأـمـسـ الحاجـةـ إـلـىـ السـاقـ الـأـخـرـىـ، دونـ عـمـلـ مـاـ وـعـلـىـ شـفـاـ أـنـ يـرـمـىـ بـهـ وـبـأـغـراضـهـ القـلـيلـةـ وـبـزـوـجـهـ إـلـىـ الشـارـعـ فـيـ يـوـمـ هـوـ أـقـلـ الـأـيـامـ تـوقـعـاـلـهـ.

كان يـخـرـجـ كـلـ يـوـمـ بـحـثـاـ عـنـ عـمـلـ. لكنـ دونـ جـدـوىـ. العـمـلـ الـوـحـيدـ الذـيـ عـثـرـ عـلـيـهـ مـنـذـ خـمـسـةـ وـعـشـرـينـ يـوـمـاـ كـانـ بـنـقلـ بـعـضـ الـكـتـبـ فـيـ مـحـلـ بـرـتـلـومـيـ للـتـجـارـةـ بـالـمـوـادـ الـمـسـتـعـمـلـةـ. وـلـمـ يـلـبـثـ فـيـهـ سـوـىـ ثـمـانـ وـأـرـبعـينـ سـاعـةـ لـأـنـ صـاحـبـ الـمـحـاطـ دـائـمـاـ بـالـثـيـابـ الـتـيـ لـمـ يـبـدـلـهـ فـيـ حـيـاتـهـ كـلـهـاـ، لـمـ يـشـغـلـ نـفـسـهـ قـطـ بـقـضاـيـاـ

الروح، فضبطة يكتب قصيدة وطرده.

ذلك اليوم، جاء مهزوماً محبطاً كالأيام الآخر، لكنه كان في مزاج أسوأ
وصارت زوجه كما تعلمون - كثلة من الغضب ...

كان رئيس المخفر ضجراً كمحارة.

-في تولوز لا يحدث شيء!

كان يقول وكأنه يتأسف ... وهذا حق، في تولوز مكان يحدث شيء. ماذا
يعني - وبعد ست وثلاثين سنة من الخدمة أن يشغل نفسه، بمحفظة اختلس بزوج
من الدجاج سرق؟

-باء! - كان يقول - لا يوجد حافز ! في تولوز لا يجري شيء!

ثم يستغرقه التفكير منطويًا على نفسه، راسماً زهوراً وعصافير صغيرة على
ورق النشاف ليعمل شيئاً ما.

خارج المخفر، كانت السماء تمطر ببطء وحزن على المدينة. وكان المطر
يضفي على تولوز جواً كجوًّا سهرة على ميت. في المدينة الحزينة تكون الأفكار -
كما هو معلوم - حزينة أيضاً، وتنتهي إلى إرهاق الناس لشدة وطأتها.

أما الحراس فيروح ويحيء على شكل روتيني تحت معاطفهم المشمعية
السوداء متترسين وراء شواربهم العريضة حيث تركت قطرات المطر الناعمة
كريات شفافة مرتعشة. أتى عليهم زمن لم يكن يقول لهم رئيسهم ضاحكاً:

-هذا واضح، يا شبان، هذا واضح

وهم العجائز كالقوارب، الفضوليون كالخدمات أسوأ منطفين تقريباً حتى
دون تلك الكلمات.

في المبنى ذي الرقم 17 في شارع بلانشار الكائن على بعد ناصيتي شارعين
من المخفر - والعالم منديل - كان خواكين بونوم ذو الساق الخشبية، والرجل الذي
طالما عمل في أشياء شتى خلال حياته، وهو الآن دون عمل، يتجادل وزوجه
منتشو أغراً ثابالا التي كانت جد فظة، وذات قبعة مهترنة وعين من زجاج. وكان
فرميين أغراً ثابالا ينظر إليهما يختصمان واضعاً لفافته الشرقية بين أصابعه.

-أنت تحس بربع من العمل، وأعلم ذلك. لذلك لا تجد شغلاً
وكان خواكين يتحمل هبوب العاصفة على خير ما يطيق. وكانت زوجة تلچ
في لومه مرة أخرى.

-وإذا وجدته لاتظل فيه يومين. أفي مثل سنك وبوضعك يضيّبك أصحاب
المحل تكتب شعراً ويطردك من العمل كما يطرد الطلاب!

كان خواكين يلوذ بالصمت قاعدةً ومنهجاً. فما كان يقول شيئاً قط بل كان يسكت كالآخرين. وإذا ضجر من السكوت، كان يستند إلى كرسبيين ويلجأ إلى الركل بالقدم. وكان يسدد إلى زوجه الركلة بدقة وفي وقت ملائم. فيأخذ صوتها يهمد شيئاً فشيئاً إلى أن تتصرف مز مجرة في السر، باكية في أي ركن تجده.

وَفَكَرْ فِرْمَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي أَنْ يَتَدَخُّلُ، رَبِّما لِيَتَجَنَّبَ أَنْ يَلْجَأْ صَهْرَهُ إِلَى الرَّكَلِ، لَكِنَّهُ قَرَّ عَزْمَهُ عَلَى عَدَمِ التَّدَخُّلِ. وَقَدْ يَكُونُ بِذَلِكَ أَكْثَرُ حَكْمَةً.

أما أخته فكانت ماتزال ترغي وتزبد، ولم يكن خواكين بدأ بعد. وكانت هي مثاره كالوحش؛ وكانت قطيرة الماء الصفراء والدبة التي ترشح من عينها الزجاجية وكأنها تقطر من العين الحية التي فقدتها في بوردو أثناء موجة الکريپ، تبدو بلون زهري، ومن يدری إن كانت اصطبغت بقطرة دم!... وأخذت منتشرة تثور شيئاً فشيئاً وقد احمر وجهها من الغضب مطلقة ألسنة لهب من الحنق، ألسنة لهب لم يستطع إخمادها المطر الذي يتتساقط نافراً الزجاج بلطف، ذلك المطر الذي كان يهطل ببطء وحزن على المدينة.

كان فرمين يجلس على الصندوق خائفًا، ويرى تطور المشهد دون أن يقرر - بالنظر إلى مظهر منتشو - أن يتدخل. كان مرتاحًا شاحبًا فزاعًا، وكان يؤثر ذلك الوقت لو خسر كل شيء على أن يكون موجودًا في البيت. والله وحده يعلم إن كان المسكين يخمن ماسوف يحدث، يخمن ماسوف يصنع به بعد ذلك! وما كان أبعد السيد رئيس المخفر في ذلك الوقت عما سيظهر خلال دقائق معدودات من أمر خطير كف عن الظهور في تولوز! أمر طالما عنى رئيس المخفر بأن يحدث! على الأرجح هو الآن يشرب الجمعة، أو يلعب الشطرنج، أو يتحدث في السياسة والسيد الدكتور سان روسيالي. ولعله ما كان يتوقع، بعد ستة وثلاثين عاماً من الخدمة أن يحدث حادث جديء به في تولوز حيث ما كان يحدث شيء، ولا يوجد

حافظ ما إلى العمل.

كان خواكين قد تحمل فوق طاقته، فنهض وسار بخطا ذئب جريح تبعث على الذعر رؤيته. قرَّب كرسيين من بعضهما ليستند إليهما وتارجح: ثاث! وأطلق الركلة على زوجه. كانت مسألة ثانية واحدة: منتشو لاذت بالحانط لتجنب الرفسة... ونجم عن ذلك أن دخل كلاب في عينها الزجاجية. من يدري! ربما كله اخترق حنجرتها لو أصيَّت به.

وعلم أن خواكين ذعر مما حل بزوجه، وانزلق عن المقعد وزلت قدمه فسقط على ظهره ودقَّ عنقه.

كان غارسون باسك يجري من هذا الجانب إلى ذلك الجانب فريسة الذعر، ولما وجد الباب هبط الدرج مسرعاً كروح يحملها الشيطان؛ ولما مر أمام الطابق الأول، ابتسمت له إيفيت بصوتها الرنان:

-إلى اللقاء، غارسون باسك!

وعند عبوره البوابة حيثه بصوت واحد بنتا السيد ليبيان الصغيريان اللتان لا تنتزوجان ولا تصبحان راهبيتين، ولا تهربان مع أحد، ولا تعملان شيئاً نافعاً.

-إلى اللقاء، غارسون باسك!

وكان غارسون باسك يركض لاهثاً دون أن يدرِّي لماذا، ولا إلى أين، ودون اتجاه محدد. وكان المطر مايزال يسقط لما أوْفَقَتْ الشرطة، هؤلاء الشرطة الذين ليسوا البابا، ويمكن لهم أن يخطُّوا كما يخطُّ الناس جميعاً... ظهرت صحيفة بوست ديتولوز تلك الليلة بعنوان مثير، وكان البائعون يصيِّحُون حتى أخذتهم الجهة:

-جريمة شارع بلانشار الغامضة!

أما السيد رئيس المخفر الذي ليس هو الآخر البابا، وقد يخطئ أيضاً مثلاً يخطئ الناس كافة، فكان يبتسم.

-جريمة شارع بلانشار الغامضة! ياه! -كان يضيف- تباً لهؤلاء الصحفيين!

وكان الحرس مبهجين يشعون فرحاً فقد قال لهم رئيس المخفر مرة أخرى:

-هذا واضح، يا شبان، هذا واضح! الويل لهؤلاء الممثليين! سأحبسهم جميعاً

كاجراء احترازي كيلا تحدث هذه الأمور مرة أخرى.

الغويانا موبوءة بالبعوض الذي ينقل الملاريا. ولم يستطع غارسون باسمك التكيف.

وكان يرقب، وهو جالس على صندوقه، الساعات تمر والأيام والأسابيع والشهور ... لكنه لم يظفر برؤيه سنة واحدة تمر ...

□□□

الحبل

(قصة قصيرة)

الكاتبة الأمريكية: كاثرين آن بودرو

قد: إيماد حسن جبير

بعد انتقالهم للريف بثلاثة أيام، أتى من القرية حاملاً سلة المشتريات ولفة حبل بطول أربع وعشرين ياردة، خرجت هي لمقاتلته تمسح يدها بثوبها الواق. وقد تشعث شعرها، وأصبح أنفها قرمزاً بتأثير الشمس. فيما التصدق قميصه الرمادي بجسمه واغبر حذاءه الثقيل. كان قد أخبرها أنها تشبه النساء الريفيات، وأكدت هي أنه يشبه شخصية الريفي في المسرحيات.

كانت تنتظر القهوة طوال النهار، لأنهما نسياً أن يوصياً عليها من المتجر في يومهما الأول هنا. هل جلب القهوة؟

يا الله، كلا، لم يجلبها، يارب، عليه أن يرجع حتى وإن قتله ذلك. فكر قليلاً، وإن كان قد جلب بقية الأشياء كلها. ذكرته أن سبب نسيانه القهوة كونه لايتناولها -فلو كان يتناول القهوة لتذكرها بسرعة- لنفترض إن السكان نفذت عندهم؟ أكان سينسى أن يجلب السكان؟ ثم رأت الحبل. لم جلب هذا الحبل؟ حسناً، ربما فكر أنه سيكون مفيداً لنشر الملابس أو أي شيء آخر، وبالطبع فقد سألته، إن كانوا سيفتحون مصيغة ملابس، فقد كان لديهم حبل بطول خمسين قدماً معلقاً أمام عينيه؟ لماذا لم يلاحظ ذلك؟ فقد كان الحبل يبدو كلطخة دم بخوخ ذلك المنظر الريفي الرائع.

اعتقد هو أن هناك الكثير من الأشياء التي يكون الحبل نافعاً فيها. وأرادت

هي أن تعرف ماهي هذه الأشياء، في الحال فكر لعدة دقائق، لكنه لم يجد شيئاً يكون الجبل نافعاً فيه - بإمكانهما الانتظار لمعرفة ذلك، ألا يستطيعون الانتظار؟ فالمرء يحتاج إلى الكثير من الأشياء الغريبة لتساعده على العيش في الريف - قالت "نعم ذلك صحيح ولكن ليس في هذا الوقت الذي يحسب فيه حساب البنس الواحد، وشراء حبل آخر يجعل الأمر سخيفاً للغاية". هذا هو كل ما في الأمر لم تعن بكلامها أي شيء آخر. لقد رأت للتو، وليس منذ البداية، لماذا شعر أن شراء الجبل ضروري.

هدر غاضباً. حسناً. لقد اشتراه لأنه أراد أن يشتريه وهذا هو كل مافي الأمر، واعتقدت أن هذا سبب كاف. وتساءلت، لماذا لم يقل ذلك منذ البداية. بدون شك فإن أربع وعشرين ياردة من الجبال ستكون مفيدة، أربع وعشرون ياردة. لقد كانت هناك مئات الأشياء التي لا تستطيع تذكرها الآن والتي ستكون نافعة، وبالطبع كما قال هو "كل الأشياء مفيدة في الريف".

أصيبيت بخيبة أمل لعدم جلبه القهوة، وأوه، انظر، انظر إلى البيض! أوه يا إلهي، إنها تسيل جميماً! ماذا وضع فوقها؟ ألا يعلم أن البيض يجب ألا يعصر؟ لقد عصر البيض، من الذي عصره؟ أراد أن يعرف، ما أسفه من قول، فقد جلبها في السلة مع بقية الحاجات، فإذا ماتكسر البيض فذلك ذنب البقال، فقد كان عليه أن لا يضع الأشياء الثقيلة فوق البيض. اعتقدت أن سبب تكسر البيض هو الجبل، إنه أثقل شيء في الرزمة، لقد رأته بوضوح عندما جاء من الطريق. إن الجبل حمولة ثقيلة حتى وإن وضع فوق أي شيء آخر. وتمنى أن يشهد كل العالم إن ماتقوله ليست هي الحقيقة. فقد حمل الجبل بيد والسلة باليد الأخرى. مافائدة عينيها إذا كانتا لاتريان؟ حسناً، على أية حال، فإن بإمكانها أن ترى شيئاً واحداً بوضوح. لا بيض للفطور، وأن عليهم قليها الآن للعشاء، إنه أمر سيء جداً. لقد خططت أن تطهو اللحم للعشاء، ولا يوجد ثلج لديهم، فلا يمكن حفظ اللحم. أراد أن يعرف لماذا لا تقوم هي بتكسير البيض وتضعه في قدر في مكان بارد.

مكان بارد! لو كان بإمكانه فقط أن يدلها على مكان بارد، فإنها ستحفظ البيض هناك بكل سرور. وفكر لو أنهما طبخا البيض واللحم في نفس الوقت وسيكون بإمكانهما تدفئة اللحم في الغد. وخنقتها الفكرة لحم يعاد تسخينه، بينما بإمكانهما أن يتناولاه طازجاً - وال الخيار الثاني أن تتناول أشياء أخرى بدلاً من

الحمد! ذلك كتفيها قليلاً، إن الأمر لا يستحق هذا كله، ياعزيزتي، أيستحق؟ في بعض الأحيان عندما يلهوان فإنه بذلك ظهرها وهي تتمطى وتموء كقطعة، ولكن في هذه المرة فإنها تنهدت بازدراة وأظهرت مخالفتها! - كان تيهياً لأن يقول أنهم سيتدبرون الأمر بطريقة ما، عندما استدارت إليه وقالت أنه إذا ما أخبرها بأنهما سيتدبران الأمر بطريقة ما فإنها ستصنفه على وجهه.

ابتلع كلماتها وهو يتوجه غضباً، واحتفل وجهه غيظاً، التقط الحبل وشرع بوضعه على الرف العلوي. لكنها ما كانت لتضعه هناك، فالرف العلوي خاص بالجرار والعلب، ولن يجعل الفوضى تسوده بهذا الحبل - الطويل - لعد حلت من الفوضى التي كانت تحملها في شقتها في المدينة، فعلى الأقل توجد هنا مسافة كافية، كما أنها تريد أن تكون أشياءها مرتبة.

حسناً، أراد أن يعرف في تلك الحالة ماذا تفعل المطرقة والمسامير على الرف نفسه؟ ولماذا وضعتهم هنا وهي تعلم جيداً أنه يحتاج تلك المطرقة وتلك المسامير ليصلاح إطار النافذة في الطابق العلوي؟ ولكنها قامت بكل بساطة بتأخير كل الأعمال في المكان بعاداتها الجنونية في تغيير وإخفاء الأشياء هنا وهناك. لقد كانت متأكدة عندما طلبت إذنه في ذلك. ولو كان لديها أدنى سبب لتصدق أنه كان سيقوم بإصلاح إطار النافذة في هذا الصيف وكانت قد تركت المطرقة والمسامير حيث تركهما في وسط غرفة النوم حيث يمكن أن يدوسا عليها في الظلام. والآن فإن لم يقم هو بتنظيف كل هذه الفوضى التي سببها فإنها ستقوم باليقء كل شيء في البئر.

أوه، حسناً، حسناً - هل يضعهما في دورة المياه؟ بالطبع لا، فهناك المكابس وأثنيه جمع الغبار والمطهرات كلها في دورة المياه؟ لماذا لا يستطيع أن يجد مكاناً لحبله خارج مطبخها؟ بحق الله، هل توقف عن ملاحظة وجود سبع غرف في المنزل، ومطبخ واحد فقط؟

أراد هو أن يعرف ماسبب كل مانفعله؟ وهل أنها أدركت بأنها تجعل من نفسها حمقاء كلياً؟ لماذا تزوجته إذن؟ هل تزوجت غبياً عمره ثلاثة سنوات؟ كل المشكلة تتلخص في أنها أرادت شخصاً ما أضعف منها لتحديه وتطغى عليه. ونتمنى على الله أن يكون لديهم طفلين فتفرغ عليهما سلطتها وطغيانها ويرتاح هو.

تمعج وجهها عند سماعها هذا القول. وذكرت بأنه نسي القهوة واشترى حبلاً تافهاً. وقد فكرت هي فعلاً بكل الأشياء التي يحتاجانها لجعل المكان لائقاً للسكن فيه، حسناً بإمكانها البقاء - هذا كل مافي الأمر وبدت هي بائسة جداً تائهة وقانطة، لم يصدق أن سبب المشكلة هو قطعة حبل، ماذا يحدث بحق السماء؟
أوه، رجاءً هل بإمكانه أن يصمت ويذهب عنها، ويبقى بعيداً، ولو لمدة خمس دقائق! بأي طريقة كانت.

نعم، سيذهب بالتأكيد وسيبقى بعيداً إذا مار غبت، يارب، نعم، لا يوجد شيء أحب إليه من الذهاب وعدم العودة أبداً. لم تر طيلة حياتها ما الذي يبقى، إذن، إنه وقت التبجح، لقد استقرت هنا، بعيداً عن السكة الحديدية بأميال عديدة، وبين يديها بيت شبه فارغ، ولا تملك بنساً واحداً، ولديها الكثير من الأعمال لتفوّم بها - وبدت أنها اللحظة المناسبة التي أتاحتها الله له لكي يتخلّى عنها، وكانت مندهشة كيف أنه لم يبق في المدينة لحين إكمالها كل الأشياء، أليست هذه حيلته المعادة؟

وتوضح له أن الأمر قد تجاوز حده، إنه الشيء المحظوظ مناقشه، وإذا ماسحت له بالكلام، لماذا بحق الجحيم بقي في المدينة الصيف الماضي؟ طبعاً ليعمل العديد من الأعمال الإضافية لجمع النقود التي يرسلها لها. هذا هو كل ما في الأمر، وهي تعلم جيداً بأنهما لن يستطيعا النجاح بطريقة أخرى، وقد وافقت هي على مساعدته في ذلك الوقت، وهي المرة الوحيدة التي تركها تفعل شيئاً بنفسها. أوه، بإمكانه إخبار جدته بذلك، فقد كان لها انتباع شخصي عن الذي أباه في المدينة. وفي الحقيقة فإنه أكثر من انتباع، إذا أراد أن يعرف، إذن، هل ت يريد إثارة كل ذلك الآن، هل تريد هي ذلك؟ حسناً بإمكانها أن تفكّر بالطريقة التي ترضيها، فقد تعب هو من الشرح والتوضيح، ربما يبدو الأمر مضحكاً، ولكنه بقى هناك... هكذا، ببساطة. ماذا كان بإمكانه أن يفعل. فقد بدا مستحيلاً أن تأخذ هي الأمر على محمل الجد، نعم، نعم، فهي تعرف كيف يتصرف الرجل عندما يكون لوحده لحقيقة واحدة. فمن المؤكد أن امرأة ماستخطفه وبالطبع فإنه لا يستطيع أن يجرح مشاعرها! حسناً، ما هو الأمر الذي يجعلها مهتاجة هكذا؟

هل نسيت هي عندما أخبرته أن الأربعين اللذان أمضتهما لوحدها في الريف كانوا أسعد أربعين رأتهما خلال أربع سنوات؟ وكم مضى على زواجهما عندما قالت ذلك؟ حسناً، سأخرس! لو كانت لاتعتقد ذلك لما ظل ذلك في داخله.

لم تكن تعتقد أنها كانت سعيدة لأنها كانت بعيدة عنه، بل لأنها جعلت هذا البيت اللعين لطيفاً وجاهزاً له، هذا هو مقصده، وانظر الآن! لقد تذكر شيئاً سبق أن قالته قبل سنة لكي يبرر لنفسه نسيانه جلب القهوة لها وتكسيره البيض وشراءه قطعة حبل رثة لا يمكن تسدید ثمنها. واعتقدت أن الوقت قد حان حقاً لنسيان الموضوع وهي الآن تريد شيئاً فقط من هذا العالم. إنها تريد منه أن يأخذ حباه من تحت أقدامها وأن يذهب للقرية ليجلب لها القهوة. وإذا كان باستطاعته التذكر فعليه أن يجلب قفازات اليد لتسخدمها لمسك المقالة، وحبلين للستائر وكذلك إذا كانت هناك قفازات مطاطية في القرية لأن يديها أصبحتا خشنتين، وقنية من مستحلب المغنيسيوم من الصيدلية.

نظر إلى عصر اليوم بلونه الأزرق الغامق ينشر حرارته على المنحدرات ويمر على جبهته، سعل بقوه وقال، لو أنها تستطيع أن تصير دقيقة على أي شيء تريده، فقد كان راجعاً للقرية، لقد قال أنه سيرجع، ألم يقل ذلك ثم اكتشفا أنه غفل عنها؟.

أوه، نعم، حسناً، أسرع، فهي ستغسل النوافذ، فالريف جميل جداً! وشكّت هي في أنهم يمتلكان دقيقة واحدة ليتمتعوا بها. لقد أراد أن يذهب، ولكنه لا يستطيع، وإن قال ذلك. فلو لم تكن هي مجنونة عديمة الفائدة لرأى أنه سيذهب، وأن هذه الأمور تحدث في الأيام الأولى لانتقالهم للريف فقط. لا تستطيع هي أن تتذكر أي شيء مفرح عن فصول الصيف الأخرى؟ ألم يتمتعوا سابقاً فقط؟ لم تكن تلك الوقت الكافي لتتحدث عن ذلك، والآن ألا يمكنه أن يترك الحبل مرميأ هنا لتنتعثر به، ثم إنه حمله عن المنضدة بطريقة ما، وخرج متّابطاً للحبل.

هل سيذهب هذه الدقيقة؟ بالتأكيد سيذهب، اعتقدت هي ذلك، ففي بعض الأوقات يبدو لها أن لديه وجهة نظر أخرى في اللحظة المناسبة تماماً التي يتركها فيها لوحدها. لقد أرادت أن تنشر الشرائف في الشمس فلو نشرها في هذه اللحظة لاحتاجاً لثلاث ساعات على الأقل، ولا بد أنه سمعها وهي تقول أنها ستنشرها في الخارج. لذلك فمؤكد أنه سيذهب ليتركها تفعل ذلك لوحدها، وافتراضت أنه يعتقد أن قليلاً من التمارين ستفيدها.

حسناً، إنه ذاuber وهو مرتاح ليجلب لها القهوة، فمن السخف السير أربعة أميال من أجل باوندين من القهوة، لكنه مستعد لأداء المهمة تماماً. فالعادة تجعل

منها حطاماً، ولكن إن أرادت أن تجعل من نفسها حطاماً فإنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً.

إذا كان يعتقد أن القهوة هي التي تجعل منها حطاماً، فإنها تهنيه فإنه يملك ضميرأً نقىًّا.

ضمير أو لاضمير، إنه لا يعرف لماذا لا تستطيع الشرائف أن تنتظر حتى الغد، على أية حال هل إنهم سيسكنان المنزل أم سيجعلانه يقتلهم بأعماله؟ وبهت هي عند هذه الجملة، وأصبح وجهها مزرقاً حول فمهما، لقد بدت خطرة للغاية، وذكرته أن أعمال البيت ليست من مسؤوليتها فقط من الآن فصاعداً، وعليه أن يشترك في أعمال البيت أيضاً، فلديها عمل أيضاً وعليها إنجازه فمتهى باعتقاده ستجد هي الوقت الكافي لإنجاز كل هذه الأعمال.

هل ستبدأ من جديد؟ إنها تعلم جيداً كما يعلم هو أن عمله يوم من الدخل الكافي للعائلة أما عملها فعرضي، فلو اعتمد على ماتحصل عليه، لكان عليها أن تترك هذا السؤال إلى الأبد. هذا ليس تفسيراً إيجابياً للسؤال، فالسؤال هو لو أن كل منهما اشتغل في وقته الخاص فهل سيكون هناك توزيع لأعمال المنزل بينهما، أم لا؟ إنها ترید أن تعرف فعلها أن تنظم وقتها. لماذا؟ فقد اعتقد أن كل هذا قد نظم سابقاً. لقد فهم أنه سيساعد في أعمال المنزل فقط. لا يساعدها في الصيف؟ لا يساعدها؟ أوه، لا يساعدها؟ متى وأين وماذا يفعل؟ يارب، يالها من نكتة قوية!.

لقد كانت نكتة قوية فعلاً فقد أصبح وجهها أرجوانياً، وصرخت ضاحكة، لقد ضحكت بقوة جعلتها تضطر للجلوس، وانفجرت الدموع من عينيها وسالت على زوايا فمها، واندفع هو نحوها ورفعها ليجعلها تقف على قدميها وحاول أن يصب الماء على رأسها، قطع الخيط الذي علق به المعرفة إلى الحائط.

وحاول أن ينضح الماء عليها بإحدى يديه فيما كانت الأخرى تمسك بها. تخلى عن محاولة صب الماء وبدلًا من ذلك فقد هزها بقوة.

انتزعت نفسها منه بقوة، وهي تصرخ عليه لكي يأخذ حبله ويذهب إلى الجحيم، لقد ملت منه ولا تريده، وركضت وسمع وقع خفها ذي الكعب العالي يقرفع على الدرج.

خرج من البيت ووصل إلى الممر الخارجي، شعر فجأة بوجود قرحة

صغيرة في كاحله، وشعر كما لو أن النار قد شبّت بقميصه. إن الأشياء تحدث بسرعة والمرء لا يعرف أين أصبح وسطها. كما أنها تستطيع أن تتدفع غاضبة دون سبب، يالها من مزعجة، اللعنة، إنها لا تملك سبباً وجيباً لذلك، وعندما تتحدث معها فكأنك تتحدث مع منخل، خصوصاً في فورة غضبها. اللعنة، لقد أمضى حياته يداري مزاجها! حسناً. ماذا سأفعل الآن. بإمكانه أن يأخذ حبله ويبادله بأي شيء آخر، الأشياء تتراكم، الأشياء تتضخم، حتى أنك لا تستطيع أن تتقاها أو أن تفرّها، أو حتى أن تتخلص منها.

ستظل الأشياء مرمية هنا وهناك حتى تتعرف، بإمكانه إعادة الحبل، اللعنة، ولكن لماذا عليه إعادة ها؟ لقد أراد هذا الحبل. وما تأثير قطعة الحبل على أية حال، قطعة حبل. تصور شخصاً ما يهتم بقطعة حبل أكثر من اهتمامه بمشاعر إنسان. أي حق تمتلكه هي لتنقول كلمة واحدة؟ وتذكر كل الأشياء العديمة الفائدة والعديمة المعنى التي اشتراها لنفسها، لماذا؟ لأنني أريده هذا هو السبب! توقف واختار صخرة كبيرة بجانب الطريق، بإمكانه وضع الحبل خلفها، سيوضعه في صندوق الأدوات عند عودته. لقد سمع الكثير بسببه، الكثير الذي سيظل يتذكرة مدى حياته.

عندما عاد كانت تتکي على صندوق البريد بجانب الممر الخارجي، تنتظر. لقد كان الوقت متاخراً، ورانحة اللحم المشوي تطفو عالياً في الهواء البارد، وبدا وجهها أكثر شباباً ونعومة وحيوية. وقد مشطت شعرها الأسود على جهة واحدة، لوحظ له من على بعد، أسرع هو. نادته أن العشاء جاهز بانتظاره، لا يتضور جوعاً؟ بإمكانها أن تراهن على أنه جائع، وهاهي القهوة، ولوح لها بالقهوة، ونظرت إلى يده الأخرى، ماذا الذي يحمله؟

حسناً، إنه الحبل ثانية، توقف للحظة. لقد أراد أن يبدلها ولكنه نسي. وأرادت هي أن تعرف لماذا عليه أن يبدلها، إذا كان يريد هذا الحبل حقاً. أليس الهواء لطيف الآن، أليس جميلاً أن تكون هنا معاً؟ سارت إلى جانبه وقد علقت إحدى يديها بحزامه الجلدي، وسحبته باتجاهها أثناء سيرها معه وتحككت به، ومالت عليه، ووضع هو ذراعه حول جسدها وربت على بطنها، وتبادلابتسامة فلقة. قهوة، قهوة، للجميلة المدللة! وشعر وكأنه قد جلب لها هدية جميلة.

ياله من محبوب جداً، هذا ما اعتقاده مؤخراً سلو كانت قد تناولت قهوتها في الصباح لما تصرفت بحماقة كانت هناك بعض العصافير تعود، تخيل حتى خارج موسم التزاوج، فهو ينادي وقد جلس على شجرة التفاح البري لوحده، ربما ينتظر فتاته، ربما فعلت ذلك، تمنت أن تسمعه مرة ثانية، لقد أحببت العصافير .. إنه يعرف طباعها، ألا يعرف؟ بالطبع فإنه يعرف طباع زوجته جيداً..

□□□

الأسير

قطة من تأليف داديا رد كييلينغ

(1902)

ترجمة: توفيق الأسد

ولد راديارد كييلينغ ابن جون لوکوود كييلينغ مؤلف "الحيوان والإنسان في الهند" في بومباي في عام (1865). تلقى تعليمه في كلية يونايد سير فيسيز، ويستورد هول وقد انخرط في العمل الصحفي في الهند من عام 1882 إلى عام 1889. وترتكز شهرته جوهريا على قصصه القصيرة التي تعالج موضوع كالهند والبحر والغابة وحيواناتها، والجيش والبحرية، وعددًا كبيرًا من المواضيع الأخرى. أما شعره المتنوع من حيث الموضوع كما هو نثره فقد تمنع أيضًا بشعبية كبيرة. ومن بين منشوراته الأكثر شعبية "حكاية بسيطة من الجبال"، (1888)، و"عمق مدى الحياة"، (1891)، وأغاني غرفة البراءة، (1892)، وكيم، (1901).

نال كييلينغ جائزة نوبل للأدب في عام (1907)، وتوفي في عام (1936).

"من يؤمن لن يسرع" - إشعيا.

قبع زورق الحراسة عبر مدخل المسبح وراح أفراد طاقمه يصفعون الماء بكل سلاسة. جلس جندي من الميليشيا بمعطف أحمر، وبن دقته في يده، عند مقدم الزورق كما جلس ضابط صاف عند مؤخره. بين مركب المؤن ثلجي البيلاض والصخور، مسطحة الرأس عسلية اللون على الشاطئ راح أسرى حرب بأجساد لها لون قرنفل كالقرنيدس ويستحمون معكرين المياه الخضراء. خلف مخيهم

الصفيحي المنتظم وأعمدة الإنارة الكهربائية ببروزت تلك الدعامات المبقعة بالحجارة التي ترمي بالحرارة على سايمونزتاون. إلى الأسفل من ذلك كانت السفينة الصغيرة "باراكوتا" تومى إلى [سفينة]، "جبل طارق"، الضخمة و[سفينة]، "بينيلوبه". العجوز التي كانت خلال عشر سنوات نادياً للعزاب ومتحفاً للتاريخ الطبيعي وروضة أطفال وسجناً، متذكرة ومثبتة بحبال مرساتها. إلى بعيد كانت ناقلة أطلسية ذات مداخن ثلاثة لها مقدم ضيق ومؤخر ينهاى من البحر العميق.

قال الخفير الواثق من حسن نية الزائر: "تحدث إليهم. تستطيع التحدث إلى أي واحد منهم يتكلم الإنكليزية. ستجد الكثريين منهم يتكلمونها".

بين هنا وهناك كانت مجموعة جدية تتجمع من حول قساوسة الكنيسة البروتستانتية الهولندية الذين كانوا يعظون دون شك حول الوفاق، إلا أن الأكثريّة فضلت الاستحمام. لقد جعل "الرب" الذي يهتم بالأشياء الصغيرة، الزائر في ذلك اليوم يتلقى بريداً متأخراً منذ أسبوعين في طرد واحد من ساعي بريد عرضي، وكانت الرزمة الثقيلة كلها من الصحف المربوطة بشريط ومدلاة من يده كالطعم. عند حافة الشاطئ جلس رجل بني الشعر نحيل بساقين متضالبتين عاريأ إلا من قميصه السماوي اللون يحرس ذرية من أكمام الملابس. راحت عيناه تلاحقان السفينة الأطلسية القادمة.

قال دون أن يلتفت (وكشفت لهجته جنسيته): "عذرأ أيها السيد. هل لك أن تبتعد عن هذه الملابس؟ لقد انتخبت حاجباً بالاقتراع الهولندي".

انتقل الزائر مقابل حاجز الأسلام الشائكة وجلس ليقرأ بريده.. ولدى سماعه حفيظ أغلفة الصحف التفت الرجل ببني الشعر بسرعة، وقد بدا في عينيه الرماديتين الحديديتين المتقاربتيں جوع المحروم من الصحافة.

قال الزائر: "هل لك حاجة إلى الصحف؟".

"هل لي حاجة؟"، كانت سبابة سريعة ملتوية قد سبق لها وراحت تبعث بالأغلفة الخارجية. "عجبأ! هذه سمة بريد نيويورك! أعطني الإعلانات في آخر صفحة من "هاربرز" وـ"كلورز"، وساكون على صلة بلد الرب مجدداً! هل تعرف كم كنت توافق إلى صحف؟.."

روى الزائر حكاية ساعي البريد العرضي.

قال ذو الشعر البنى المتحمس ككلب الصيد فى إنجاز مهمته: "عنابة إلهيّة! من حيث الوقت والموضوع. أجل!... "المجلة العلمية الأمريكية"، مرة أخرى! أوه، هذا جيد! هذا جيداً!"، انهار صوته وهو يضغط بأنفه الأشبه بمنقار الصقر على موصفات براءة الاختراع المطبوعة بحبر داكن". هل أستطيع الاحتفاظ بها؟ شكرًا — شكرًا! عجباً، عجباً، حسناً، حسناً! "مجلة أمريكان تايلر"، بين كل الأشياء التي خلقت! هل أنت مشترك فيها؟!"

قال الزائر وهو يومئ برأسه: "أنا على اللائحة المجانية".

مدّ يداً مصبوغة بالأزرق وذلك بسماء تلك الرحابة "الشرقية" التي تميز الأمريكي المولد في أمريكا، وصافح يد الزائر بخبرة. "كل ما أستطيع قوله هو أنك عاملتني كأخ (أجل سأخذ كل واحدة تستطيع الاستغناء عنها)، وإذا حدث... راح يمسك بصدر قميصه: "هاه! لقد نسيت أني لا أحمل بطاقة زيارة، ولكن اسمي هو زيفغر — لافتون أو. زيفغر. أمريكي؟ إن كانت أوهايو لا تزال ضمن الاتحاد، فانا أمريكي ياسidi. ولكني لست من المتطرفين المطالبين بحقوق الولايات. لقد استخدمت كل بلدي الأصلي وبضعة بلدان قليلة أخرى حين وجدت الفوضى، والآن أنا أسير قوسكم ورحمكم. لا أعتراض على ذلك. لست أجنبياً مكرهاً، ولا سانس بغال تكساسي، ولا مغامراً على خطة الأقساط. لا أطارد قنصلنا حين يأتي متوقعاً من النسر الأمريكي أن ينشئني بعيداً عن هذا من حزام بنطالى. لا ياسidi! لو دخل بريطاني "المناطق الهندية" [في الولايات المتحدة الأمريكية] وأطلق النار على ما حوله بمسدس كولت آلي (ليس أن هذا أي نوع من السلاح، ولكن أورده كمثال توضيحي)، فسوف يشنق على نحو أسرع، من ذوبان رقاقة ثلج في الجحيم. لن يكون في وسع أي سفير من سفارتكم إنقاذه. أراهن بعنقي على هذه اللعبة على أي حال. هكذا أنظر إلى الاقتراح.

"هل حاربت البريطانيين بمدافعي؟ إلى حد ما. أفترض أنك لم تسمع فقط بمدفع الميدان الآلي عيار بوصتين المعنى "لافتون زيفغر"، ذاك الذي له جهاز تلقيم ذاتي التغذية وارتداد فردي وأسطوانة زيتية ومسننات ذات محامل كروية بالكامل؟ أو هل سمعت بـ"لافتايت"، تلك المتفجرة الجديدة، المتسلقة على نحو مطلق من حيث التأثير والتي لها حجم يعادل تسع حجم أي شحنة عقيمة حالياً — رقائقية، مدفعية، كوردايت 1-، ترويسدورف، سيلولوز، كاكاو، فتيل أو موشور

— لا يهمني ما هو. "لافتايت" متجرة هائلة، وكذلك مدفع زيغлер الآلي. إنه أنا. إنه خمسة عشر عاماً من حياتي. أنتَ خيراً في المدافع؟ آسف كان بإمكانى مفاجأتك. لو لا مدفعي لكان حكايتها غير ذات قيمة. أشكرك، ولكن لا أستخدم أي تبغ قد يكون في حوزتك... "بول دير هام"؟ بول دير هام! أتراجع عن كل ما قلتَه: كل كلمة أخيرة. بول دير هام — هنا! لو حصل وزرت أكرون في أوهايو حين تنتهي حرب الحمقى هذه، فتذكر أن لافتون أو. زيغлер في جيب صدارك. بما فيه مدينة أكرون. لدينا ناد صغير هناك.. ياللجمحيم! مامعنى التحدث عن أكرون دون بنطال؟

"مدفعي؟... لقاء سنتين اثنين كنت سأشحنه إلى الفيلبين خاصتنا. كدت أفعل ذلك تقريراً، ولكن مما قرأتُه في الصحف، لا تستطيع أن تثق بجمهُرة "أغويانالدو"² فيما يخص القضايا العلمية؟ لماذا لا أعرضه على جيشنا؟ حسناً، لديكم أرسنالاطية عاجزة تدير جيشكم، ولدينا حشد من السياسيين. والنتائج متطابقة عملياً. لا أقبل بأي جيش أمريكي ضمن جيشي الخاص.

"ذهبت إلى أمستردام مع مدفعي — إلى تلك الطغمة العسكرية الهولندية التي يفترض أنها تدير الحرب. لم أنشأ على حب البريطانيين من ناحية، ومن ناحية أخرى كنت أعرف أنه لو أن مدفعي كان سيودي عمله الجميل، لكنَّ أكثر حظاً في استلام تقرير غير متحيز من حشد من الضباط البريطانيين الحمقى الملاعين من أن أستلمه من حفنة من أبناء أخوة رجال السياسة الذين يؤدون مهمتهم كمفوضين وخبراء مدفعية. وكما قلت فقد وضعت الرجل الأسمرا خارج المسألة. هكذا نظرت إلى الاقتراح.

"الهولنديون في هولندا لا يساونون صفاً من الدبابيس. ربما أخطأْت في الحكم عليهم. ربما تعرضوا للغش مرات عديدة من قبل مغامرين أثانيين حتى أصبحوا لا يعرفون الشخص المتخمس حين يرونـه. وعلى أي حال فإنهم أبطأ من "غضب الرب". ولكن حول الأوهام المتعلقة بانتصارـهم في يوم الخميس من الأسبوع القادم الساعة 9.00 صباحاً، فإنـهم بريطانيون تماماً إنـكان يحق لي قول ذلك.

"سأحكـي لك شيئاً غريباً أيضاً. لقد حاربـتهم عشرة أيام قبل أن أستطيع تدبيرـ الجانب المالي من لعبـتي حسبـ ما أريدـ. عرفـت أنـهم لم يتقـوا بالـزيـغـلـرـ، ولكنـ لم يكنـ لديـهمـ مـبرـرـ ليـكونـواـ مجـانـينـ بـخـلـاءـ. لقدـ تـدـبـرـتـ الـأـمـرـ: مرـورـ حرـ وـشـحـنـ لـيـ

والمدفع من خليج ديلاخوا وإلى ما وراءه بالباخرة والسكة الحديد. ثم صعدت إلى متن السفينة لأرى المدفع يوضع في صناديق، وهناك صافحت كل الزملاء من الركاب: كلهم طفيليون مثلـي. حسنا يا سيدـي، عدت أدرـاجـي وأمـطـرـتـ مـكتـبـ البطـاقـاتـ بـالـأـسـنـلـةـ،ـ وـقـلـتـ:ـ "ـأـنـظـرـ إـلـىـ هـنـاـ يـاـ فـانـ دـنـكـ.ـ أـدـفـعـ لـقاءـ مـرـوـرـيـ وـلـقاءـ مـكـانـ لـمـدـفـعـ فـيـ عـبـرـ السـفـينـةـ،ـ أـجـلـ لـقاءـ كـلـ قـدـمـ مـرـبـعـ وـمـكـعبـ".ـ أـعـتـقـدـ أـنـهـ خـفـضـ الـأـجـرـ بـنـفـسـهـ.ـ وـلـكـنـ دـفـعـتـ.ـ دـفـعـتـ.ـ لـمـ أـكـنـ لـأـنـطـلـفـ مـعـ ذـلـكـ الحـشـدـ مـنـ نـفـاـيـاتـ عـيـدـ الـعـنـصـرـةـ.ـ كـانـ مـنـ شـأـنـ ذـلـكـ أـنـ يـجـلـبـ الـحـظـ الـعـاـثـرـ لـمـدـفـعـيـ.ـ هـكـذـاـ نـظـرـتـ إـلـىـ الـاقـتراـحـ،ـ لـاـ يـاـ سـيـدـيـ،ـ لـمـ يـكـوـنـواـ رـفـقـةـ طـيـبـةـ.

"ـ حينـ وـصـلـنـاـ بـرـيـتـورـيـاـ عـاـنـيـتـ الـكـثـيرـ مـحاـوـلـاـ أـجـلـ اـهـتـمـامـ الـهـولـنـدـيـنـ إـلـىـ مـدـفـعـيـ وـإـمـكـانـيـاتـهـ.ـ كـانـ كـرـوـغـرـ 3ـ يـتـسـولـ قـلـيلـاـ وـيـسـرـقـ قـلـيلـاـ،ـ وـالـهـولـنـدـيـوـنـ يـغـنـونـ:ـ إـنـ لـمـ يـكـنـ لـدـيـكـ الـمـالـ فـلـاـ حـاجـةـ بـكـ إـلـىـ الـحـضـورـ".ـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ مـنـ يـنـفـقـ درـاهـمـهـ عـلـىـ أـيـ شـيـءـ باـسـتـثـنـاءـ الـبـطـاقـاتـ إـلـىـ أـورـبـاـ.ـ كـنـاـ مـهـمـلـيـنـ نـحـنـ الـاثـيـنـ إـلـىـ حدـ كـبـيرـ.ـ حـيـنـ أـفـكـرـ الـآنـ كـيـفـ اـعـتـدـتـ أـنـ أـقـدـمـ عـرـوـضـاـ فـيـ الشـوـارـعـ الـعـامـةـ بـطـلـقـاتـ زـانـفـةـ،ـ فـأـمـلـأـ جـهاـزـ التـلـقـيمـ وـأـدـيرـ الـمـقـبـضـ حـتـىـ أـتـصـبـبـ عـرـقاـ،ـ وـأـحـمـرـ خـجلـاـ يـاـ سـيـدـيـ.ـ لـقـدـ جـعـلـتـ الـمـدـفـعـ يـعـرـضـ أـفـعـالـهـ الـمـثـيـرـةـ أـمـامـ الـكـفـيـرـيـيـنـ 4ـ،ـ أـوـلـادـ حـامـ الـعـرـاـةــ فـيـ شـارـعـ الـمـفـوضـ،ـ مـحاـوـلـاـ الـحـصـولـ عـلـىـ مـوـضـعـ قـدـمـ فـيـ مـكـانـ مـاـ.

"ـ هلـ تـكـلـمـتـ؟ـ أـحـتـقـرـ الـمـبـالـغـةــ لـيـسـ لـاـ أـمـريـكـيـةـ وـلـاـ عـلـمـيـةــ وـلـكـنـ جـولـةـ تـيـديـ روـزـفـلتـ 5ـ كـانـتـ تـنـهـيـدـةـ فـتـاةـ عـذـراءـ بـالـمـقـارـنـةـ مـعـ عـمـلـيـ فـيـ الدـاعـيـةـ،ـ وـهـذـاـ الـأـمـرـ صـحـيـحـ صـحـةـ جـلوـسـيـ هـنـاـ مـثـلـ سـعـدـانـ الـبـابـوـنـ أـزـرـقـ الـمـؤـخـرـةـ فـيـ وـادـ صـغـيرـ ضـيقـ شـدـيدـ الـانـدـهـارـ.

"ـ بـعـدـ فـتـرةـ طـوـيـلـةـ مـنـ بـدـاـيـةـ الـرـبـيعـ أـنـقـذـنـيـ الـكـوـمـنـدانـ الـمـسـمـىـ فـانـ زـيلـ:ـ رـجـلـ ضـخمـ بـدـيـنـ بـرـجـلـ عـرـجـاءـ.ـ لـوـ اـسـتـثـنـتـ شـعـرـهـ وـمـسـدـسـهـ لـكـانـ حـرـيـاـ بـأـنـ يـكـونـ صـاحـبـ حـانـةـ مـنـ الصـنـفـ الـأـوـلـ فـيـ شـنـكـتـادـيـ 6ـ.ـ لـقـدـ وـجـدـنـيـ وـمـدـفـعـ الـزـيـغـلـرـ عـلـىـ مـرـجـ ذـيـ أـشـجـارـ مـتـائـرـةـ (ـلـمـ تـكـنـ بـرـيـتـورـيـاـ مـأ~مـونـةـ فـيـ ذـلـكـ الـحـينـ)،ـ وـقـدـ الـحـقـنـيـ بـأـسـلـوبـ أـشـبـهـ بـمـنـ يـسـيرـ فـيـ نـوـمـهـ.ـ كـانـ ضـدـ الـحـرـبـ بـقـوـةـ مـنـذـ الـبـداـيـةـ،ـ وـلـكـنـ كـونـهـ هـولـنـدـيـ جـعـلـهـ يـحـارـبـ عـلـىـ نـحـوـ أـفـضـلـ بـكـثـيرـ مـنـ بـقـيـةـ جـمـاعـةـ "ـاـللـهـ وـالـمـاـوزـرـ".ـ أـدـرـيـاـنـ فـانـ زـيلـ.ـ كـانـ هـذـاـ يـنـامـ نـوـمـاـ تـقـيـلـاـ فـيـ النـهـارــ وـلـمـ يـكـنـ يـحـبـ الـزـنـوجـ.ـ أـنـاـ أـحـبـبـتـهـ.ـ كـنـتـ الـأـجـنـبـيـ الـوـحـيدـ بـيـنـ فـدـائـيـيـهـ.ـ أـمـاـ الـبـقـيـةـ فـكـانـوـاـ مـنـ جـورـجـياـ وـبـنـسـ لـفـانـيـاـ

من أصل هولندي، مع محام نشيط من فيلادلفيا. أستطيع أن أحكي لك عنهم أموراً ستدشك، ولكنني أعتقد أن أفكارهم عن الجغرافيا هي الأشد جنوناً. أعتقد أن هذا نوع من التعويض الآلي. لم تكن هناك تلة نمل لعينة في منطقتهم لم يكونوا يعرفونها ويستخدمونها، ولكن العالم كان مسطحاً كما يقولون، وكانت إنكلترا على مسافة يوم من كيب تاون.

"كانوا يقاتلون بطريقتهم الخاصة ولا تنس ذلك. ولكنني أعتقد أنك لن تتسرى. لقد قاتلوا ليقتلوا، وممّا عرفته، فإن البريطانيين قاتلوا ليقتلوا. لذلك أدى الظرفان الخدمة الواحدة للأخر.

"أنا أسير قوسك ورمحك يا سيدي. للمنصب التزاماته: "على كل الجنابين. لا يمكنك أن تكون عدوانياً تجاهي وموالياً لي في آن معاً. لا يمكنني للسبب نفسه أن أكون عدوانياً تجاهك. لذلك، لن أقول لك آرائي حول كيفية تصريفكم لأمور الحرب.

"بعد رحلة دامت ثلاثة أشهر، فإن العجوز فان زيل، كان قد جهز فدائييه جيداً وتفوق على البريطانيين، وقد اعتقد أن عليه أن يزور جنرالاً بريطانياً من معارفه كان يقوم بتجارته ضمن دائرة بين ستومبستون، جاكهالبوت، فريليغان وأودند الشتروم، فيعمل سنة ويرتاح سنة، كان هو من الملائم الدائمة لذلك القطاع.

"يقول فان زيل: إنه رجل طيب جداً وصديق لي. لقد أرسل لي طبيباً جيداً حين جرحت وأراد طبيينا الهولندي أن يبتر سافي. أجل، أعتقد أننا سنبقى معه". وحتى ذلك التاريخ، عشنا أنا وزينغر [مدفعي] في حال من البطالة الحميدة بسبب بقايها صغيرة في نقطة عطالة. كيف كنت سأعرف بحق الرعد أنه لم يكن في البلاد كلها ولا حتى شبح لطريق؟ ولكن الجلد المدبوغ رخيص ويدوم. أعتقد أنني سأجعل مدفعي القادم أتقل بألف باوند على أي حال.

"حسناً يا سيدي، لقد ضربنا الجنرال وهو يسلك طريقه المعتمد – كان ذلك في فريليغان – وافتتح حشتنا التحيات المعتادة من مسافة ألفي يارد. هزَّ فان زيل نفسه في سرجه المشحّم وقال: "والآن سأكون سعيداً تماماً يا سيدي زينغر. لا مزيد من الجر بالثيران. اثنا عشر ميلاً فحسب في اليوم الواحد حتى يتضجر المشمش".

ثم تقدمنا نحو قواطعه الأمامية ورقباته من الحرس والفرسان القوزاق أو مهما تكن تسميتهم، وقد تجلينا من حول المرج ذي الأشجار المنتاثرة وذراعي في ذراعه كأننا أخوان.

والطريقة التي عملنا بها كانت كما يلي: كان الجنرال يتناول إفطاره في الساعة 8.45 صباحاً بالضبط. كان من شأنه أن يكون قطار لونغ آيلند [لشدة دقته]. في الساعة 8.42 صباحاً كنت أهبط إلى عبارة الشارع الثالث والأربعين لمقابلته - أعني كنت أجعل الزيغفلر يتمركز عند النقطة 2000 (كنت بدأت بـ 3000 ولكنها كانت باردة وبعيدة) - ورميت به حمولة جهاز تلقيم كاملين - ثمانية عشرة طلقة - وذلك بالضبط حين كانوا يجلبون له القهوة. لو كان حشده مشغولاً بالاحتفال بالذكرى السنوية لواترلو 8 أو بعيد ميلاد آخر طفل للعائلة المالكة، لكانوا سيردون على بمدفعين (سأحكى لك عن ذلك لاحقاً)، ولكن لو كانوا منسحبين من المعركة، لكانوا ثبتو جميعاً على صهوات جيادهم وراكموا الخردوات والفلكتات والآلات الكاتبة وطعاماً يكفي لخمسة أيام، وخلال نصف ساعة كان من شأنهم أن يطاردوني وبقية فتیان فان زيل. كنا نمكث في أماكننا ونتابع إطلاق النار حتى 11.45 الساعة صباحاً أو منتصف النهار. ثم كنا ننتقل من الكدح إلى تناول وجبة خفيفة، ونعود لاستأنف في الساعة 2.00 بعد الظهر، ونقاتل حتى موعد شرب الشاي.

كان يوم الثلاثاء والجمعة هما يوم التحرك لدى الجنرال. كان يتحرك ببطء مسافة عشرة أميال أو اثنى عشر ميلاً. وكنا نتسكع من حول جناحيه ونجعل أفراسنا تتريض قليلاً، أحياناً كان يعلق في مسيل ما - يتوقف وهو يعبر مكاناً ضيقاً - وكنا نشن عمليات اختطاف عابثة لعرباته. وحين حدث ذلك لأول مرة وجهت الزيغفلر بحرية وبأمال كبيرة ياسيدي، ولكن الرجل العجوز كان في وضع جيد في المؤخرة مع مدفع، وكان على أن أدفعه بثلاثة بغال بدلاً من ستة. كنت مجنونا تماماً. لم أكن أتعلّم إلى أي خبراء خلف المدفعية الملكية البريطانية، وإن اللعب كانت في معظمها عادلة. كان يصرع ثلاثة أو أربعة من فدائيننا بضربة صاعقة وكنا نقتل أربعة أو خمسة من جنوده مرة في الأسبوع أو نحو ذلك. في إحدى المرات، كما أذكر، قبل الغسق بفترة طويلة، رأيناهم يدقون خمسة من فتیانهم. وقفوا محشدين من حول القبور. لم نكن نبعد عنهم مسافة تزيد عن

ألف وخمسمائة ياردة، ولكن فان زيل العجوز رفض إطلاق النار. رفع قبعته في الوقت الملائم. قال لو قتلت إنساناً وهو يصلني فسيكون عليك أن تحمل حظه السيء لتواجه به "العرش" وحظك السيء أيضاً. وهكذا مرت الأسابيع بالتسكع. إن خبيراً حربياً كان من شأنه أن يحكم عليها بأنها حرب لطيفة، ولكنها كانت ملائمة لمخترع شأن لاقفون أو. زينغلر يحتاج إلى تدريب في يوم وسلام في اليوم التالي ليدقق في نظرياته.

"إنها حرب ودية؟ ليست الودية بالكلمة الملائمة. كنا رفاق سلاح.

"عجبًا، كنت أعرف مدفوعي "المدفعية البريطانية الملكية"، كما أعرف الشارع الخامس. كان يمكنهما أن يكونا أخوين أيضًا.

"كانا يرتجان خلال الإطلاق، ويتهزّ هزان وينزلقان ويسعلن ويتحرّكان إلى الخلف مجددًا خلال ساعات المعركة الدموية حتى كنت أستطيع البكاء ياسيدي، من مشهد الرجال البيض المعاصرين المقيدين إلى تلك الآلات القديمة الحاصلة التي تدار باليد، عتيقة الطراز، المصنوعة من الصوان والفلز. أحدهما — وقد أسميته "الأصلع" — كانت له ندبة بيضاء طويلة على امتداد سبطانته — كنت قد تأكدت منه عشرين مرة. كنت أعرف طاقمه بالنظر، ولكنه كان يخرج متسللاً متربّحاً من غبار قذافي مثل — مثل دجاجة من تحت عربة — ثم كان يسقط في أخدود، ولا تراه إلا وهو قد عاد ليحشر أنفه العتيق من فوق الحافة يت sham بحثاً عنـا. كان للمدفع الآخر رفيق الأول بغلان رماديـان في المقدمة، ودولاب من خشب طبيعيـي أعيد طلاوه، ومجموعة كاملة من الحالـات تتعقبـه. هل سبق لك ورأيت توم ريد؟" وقد خلع صدارته وهو يقود الكونغرس خلال موجة من الحر؟ لقد سبق لي وزرت واثنتـن مرات عديدة — عديدة جداً — لأسجل براءات اختراعـي. لقد أسمـيت ذلك المدفع، "توم ريد" كما نحن الثلاثة نلعب لـعبة "القطة التي تبحث عن زاوية"، حول كل المراكـز المتقدمة في أيام الراحة — جولات مرور عبر نباتـات المريمية وعلى امتداد "الميزاس" حتى تعيـقـنا الـودـيانـانـ. أوـهـ، كانـ الأمرـ رائـعاًـ بالنـسبةـ إـلـىـ وإـلـىـ "الأصلـعـ"ـ، وـ"ـتـومـ رـيدـ"ـ، لاـ أـعـرـفـ لـأنـاـ أـهـمـلـنـاـ المـصالـحـ الشـرـعـيةـ لـفـدـائـيـنـاـ ذـوـيـ الـصـلـةـ لـقـاءـ هـذـهـ الـلـعـبـةـ بـالـكـرـةـ. أناـ أـعـرـفـ أـنـيـ فعلـتـ ذـلـكـ.

قبل الخريف بوقت طويل أصبحـتـ "ـالمدفعـةـ الـمـلـكـيـةـ الـبـرـطـانـيـةـ"ـ خـجـولةـ — عـلـقـتـ فيـ مؤـخرـةـ السـبـطـانـةـ — وأـصـبـحـتـ نـيرـانـهاـ بـعـيـدةـ جـداـ عنـ الـهـدـفـ. لـاحـظـتـ

أنهم لم يكونوا يغامرون، رغم أنني كنت أعمل تحت موقعهم مباشرة.
ذكرت ذلك لفان زيل، لأنني ظنت أنني قد ضربت روحهم المعنوية الملكية
البريطانية بالطول والعرض.

"لا، يقول وهو يهز نفسه كالعادة فوق صهوة فرسه. والكابتن مانكلتاو
خاصتي مريض. هذا كل مافي الأمر."

قلت له: "إذن هي مدافع الكابتن مانكلتاو خاصتك، ولكنني سأجعله أكثر
مرضاً قبل أن يتتعافى."

"يقول فان زيل: "لا، لقد أصيب بالحمى التيفية قليلاً. والآن هو في حال
أفضل، وقد أخرج من المستشفى في جاكهالبوت. آه، مانكلتاو ذاك! إنه يجعلني
أضحك كثيراً وعلى الدوام. كنت قد قلت له — قبل زمن طويل — في كولسبرغ،
إنه كان لدى منزل صغير له في نوينغيداخت. ولكنه رفض أن يأتي: لا! لقد كان
مريضاً، وأنا آسف!".

قلت: كيف تعرف ذلك؟"

"عجبًا، اليوم فحسب أرسل تحياته جواباً على تحياتي بواسطة يوهانا فان ديو
ميرفه التي تذهب إلى طبيبهم بسبب عيني طفلها المريضتين. وهو يرسل تحياته،
مانكلتاو ذاك، ويقول لها أن تخبرني بأن لديه حديقة صغيرة من الزهور جاهزة
من أجلني في الهند الهولندية: في أومبالات. إنه مضحك جداً، كابتن مانكلتاو
خاصتي".

"على الهولنديين والإنجليز أن يتآخوا ياسيدي. لديهم روح الفكاهة نفسها على
ما أظن."

قال فان زيل: حين يتتعافى عليك بالحد أليها السيد الأمريكي، فسيعود هو
إلى مدافعه يوم الثلاثاء القادم. ومن ثم سيطلق النار على نحو أفضل."

"لم أكن مطلعاً على المدفعية الملكية البريطانية بمثل ما كان العجوز فان
زيل. عرفت هذا الكابتن مانكلتاو بالنظر، طبعاً، وبما أنه كان ذلك النوع من
الرجال فقد ظنت أن أنه قد فعل ما هو صحيح ضد مدفعي الزيغлер. ولكن لم يجر
شيء يشكل عهداً جديداً من التاريخ.

"في صباح اليوم التالي وفي الساعة المعتادة انتظرت الجنرال وجاء فانزيل العجوز مع بعض الشبان. لم يكن فان زيل يتسع من حول مدفع الزيغفر كثيرا في العادة، ولكن هكذا كان حظه في ذلك اليوم.

"كان يحدق عبر منظاره إلى المعسكر، و كنت أساعد في رش البهار على لحم الخنزير الملح لأجل الجنرال - كالعادة - حين التفت إلى بسرعة وقال: 'يا للرب! كم أن هؤلاء الإنكليز كذابون كلهم! لا يمكنك الثقة في أي واحد منهم'، هذا ما قاله. يقول الكابتن مانكلتاو ليوهانا إنه لن يعود حتى الثلاثاء، واليوم هو الجمعة وهما قد عادوا! يا للرب! الإنكليز كلهم مثل شامبرلين! 10-11.

"لو لم يتوقف الرجل العجوز ليلاقي خطباته، لكان سيتناول عشاءه في معسكر دفاعي يحميه سياج من عربات على ما أعتقد. كنت مشغولا بالاهتمام بـ 'توم ريد' عند النقطة 2000 حين بدأ 'الأصلع' عمله الجيد ضدّي. شاهدت صفحات من اللهب الأبيض ملتفة من حول جهاز التلقيم، وفي وسط ذلك كله كان أحد بغالى قد وقف منتسبا. لا شيء يدعو للاستغراب في بغل يقف منتسبا، ولكن هذا البغل كان دون رأس. أتذكر الآن أن الأمر بدا لي متناقضا في ذلك الحين، وحين حسبت الأمر كله وجدتني أقوم بما قام به سانتوس دومونت 11- بدون أي بالون ومحركي دون ناقل حركة. ثم بدأت أفكر في سانتوس دومونت وكيف أن طريقي الجديدة أفضل بكثير. ثم فكرت بالبوروفسور لانجلي 12- والسيموثيان 13-، وتمنيت لو أني لم أكذب إلى ذلك الحد المبالغ فيه حول مواصفاتي في واشنطن. ثم تخليت عن التفكير فترة من الزمن، وحين استأنفت سلسلة أفكاري كنت عاريا، ياسidi، في نقالة مهترئة وفمي مليء بالتراب الدقيق المنكه باللافتات.

"وقد سعلت ذلك التراب".

"يقول رجل يمشي إلى جانبي: "مرحبا، لقد تكلمت في الوقت الملائم تقريبا، هل تريد شرابا؟" ..

"أنا لا أحب الروم عادة ولكنني رضيت به آنذاك، لأنني كنت في حاجة إليه".

"سألت: ما الذي أصابنا؟!" ..

"قال: أنا. لقد أصبتك في جهاز التلقيم بالضبط وأنت تخرج من تلك الدونغا، ولكنني آسف إذ أقول إن كل طلقة في جهاز التلقيم قد انفجرت ومدفعك في حالة

تدعو إلى الصدمة. أنا معجب بمدفعك يا سيدِي..

قلت: أنت الكابتن مانكلتاو؟

قال: نعم. أعتقد أنك السيد زيفلر. لقد حكى لي عنك قائدك.

قلت: هل أسرتم فان زيل العجوز؟

قال بثبات: الكومندان فان زيل قد جرح لسوء الحظ الشديد، ولكن يسعدني القول إن جراحه ليست خطرة، أمل أن يتمكن من تناول العشاء معنا الليلة. وأنا واثق من أن الجنرال سيسعد بمشاهدتك أيضاً رغم أنه لم يكن يتوقع ذلك. ولا أحد آخر وحق جوبير..!، ثم احمر وجهه كما هو شأن البريطانيين حين يحرجون..

رأيته، يحشر كتاب صلاة أسفية بروستانتية في كمه، وحين نظرت من فوق حافة النقالة كان هناك نصف ذرينة من المجندين قد انتهوا للتو من الحفر وقد وقفوا في وضع الاستعداد قرب مغارفهم. وأعتقد أنه كان على حق في أن الجنرال لم يكن يتوقعني على العشاء، ولكن كان الأمر كله متفقاً مع الطريقة البريطانية غير المتقدمة في أداء الأعمال. كانوا يحدثون كل تلك الجلبة والهراء ليديفوا رجلاً واحداً، ودون بذل أونصة واحدة من الاهتمام في ذلك الأمر للتتأكد من أن الشخص قد مات حقاً. وأنا – على أي حال – أبرشاني مستقل!..

حسناً، ياسيدي، كانت تلك طريقة تقديمي إلى الجيش البريطاني. سأكتب كتاباً حول ذلك إن كان هناك من سيصدقه. هذا الكابتن مانكلتاو، من المدفعية الملكية البريطانية، جعل الطبيب يعتني بي (أستطيع تأليف كتاب آخر عنه) وأعطاني بذلة من بذلاته، وأطعمني لحم العجل المعلب مع البسكويت، وأعطاني سيجاراً من نوع "هنري كلاي"، مع ويسكي وسباركلت. كان رجلاً أبيض.

"أجل، وحق جوبير!". قال وهو يجر كلماته كأنه يلعق الدبس، "نحن معجبون جميعاً بمدفعك وأسلوبك في تشغيله، لقد راهن البعض هنا على أنك بريطاني فار. وقد ربحت جنبياً ذهبياً من مراهنتي عليك مع أحد المساعدين. وبالمناسبة لقد خبيت أمل سائس خيلي إلى حد كبير".

قلت: ولماذا سائس خيلي؟..

قال: هو المساعد الذي ذكرت، إنه سائس فقير جداً، هذا ما قاله الكابتن. ولكنه في الوطن محام متدرّب. كان يعود في أنحاء المعسكر ولسانه ممدود إلى

الخارج، منتظراً فرصة الدفاع عنك في المحكمة الميدانية».

فَلَمْ يَرَهُ مِنْهُمْ إِلَّا مُحْكَمَةً مِنْ دَانِيَةٍ؟

.. أوه، محاكمتك كفار من سلاح المدفعية. كنت ستتلقي عائداً جيداً لقاء أموالك. وعلى أي حال ما كنت لتشنق بعد أن لوحظت طريقتك في إدارة مدفعك، ولو كنت فاراً من الخدمة عشر مرات. كنت سأتدبر أمر إعدامك بالرصاص كجنتلمن."

حسناً يا سيدى، لقد أصبت فى فم معدتى، لدى إحساس بالغثيان، إحساس
جارح بأن وضعى يحتاج إلى تنظيم إلى حد كبير. كان على أن أكون مواطناً ذا
مرتبة سنوية. ولكن أوهایو هي ولايتها ولن أتخلى عنها في سبيل مجموعة من
الهولنديين الفارين. هذا بالإضافة إلى أن حماستي كمحترع قد قادتني إلى الأزمة
الحالية. ولكنني ما كنت أتوقع من هذا الكابتن مانكتاو أن يفهم افتراضى على هذا
النحو. وقد جلست هنا: أسوأ نوع من المواطنين الأمريكيان المتمسكين بعاد
بالمبادئ البالية، وقد أسر متلبساً بالجريمة وهو يرمى باتجاه على الجيش
البريطانى نشئور بحالها. أقول لك يا سيدى إننى تمنيت لو كنت من مواطنى ولاية
سينسيناتى فى ذلك المساء الصيفى، عدتها كنت سأصل إلى تسوية حول بروكلين.
ما الذى تفعلونه بالأجانب؟!.. قلت هذا والتراب الذى سعلته يبدو وكأنه قد
عاد إلى لسانه، مجدد؟!

قال: أوه، لا نفعل شيئاً يذكر. إنهم الرفقة الوحيدة التي لدينا. وأنا من مؤيدي البوير قليلاً. ولكن بيني وبينك. البويري العادي ليس ذكياً جداً، أنت أول أمريكي تقابله. ولذلك من سكان المدن بالطبع.

كان علي أن أكون كذلك لو كان لدى إحساس بالمؤشر الشائع، ولكن الطريقة التي كان يتshedق بها أصابتي بالجنون.

قلت: لست، كذلك بالطبع، هل ترضي أن تكون يوينساً متجنساً؟.

قال: أنا أحاربهم، ثم أشعل سيجارة. ولكنها كلها مسألة رأي.

قلت: حسناً، تستطيع أن تحمل أي رأي مسؤول تختاره، ولكنني رجل أبيض ونبيتي الحالية هي الموت بذلك اللون:

ضحك واحدة من تلك الضحكات الكبيرة ذات النهايات السميكة التي يضحكها البريطانيون ولا تؤدي إلى أي مكان، وأطلق نوعاً من الإطراء لأمريكا جعلني أكثر جنوناً.

أنا أسير رمحك وقوسك ياسidi، ولكنني لا أفهم النكتة البريطانية المزعومة.
إنها تؤدي بي إلى الكآبة

لقد جرى تقديمي إلى خمسة أو ستة ضباط في ذلك المساء وكل واحد لعين منهم ضحك وسألني عن سبب عدم وجودي في الفلبين لقمع حربنا هناك! وكانت تلك هي روح الدعابة البريطانية! كان على الجميع أن يتخلصوا من ذلك العباء الذي في صدورهم قبل أن ينطق بكلام ذي مغزى. ولكنهم كانوا عقلانيين فيما يتعلق بمدفع زيفلر. لقد أعجبوا جميعاً به. ولقد اخترعت حكاية خرافية عن نفسي على أنني مرهق من الحرب وأنني كنت أدفع بالمدفع تجاههم في الأشهر الثلاثة الأخيرة على أمل أن يأسروه ويدعونني أعود إلى الوطن. وقد دغدغهم ذلك حتى الموت. لقد جعلوني أكررها ثلث مرات وضحكتوا كالأطفال في كل مرة. وإن نصف البريطانيين أطذال وخاصة الأكبر سنًا بينهم. كان الكابتن مانكلتاو أقل طفولية من الآخرين إذ كان يتحدث عن مدفع الزيفلر كعاشق، ياسidi، وقد رسمت له رسوماً تخطيطية لجهاز التلقييم وأسطوانة الارتداد في دفتر ملاحظاته. وقد سأل السؤال البريطاني الوحيد الذي كنت أنتظره: "لم أكن قد جعلت القطع العملياتية خفيفة جداً؟" يظن البريطانيون أن التقل قوة.

"أخيراً... كنت أخجل من فتح الموضوع سابقاً.. أخيراً قلت: "أيها السادة، أنتم هيئة المحكمة الحيادية التي كنت أنشدها. أعتقد أنكم غير مهتمين بأي معلم آخر للمدافع كما أن السياسة لا تهمكم. كيف كان الأمر من وجهة نظركم؟ ما الذي فعله مدفعي على أي حال؟.."

قال الكابتن مانكلتاو: "أكره أن أخيب أملك لأنني أعرف كيف تشعر كمختروع". لم أكن أشعر كمختروع في ذلك الحين، كنت أشعر شعوراً ودياً، ولكن البريطانيين ليس لديهم أكثر مما تستطيع التقاطه بسكون من صحن من الحساء".

قال: الحقيقة الصادقة هي أنك جرحت حوالي عشرة منا بطريقة ما أو بأخرى وقتلت حصاني بطارية مدفعية وأربعة بغال، وأوه، أجل، لقد اصطدت

خمسة "كفيريin". ولكننا كدنا نصاب جميعاً. أنظر إلى سروالي".
كان سرواله قد رتق عند المقعد بكيس دقيق من صنع مينيابوليس. استطعت رؤية الكتابة.

قال: "لست مخدعاً. أجلب مرتجعات المستشفى يا دكتور".
"يجلبها الطبيب ويقرأها حسب التواريخ الصحيحة. كان ذلك الطبيب يستحق سعر رسم الدخول".

"سررت تماماً لأنني لم أقتل أيّاً من أولئك الأطفال المرحين. ولكنني لم أستطع مغالبة التفكير في أنه لو قتل عدد قليل إضافي من "الكافيريin"، لكان من شأن ذلك أن يخدم أغراضي الدعائية شأن القتلى من الرجال البيض. لا ياسيدي. مهما تكن الطريقة التي تنظر فيها إلى الاقتراح فإن واحداً وعشرين إصابة بعد شهور من الصداقة الوثيقة شأن صداقتنا ... أمر رديء".

قالوا: إن مدفوعي جيد كالوفى [حلوى قاسية دقيقة إنكليزية]، فالبريطانيون يستخدمون التوفى حيث يستخدم السكر. إنه أرخص وله المفعول نفسه. جلسوا من حولي وبرهنو لي أن مدفوعي كان جيداً جداً إذ يطلق النار بدقة شأن بندقية مانليشر.

قال أحد الشبان وكان يمضغ بعض الأعشاب: "لقد أحصيت ثمانى قذائف من قذائفك ياسيدي انفجرت ضمن نصف قطر قدره عشرة أقدام. كان من شأنها كلها أن تخترق غطاء عربة واحدة. وكان ذلك جميلاً. كان جيداً جداً".

"لن أستغرب لو كان الشاب على حق. كانت قذيفة الفتایت خاصتي شديدة الاتساق رياضياً من حيث قوّة الدفع. أجل. كانت جيدة جداً لهذا الأحمق العنيد. كان جهاز نقل الحركة الخاص بالتجويم قد انكسر وكان علينا أن نديره على المحور بواسطة أخمص الحاضن [الطرف الأدنى من عربة المدفع]. ولكنني سأصنع مدفوعي التالي من طراز زيفلر أتقل بألف وخمسمائة باوند. وقد يدور بمحرك بنزين تحت المحاور. على التفكير في ذلك".

قلت: حسناً أيها السادة. سأكره أن أكون السبب في موت أي منكم. وإذا ما استطاع أسير أن يتنازل عن ممتلكاته، أودّ أن أقدم إلى الكابتن هنا ما يرى أنه ملائم أن يتركه من مدفوعي الزيغلر".

قال الكابتن: شكرأ جزيلاً. أرعب في ذلك جداً. سيبدو المدفع رائعاً في مطعم الضباط في ولوبيتش، هذا إن لم يكن لديك اعتراض ياسيد زينغلر.

قلت: هيا، لقد خرجت سليماً من كل الفوضى التي تعرضت لها، ولكن المدفع سينشو النور بين أفراد سلاح الملكية البريطانية.

أقول لك ياسيدي، إنه لا يوجد خطأ في سلاح المدفعية الملكية البريطانية، إنهم رجال أذكياء يعانون من نظام عاجز هو — عندما تمسك به — إنكلترا برمتها. في بعض الأحيان أشعر أنني أخاطب مواطنين أحياe حقيقين، وأحياناً أشعر أنني أخاطب أكلى لحم العجل في "البرج".

كيف؟ حسناً على هذا النحو. كنت أحكى للكابتن مانكلتاو عما قاله فان زيل حول أن البريطانيين جميعهم عبارة عن تسامبرلين [رئيس وزراء بريطانيا] وذلك حين رأه ذلك العجوز وهو عائد من المستشفى قبل أربعة أيام من المقرر.

"أوه، اللعنة على ذلك كله!" ... يقول وهو رزين كقاض في المحكمة العليا. يقول: "أوه، الأمر سيء جداً. لابد أن يوهانا قد أساءت فهمي، أو أنني استخدمت العبارة الهولندية غير الصحيحة عن تلك الأيام اللعينة من أيام الأسبوع. لقد قلت ليوهانا إبني سأخرج يوم الجمعة. تلك المرأة حمقاء. أوه، اللعنة على ذلك كله! ماكنت لأبيع فان زيل العجوز جرواً بهذا الأسلوب. سالحق به لاعتذر منه.

"لا بد أنه تدبر الأمر جيداً، لأنه حين أبحرنا لتناول العشاء مع الجنرال فإن الكابتن مانكلتاو قدم إلى فان زيل الكثير من شراب الشيري والبيتر [شراب مسكر]، حتى أصبح سعيداً كالبطلانيوس. ناداه الشبان كلهم بـ"أدريان" وعاملوه كأنه أبو سخي. كان قد أصيب في عظم الترقوة، وكانت ذراعه مربوطة.

ولكن الجنرال كان الشخص المحبوب. أعتقد أنك تعرف ذلك النوع المعتمد من الجنرالات البريطانيين، ولكن كان هذا أول جنرال أتعرف عليه. جلست إلى يساره وتحديث مثل "صحيفة بيت السيدات"، ألم يسبق لك أن قرأت تلك الصحيفة؟ إنها منمقة ياسيدي وغير ضارة وملينة بعواطف مصفحة بالنيل مكفولة من حيث تحسين الذهن. كان هو كذلك بدأ بحديث من القلب إلى القلب من طراز "ليديا بينكمام"، حول صحتي، وأمل في أن يكون الشباب قد عاملوني جيداً وأنني كنت أستمتع بوجودي بينهم. ثم شكرني على الدروس الممتعة والقيمة التي أعطيتها

لجماعته — وخاصة حول تركيز المدفعية والهجمات من المؤخرة. كان يمسح على شاربه الطويل النحيل بين كؤوس الشراب — مستخدماً عصير الليمون المر والملئ — ويشعرون قائلًا: "آه، ثم يعرف المزيد من التوفي لي وللعجز فان زيل على يمينه حكى له كيف خطر لي أول وحي من مبادئ مدفع الزيبلر حين كنت أعمل كمديراً للبريد من الدرجة الرابعة على طريق النجوم في أركنسو. حكى له كيف خططت نالمر كله بالتقسيط حين كنت أعمل ميكانيكاً في روتيبي من حيث تأتي ساعات اليد التي ثمن الواحدة منها دولار واحد. كان يلبس واحدة منها في معصمه. حكى له كيف قابلت زيني (لم يكن قد سمع بزيني)، حين كنت أعمل كاتباً إضافياً في مكتب الإنشاء البحري في واشنطن. حكى له كيف أن عمي الذي كان مزارع خضار في نيو جيرزي (كان يفرض المال على أساس الرهن أيضاً، فعشرة أكرات لا تكفي الآن في نيو جيرزي)، وكيف كان سيقدم لي ربع مليون دولار لأنني كنت الوحيدة بين أقرباتها الذين كان يوبخه حين يأتي إلى البيت وقد انتشى من شرب عصير التفاح المخمر وينتقمأ على بنات أخيه. حكى له كيف أنفقت كل سنت أحمر على مدفع الزيبلر، وعن السيرك الذي تشكل لدى خروجي مع المدفع، وهكذا دواليك. وكان يمسح على شاربه كل أربعين ثانية ويشعرون قائلًا: "كم هذا ممتع. أحدث هذا حقاً؟ كم هذا ممتع".

"كان الأمر أشبه بما يحدث في كتاب إنجليزي قديم، مثل كتاب بريسبريدج هول". ولكن مؤلف هذا الكتاب كان أمريكاً! بقيت محققاً باحثاً عن "رأس الخنزير"، و"روزماري"، و"ماغادا تشارتا"، و"الكريكت على الموقد"، وبقية الطاقم. ثم اندفع فان زيل. لم يكن منتشياً من الخمرة إنما تخلى عن تحفظه: تخلى عن تحفظه ياسidi بين أصدقاء. بدأوا يناقشون الاشتباكات السابقة حسب طريقة الرجل العجوز — وكان هناك ستون منهم — وكذلك عروضاً جانبية مع جنرالات آخرين وطوابير أخرى. حكى له فان زيل عن ضربة كبيرة خطط لها على أساس طابور في الأسبوع قبل أن أنضم إليه. وقد أوضح استراتيجيته بواسطة شوكات الطعام على المائدة.

قال الجنرال حين انتهى: "حسناً! هذا يثبت وجهة نظري تماماً. ربما كنت مزيداً إلى حد قليل للبوير، ولكني ألتزم برأيي: أي أنه بوجود ضباط ملائمين مع الاعتبار الصحيح للأراء المسابقة في عنصرهم، فإن البوير هم أفضل مشاة راكبة

في الامبراطورية يا أدريان. لقد بخسوك حفتك. كان يجب أن تكون في كلية الأركان مع (دي فيت).

"عليك أن تمسك دي فيت وسأحضر أنا إلى كلية الأركان خاصتك، مارأيك؟" ، هذا ما يقوله أدريان وهو يضحك. ولكنك بطيء جداً أيها الجنرال. لم أنت بطيء جداً؟ لفترة شهرين كنت تؤدي جيداً و كنت قوياً، حتى أتناقلنا إتنا سنسسلم ونعود إلى مزارعنا. ثم ترسل إلى إنكلترا طلباً لحضور لنا هدية من مائتين، ثلاثة، ستمائة شاب مع البنادق والعربات وشراب الروم والتبغ والكثير من الطلاقفات، حتى أن شبابنا يتشجعون ويفدوا من جديد، لو أمسكت بثور من قرونها وضربيه على مؤخرته فسوف يدور في مكانه. إنه لا يذهب إلى أي مكان. وهذا تدور هذه الحرب. وأنت تعرف ذلك يا جنرال".

يقول الجنرال: "صحيح تماماً يا أدريان، ولكن عليك أن تصدق كتاب المقدس".

يقول أدريان وهو يمد يده إلى الويسكي: "هوه"، لم يسبق لي أن عرفت هولندياً يعترف بأنه ملحد، ولكن القلة منهم أصبحوا "لا أدربيين" 14. منذ أن قبعت البريطانيون في بريتوريا. لقد حكى لي العجوز فان زيل أنه غضب من الدين بعد استسلام بلويمفونتين. لقد كان من المطالبين بدولة حرة على أي حال.

يقول الجنرال: من يؤمن لن يسرع. هذا مذكور في سفر إشعيا. ونعتقد أننا سنربح، ولذلك لانسرع. فيما يتعلق بي أود لو تدوم هذه الحرب خمس سنوات. سيكون لدينا جيش أثنتين. بهذه الطريقة فحسب يا سيد زيلغر فإن شعبنا متزع بالوطنية، ولكنهم ولدوا وتترعرعوا بين المنازل، وليس إنكلترا كبيرة لتدريبهم جميعاً، ليس إن كنت تتوقع أن تحافظ عليها".

أقول: لا، على المبارأة. وهذا يذكرني أيها السادة بأننا لم نشرب نخب الملك وصيد الثعالب".

"وهكذا شربوا نخب الملك وصيد الثعالب. وقد شربت نخب الملك لأنك كان هناك شيء ما يخص [الملك] يدغدغني (إنه بريطاني إلى حد لعين). ولكنني أفضل عدم شرب نخب صيد الثعالب. لقد قتلت الكثير من الذئاب في بلاد البقر، وكانت أشعر بالحاجة إلى الشراب بشدة بعد ذلك، ولكن لم يخطر لي أبداً أن أشرب نخب

ذلك، أعني وراثياً.

لا.. كما كنت أقول ياسيد زيفلر، ويتابع قانلا: ' علينا أن ندرب رجالنا على إطلاق النار والركوب. أسمح بستة أشهر لمثل هذا التدريب. ولكن الكثير من قادة الطوافير - لا يعني ذلك أني سأقول كلمة ضدتهم فهم أفضل الناس وكثير منهم أصدقاء أعزاء علىي - يبدون وكأنهم يفكرون أنه لو كان لديهم الرجال والجيش والمدافع لاستطاعوا تناول الشاي مع البوير. والمسألة عادة تجري بالعكس، أليس كذلك ياسيد زيفلر؟' ..

"قلت: إلى حد ما ياسيدى."

قال: أنا سعيد جداً أنك توافقني الرأي. أعتبر قيادتي هنا كمحطة تدريب، وأنت، لو سمحت لي بقول ذلك، كنت واحداً من أفضل المدربين عندي، أنا أضطر رجالي ببطء، ولكن على نحو شامل. أولًا أضعهم في المدينة التي من المحموم أن تتعرض للهجوم ليلاً، حيث يستطيعون الدوام على معهد الفروسية في النهار. ثم استخدمهم مع قافلة، وأخيراً أضعهم في طابور. وهذا يستغرق وقتاً، ولكنني أطوي على نفسي بأن رأي رجال عملوا تحت إمرتي هم على الأقل مؤسسين جيداً فيما يتعلق بمبادئ مهنتهم. يا أدريان، هل كان هناك خطأ ما في الرجال الذين قلبوا عربة تفاح، "فان بسترز" ، في الشهر الماضي حين كان يحاول عبور الخط للانضمام إلى (بافير) مع تلك الجياد التي سرقها من (الغابيتاس).؟"

قال فان زيل: لا أيها الجنرال. لقد استعاد رجالك الجياد وأحد عشر قتيلاً. أما فان بسترز فقد هرب إلى ديلاري بقميصه. لقد كانوا جيدين جداً أولئك الرجال. وهم يطلقون النار بقوة".

"مسرور جداً بسماع ذلك منك. لقد زرعتهم في بداية القرن، إنهم نتاج عام (1900). أتتذكرهم يا مانكلتاو؟ مروضو الخيول من سنترال ميدلسكس برونشتو: كتبة وناظرو البيع في متاجر على الأغلب". ثم مسح على شاربيه. "كان الأمر هو نفسه مع القافزين من فوق ظهر الثيران من ليفربول، ولكن كان هؤلاء أخصائين في تحويل السفن وتفرি�غها. فلننظر إلى الأمر: كانوا من قرعة القرن الماضي، أليس كذلك؟ لقد أبلوا بلاء حسناً بعد تسعه أشهر. أتعرفهم يا فان زيل؟ ألم تستطع أن تغيرهم كثيراً في بوتفونتين؟" ..

يقول فان زيل: "أبدأ في بوقونتلين فقدت ابني أندريلز".

قال الجنرال: "أرجو عفوك أيها الكومandan". ثم راح الباكون يتحدثون بتعدد نوعاً ما إلى أدريان.

يقول أدريان: عذراً. كان الأمر على مايرام. كان أولئك رجالاً جيدين، ولكن الأمر كما قلت. البعض جيدون جداً حتى أتفا نريد أن نستسلم لهم، والبعض سيثون إلى درجة أنها نقول: (لنأخذ الفيركلور إلى كيب تاون). ليس الأمر عادلاً من جانبكم أيها الجنرال. ليس عادلاً على الإطلاق. لا أعتقد أنكم تريدون لهذه الحرب أن تنتهي أبداً".

يقول الجنرال: إنها استعراض ملابس من الصنف الأول لأجل هر مجدون 15-. ومع توفر الحظ، علينا أن نجعل نصف مليون جندي يمررون عبر المطحنة. عجباً، وقد نتمكن من منح الفرصة إلى جيشنا المحلي ليلاقي نظرة. أوه، ليس هنا طبعاً، يا أدريان، ولكن هناك في (المستعمرة). فلننقل معسكر تدريب في ورسستر. ليس عليك أن تكون متحالماً يا أدريان. لقد كنت قائد منطقة في الهند، وأعطيك عهداً مني بأن القوات المحلية مؤلفة من رجال رائعين".

يقول أدريان: أوه، ليس علىَّ أن ألقى منهم إن كانوا في ورسستر. سأبيعك مؤونة من أجلهم في ورسستر. أجل، وفي بارل وستانبوش. ولكن يا للرب! هل علىَّ أن أبقى مع (كروني) حتى تكون قد دربت نصف مليون من هؤلاء الشبان الأغبياء على ركوب الخيل؟ سأكون قد أصبحت رجلاً عجوزاً في ذلك الحين".

"حسناً يا سيدي، هكذا بدأ بالتجادل حول ما إذا كانت سانت هيلينا تلائم أدريان وبعض الأماكن الأخرى التي كانا يعرفانها، وراحوا يحضران رسائل التعارف إلى الدوقيات اللوردات الذين يعرفانهم، وحتى يتم الاعتناء بفان زيل جيداً، لدينا عقارات واسعة - في أمريكا - ولكن ما يجعلني أشعر بالغثيان هو سماعي لهذا الحشد يمارس التملق حول الأطلس (أوه، أجل، كان معهما أطلس)، وراحوا يختاران قارات تائهة لأدريان حتى يشرب قهوته فيها. وقد اعترف الرجل العجوز بأنه بم يكن راغباً في البقاء مع (كروني)، لأن أحد أقرباء كروني هذا كان قد استولى على إحدى مزارعه بعد بارديبرغ. لقد نسيت تفاصيل القضية ولكنها كانت مثيرة. وقد قررا اختيار مكان يدعى أومبالا في الهند لأن طبيباً من الدرجة

الأولى كان موجوداً هناك.

وهكذا كان أدریان مصمماً على شرب نخب الملك وصيد الثعالب وكذلك على دراسة الجيش المحلي في الهند (أود رؤيته شخصياً)، حتى يكون الجنرال البريطاني قد علم الفروسية لمواطني بريطانيا العظمى من البعض الذكور. لا تسيء فهمي ياسيدى، لقد أحببتك ذلك الجنرال. بعد عشرة دقائق أحببته وأردت أن أضحك عليه، ولكن في الوقت نفسه فإن الجلوس هناك والاستماع إليه يتحدث عن القرون قد أخافنى يا سيدى كما أقول لك. لقد أخافنى حتى القصيرة! لقد أقر بكل شيء. أقر بالقمع قبل أن تتكلم أنت - كان مسروراً بأن يسمع أن رجاله قد استخدموا في تنظيف المرج ذي الأشجار المتاثرة أكثر من سروره حين قتلت حصانى توم ريد - وقد استند في كرسيه ونفح الدخان عبر أنفه وراح ينضح رجانه كأنسيجار - وتحدى عن القرون الخالدة!..

ذهبت إلى الفراش أقرب إلى الانهيار العصبي من أي وقت مضى. في صباح اليوم التالي رتبنا أنا والكابتن منكلتاو أمر نقل ما أبقيت شظايا قذيفته من منشعي الزيغيلر إلى السكة الحديد. وقد مضى إلى هناك على عجلاته؛ وقد كتبت عليه بالاستنسيل: "مطعم سلاح المدفعية الملكي، ولوبيتش، وذلك على الماسورة"، وقال هو إنه سيكون ممتناً لو اعترضت بالمدفع حتى كيب تاون، وسلمته إلى رجل في سلاح المدفعية هناك. ثم قال أخيراً: "كيف هو وضعك المالي؟ ستحتاج إلى بعض النقود في طريق عودتك إلى الوطن".

قلت: أولاً أيها الكابتن لست بالرجل الفقير وثانياً لن أذهب إلى الوطن. أنا أسير قوسك ورمحك. أرفض التخلّي عن هذا المنصب".

قال: سكينتلز! 16 - (كانت هذه واحدة من عباراته العظيمة). ستناول العفو وتعود إلى أمريكا وتختبر مدفع زيغيلر آخر بقطع عملية أتقل قليلاً. لدينا من الأسرى أكثر مما نعرف مانفعله بهم. ستكون مجرد نفقة إضافية بالنسبة لي كدافع ضرائب. فكر بالجدول (د) وخذ العفو".

قلت: لا أعرف شيئاً عن تعرفاتكم، ولكن حين أصل إلى كيب تاون سأرسل إلى الوطن طلباً بالنقود، ثم سأدفع كل سنت أنفقه بلادكم على إقامتي وذلك إلى أي إدارة يعود تأسيسها حقاً إلى القرن العاشر إن كان مرسوماً أن تفرضها منذ وصول

ويليام الفاتح 17-.

قال: ولكن اللعنة عليك من بغل سميك الذهن. هذه الحرب قد بدأت للتو! هل تعني أنك تريد لعب دور الأسير حتى نهايتها؟!؟.. قلت: تغريبنا. هذه هي القصة وما فيها لو استطاع إنكليزي وأمريكي أن يتفاهموا... .

قال: وهو جالس على كومة فوق تل نمل: "ولكن وحق اسم السماء المقدس، لماذا؟!؟..

قلت: حسن أيها الكابتن لا أدعى أنني أتبع طرق تفكيرك، ولا أرى نفاذ تسيء استخدام منصبك لتلحق أسير حرب مسكين ليتخلى عن منصبه!؟.. يا صديقي العزيز". هكذا بدأ يقول وهو يرفع يديه ويحرر وجهه، سأعتذر.

قلت: ولكن إن كنت تلح فهناك أمر ونصف في هذا العالم لا أستطيع القيام بهما. النصف لا قيمة له هنا. ولكن أن أفال العفو وأعود إلى الوطن، وأنعرض إلى إجراء مقابلات مع الناس، وألقي محاضرات حول حملتي أنا وحدي ضد الأعداء الوراثيين لبني المحبوب هو الشيء الذي لا أستطيع، فندع الأمور كما هي أيها الكابتن!..

قال: "ولكن ست Mell حتى الموت"، لقد لاحظت أن البريطانيين يخافون من المال أكثر من خوفهم من الموت.

قلت: سابق على قيد الحياة. لست بريطانياً، أستطيع التفكير.

قال: يا إلهي، ويقترب مني ويمد يد الصداقة اليمني إلى". "لابد أنك إنكليزي ياز يغلا".

"ليس أمراً جيداً أن يجئ المرء من مثل تلك المجاملة، كل الإنكليز يفعلون ذلك. إنهم جنس مجذون. حين لا يعرفونك يتجمدون حتى يصبحوا أكثر قسوة من سانت لورنس. وحين يعرفونك يذوبون مثل الثلج في نيسان. وحين غادرنا نحن الأسرى - أربعة أيام - حكى لي الكابتن مانكلتاو الكثير حول نفسه: عن أمه وأخوه وعن أخيه الرديء الذي كان فارساً في جيش استعماري ما، وكيف أن أبوه لم يكن على وفاق معه. أجل، وكل شيء كما قلت لك. إنهم غير مولعين بالحياة

المنزلية أو العائلية هؤلاء البريطانيون بالمقارنة معنا. فهم يتحدثون عن شؤون أسرهم وكأنها أسرة شخص آخر. ليس الأمر أنهم لا يعرفون الخجل. ولكن يبدو الأمر كذلك. أعتقد أنهم ينطقون عاليًا بما نفكرون به وننطقون نحن عاليًا بما يفكرون به.

لقد أحببت الكابتن مانكلتاو خاصتي. أحببته أكثر من أي رجل تعرفت عليه. كان برينا طاهراً. أعطاني دورق الشراب الفضي خاصته وأعطيته صبغة متوجدة "لفتايت". أي مائة وخمسون ألف دولار دسستها في جيب صداره، على أقل تقدير، لو كانت لديه المعرفة الكافية لاستخدامها، لا، لم أقل له كم هي قيمتها نقداً، كان إنكليزياً. وكان من شأنه أن يرسل خادمه ليتأكد من الموضوع.

"حسناً، أنا وأدريان وحشد من الهولنديين الملاعين أرسلنا على طريق كيب تاون في عربات من الدرجة الأولى تحت الحراسة.(ما كانرأي في مجندكم؟ إنهم مختلفون كثيراً عن مجندينا ياسيدي: كثيراً جداً). كما قلت، فقد انزلقنا جنوباً بينما راح أدريان يتطلع من نافذة العربة وبيكي. يكفي الهولنديون بسهولة كبيرة بالمقارنة مع بأسهم في القتال. ولكنني لأفهم قط كيف يمكن للهولندي أن يشتم حتى عبرنا إلى مستعمرة دولة أورانج الحرة، وقد رفع يده وشتم ستائين عشر دقائق بحالها. ثم دخلنا المستعمرة، ووصل المتمردون - قساوسة على الأغلب ومعلمون مدارس - وهم يحملون الفواكه والمعاطف والتصووص. حادثهم فان زيل بالهولندية، وكان هناك رجل ضخم أحمر اللحية في بوفورت ويست، على ما ذكر، وقد راح يذوي هناك على الرصيف.

قال فان زيل وهو يرمي عنقوداً من العنبر: احتفظ بصلواتك لنفسك. ستكون في حاجة إليها وإلى الفاكهة أيضاً، وذلك حين تصل الحرب إلى هنا. لقد فعلت ذلك أنت وكنيستك الأكثر موتاً من جياد كرونجه الناقفة! لقد جاء البريطانيون وهزمواكم، وقد جلستم لا تحركون ساكناً ورحمتكم تصلون. لقد أمرتمونا أن نثابر وقد ثابرنا وأحرقت مزارعنا. وقد جلستم لا تحركون ساكناً..

ثم حملته عائداً به إلى العربية. ظننت أنه أصيب بنوبة. ولكن الحياة أمر غريب - ومفاجئ - ومحلي. لم يعد لدى أي استخدام آخر للمتمرد أكثر من فان زيل، وكنت أعرف شيئاً ما عن الأكاذيب التي كانوا يعنوننا بها من المستعمرة مدة عام ونصف. لقد قلت للقسис أن ينسحب من الموضوع وتتابعت تناول غدائى.

وحين وصل رجل آخر وصاًفح فان زيل. كان قد عرفه عن كثب خلال حصار كيمبرلي. كان فان زيل معروفا على نحو جيد من قبل جيرانه على ما أظن. وما إن فتح هذا الرجل الآخر فمه قلت: "أنت من كنتاكي، أليس كذلك؟!"، قال: "أجل، ومن أين أنت؟" فقلت له على الفور إذ كنت مسرورا بسماع لهجة أمريكية جيدة من فم أي رجل. ولكنه فرك يديه خلف ظهره، وقال: "لا أعرف أي رجل يقاتل لأجل هولندي تاماني 18-. ولكنني أعتقد أنك تلقيت أجرا طيبا، أنت أيها اليانكي اللعين المهرب للأسلحة والذخائر".

"حسناً يا سيدي، لم أكن أنتظر ذلك، وكانت المفاجأة صاعقة، بينما بدأ فان زيل العجوز يشرح الأمر".

قال الرجل: لا تتعب نفسك بالشرح يا سيد فان زيل. أعرف هذا الصنف من الناس. الجنوب مليء بهم. ثم التفت نحوي وقال: انظر إلى هنا أنت أيها اليانكي. لا شيء صغير هنا أو هناك مثل ملك، ولكن مافعلته أنت هو أن تعود إلى الرجل الأبيض في ستة أماكن مرة واحدة نصف الكراء الأرضية وأربع قارات - أمريكا وإنكلترا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا. لا تفتح عقلك. تعرف جيداً أنهم لو أمسكوا بك تلعب هذه اللعبة في بلدنا لكنك تتهزّهز الآن عالياً من أنشطة قبل أن تبرز أوراق جنسيتك. تابع واجمع المال، وسوف تنتهي إلى القتال في سبيل الزنوج، كما فعل الشمال، ثم رمى لى نصف كراون من النقد الإنكليزي.

"سيدي، لا انظر إلى الاقتراح على هذا النحو، ولكنني أظن أنني كنت قد تعرضت إلى صدمة - نوعاً ما - بسبب الانفجار. لقد قالوا لي في كيب تاون إن أحد أضلاعى قد اخترق رنتي. لا أورد هذا كذر، ولكن الحقيقة الإلهية الباردة. القضية هي.... أن النقود التي على الأرض فعلت ذلك... لقد استسلمت وبكيت. وضعت رأسي أرضاً وبكيت.

"أحلم بهذا حتى الآن أحياناً. لم يكن يعرف الظروف، ولكنني أحلم بذلك. وهذا جحيم!

"كيف ترى الاقتراح... كمواطن؟ لو كنت قد اخترت مدفوك الخاص وأنفقت سبعة وخمسين ألف دولار عليه... ودفعت نفقاتك من كلمة "ذهب؟ يحق للمواطن

الأمريكي أن يختار الجانب الذي يريد وذلك في الأمور الكريهة، ولم يكن فان زيل من أتباع كروجر 19... وقد خاطرت بجلاسي على نفقي. لقد حصلت على عنوان ذلك الرجل من فان زيل. إنه رجل مناجم من كيمبرلي، وقد كتب الحقائق. أرسلتها إليه. ولكنه لم يرد قط. أعتقد أنه حسبي أكذب... ياله من متزد جنوبى لعين!...

هيا قل لي: هل ذكرت لك أن الكاتبين خاصتي قد أعطاني رسالة إلى لورد إنكلزي في كيب تاون، وقد رتب الأمور حتى أستطيع أن أمكث قليلاً في منزله؟ لقد كنت مريضاً جداً وكنت أنتقاً الدم من حيث اخترق الطلع الرنة هنا. وهذا اللورد كان مهوساً بالمدافع، وقد اهتم بمدفع الزيغفر. كان ينتقد النظام البريطاني كأى أمريكي. قال إنه يريد الثورة وليس الإصلاح في جيشكم. قال إن الجندي البريطاني قد فشل في كل شيء عدا الشجاعة. قال إن إنكلترا في حاجة إلى مذهب مومنرو²⁰. أكثر من أمريكا... في حاجة إلى مذهب جديد يسود القارة كلها، فتقرب نفسها بصرامة لتطوير مستعمراتها. قال إنه سيلغي نصف وزارة الخارجية ويخرج منها كل الأسر القديمة المتوارثة، لأنهم كما قال، قد وطنوا أنفسهم على خداع дипломاسيين القاريين، واحتقار المستعمرات. لم يكن عمر أسرته يزيد عن ستمائة سنة. كان رجلاً شديد الذكاء ومواطناً صالحاً. وقد تحدثا في السياسة والاختراعات حين كان الألم في رنتي يخف قليلاً.

"هل كان يعرف جنرالي؟ أجل، كان يعرفهم جميعاً. كانوا جميعاً من الصفة، كلهم من أعز أصدقائه. ولكنه أسر لي بأنه لم يكن أي منهم ملائماً لقيادة طابور في الميدان. قال إنهم شديدو الولع بالدعائية. لا يبدو أن الجنرالات يختلفون كثيراً عن الممثلين أو الأطباء أو - أجل ياسيدي - المخترين.

"لقد رتب لي أموري على نحو جميل في سايمونزتاون. كان له نفوذ كبير... حتى بالنسبة إلى لورد مثله. في البداية عاملوني كمحظون غير مؤذ. ولكن بعد مدة من الزمن جعلتهم يسمحون لي بالاحتفاظ ببعض سجلاتهم. لو كنت قد تركت وحدي في هذا العالم مع النظام البريطاني في مسک الدفاتر، لكونت سأعيد بناء الامبراطورية البريطانية كلها.. بدءاً من الجيش. أجل، أنا واحد من أكثر محاسباتهم تقهماً، وهم يدفعون لي أجراً مقابل ذلك يصل إلى دولار واحد في اليوم. وأنا أحافظ بذلك. لقد كسبته، وأنا أحسمه من كلفة طعامي. حين تنتهي الحرب سأدفع الباقي

إلى الحكومة البريطانية، أجل ياسidi، هكذا أنظر إلى الاقتراح.
“أدريان؟، أوه، لقد غادر إلى أومبala قبل أربعة أشهر. قال لي إنه سيقدم طلبًا
للانضمام إلى “الكتافة الوطنيين”， إن لم تضع الحرب أوزارها هذا العام. ليس
أمراً طبيعياً أن يطلق هولندي النار على هولندي آخر، ولكن لو كان أدريان
ميتاً في ستاين، فسيكون هناك خروج على القاعدة. أجل، حين تنتهي الحرب
سيكون على الجيش البريطاني أن يحمي ستاين من مواطنه. ولكن الحرب لن
تنتهي قريباً. ومن يؤمن لا يسرع كما يقول الإيرلنديون. إن القساوسة ومعلمى
المدارس والمتمردين ستكون لهم حرفهم بعد فترة طويلة من الهدوء الذي عمد
الشمال.

“أنا مسحور من هذا البلد.. إنه كبير. ليس هناك بشر كثيرون كما في أمريكا.
هناك ازدهار قادم دون شك، لقد تحدثت عن ذلك مع أدريان، وأعتقد أنني سأشترى
مزرعة في مكان قريب من بلومفونتين وأبدأ بتربية البقر. إنها كبيرة وهادئة..
مزرعة تبلغ مساحتها عشرة آلاف هكتار. وهناك أستطيع متابعة اهتماماتي.
سأبيع مدفعي الذي يغسل على ما أعتقد. سأعرض براءة الاختراع على الحكومة
البريطانية. وإن قالوا: (حقاً كم هذا مثير للاهتمام). فسوف أبيعه إلى الكابتن
مانكلتاو وصديقه اللورد. سرعان ما سيدان واحداً باسم ”غاسي“ أو ”تيدي“ أو
”الجي“ يستطيع أن يقبله في المكان الصحيح. لقد تعلمت الدرس.
والآن سأذهب للسباحة وأقرأ الصحف بعد الغداء. لم أتمتع بوقت طيب كهذا
منذ مات ويلي.”.

خلع القميص الأزرق من فوق رأسه حين عاد السباحون إلى أكواخ ملابسهم.
قال وهو يتحدث من تحت ملابسه:
“ولكن لو أردت أن تحول أملاكك إلى نقد، عليك أن تؤجر الاقتراح كله إلى
أمريكا لمدة تسعة وتسعين عاماً.”



■ حواشى المترجم:

- 1 - كوردايت: متاجر لا دخان له يصنع على شكل حبال.
- 2 - أغويفالدو، إميليو: قائد فيليبيني قاد العصيان المسلح خلال الحرب الإسبانية -

- الأمريكية. كما قاد الثورة (1899 – 1901)، ضد القوات الأمريكية المحتلة حتى تم أسره.
- 3 – كروغر (1825 – 1904): سياسي جنوب أفريقي لعب دوراً هاماً في تاريخ ترانسفال. أصبح رئيساً للبلاد بين (1883 – 1900).
- 4 – كفيريون: أعضاء في مجموعة الشعوب الناطقة بلغة البانتو في جنوب أفريقيا.
- 5 – تيدى روزفلت: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (1900-1909).
- 6 – شنكتادي: مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية.
- 7 – غروف كليفلاند: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (1885-1889).
- 8 – واترلو: المعركة الأخيرة التي هزم فيها نابليون عام (1812) على يد الجيوش البريطانية والحليفة.
- 9 – توم ريد: (1839-1902)، مشروع أمريكي ورئيس مجلس النواب (1889-1891) و(1895-1899).
- 10 – جوزيف تشامبرلين: (1836-1914). سياسي أمريكي بريطاني.
- 11 – دومونت: (1873-1932). طيار برازيلي كان من أوائل من صمم طائرة تعمل بمحرك بنزين وطار بها.
- 12 – سامويل لانغلى: (1834-1906). عالم أمريكي من أوائل من درس الطيران الميكانيكي.
- 13 – سيموئيان: معهد بحوث أمريكي.
- 14 – لا أدربيين: من يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها.
- 15 – هرمدون: الموضع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر.
- 16 – سكيلز: لعبة القاني الخشبية.
- 17 – ويليام الفاتح: (1028-1087). ملك إنكلترا (1066-1078). قاد الحملة التورمندية على إنكلترا وفتحا (1066).
- 18 – تاماني: ينزع إلى المتعة بالسلطة السياسية بطرق تكون مشبوهة أو فاسدة.
- 19 – يوهانس كروجر: (1825-1904) سياسي جنوب أفريقي كان رئيساً للبلاد (1883-1900).
- 20 – مذهب مومنو: أعلنه الرئيس الأمريكي مومنو في عام 1823 وقوامه أن الولايات المتحدة الأمريكية تعارض كل تدخل أوروبي في شؤون نصف الكرة الغربي.

□□□

النزة القصيرة

للسيد لوفدابي

قصة إيفيلان واو*

ترجمة: أسعد الصالح

-1

بينما كانت السيارة تلجم أبواب مشفى الإقليم للأمراض العقلية أبتدت السيدة موبنخ ملاحظة بقولها: «لن تجدي عظيم تغيير قد طرأ على والدك». فسألتها أنجيلا قائلة: «هل سيكون مرتدياً بزة رسمية؟»

أجبت الأم: «كلا ياعزيزتي، بالطبع لا، فهو يلقى أفضل العناية والاهتمام». هذه الزيارة هي الأولى من نوعها لأنجيلا وقد تمت بناءً على اقتراح منها. ها قد مضت عشر سنوات على ذلك اليوم الممطر أوآخر الصيف حيث تمأخذ اللورد موبنخ إلى حيث مقره الآن إنه يوم من الذكريات المشوشة بل المريرة للسيدة موبنخ. لقد شهد يوم حفلة الحديقة السنوية التي تقيمها السيدة موبنخ - والمليء بالمرارة دائمًا - اضطراباً سببه تقلب الجو. ذلك الجو الذي ظل صافياً متالقاً ومبشراً إلى أن وصل الرعيل الأول من الضيوف، فانقلب فجأة إلى سحب لفت اليوم بالظلماء وأشبعته بالمطر. متسرعة الخطأ نحو حاجب يقي من المطر وانقلب السرادق المقام في الهواءطلق رأساً على عقب وحملت الكراسي والوسائل بطريقة لم تخل من الذعر، وكان الهواء قد رفع غطاء إحدى طاولات الطعام إلى أغصان شجرة صنوبر حيث أصبح يرفرف مع المطر. أما الضيوف

فكانوا في الفترة التي يصفوا فيها الجو - يخرجون على حذر إلى المروج المخلضة بماء المطر، ثم تأتي عاصفة أخرى تليها عشرون دقيقة فيها تشرق الشمس مرة أخرى ويظهر ضوءها.

لقد كان عصر ذلك اليوم بغيضاً كريهاً، وكانت الطامة الكبرى فيه عند الساعة السادسة مساءً عندما حاول والدها الانتحار.

كان من عادة السيد موبنغ التهديد بأن ينتحر بمناسبة حفلة الحديقة في تلك السنة وبينما كان بعض الجيران يبحثون عن ملجاً يقيهم المطر وجدهم وقد اسود وجهه إذ كان معلقاً على هيئة المشنوق بحمالات بنطاله في بيت البرتقال البلاستيكي. قام الجيران بإعادة قدميه إلى الأرض مرة أخرى وقبل العشاء طلبوا له سيارة مقلة (لتأخذه إلى حيث مقبرة الآن).

منذ ذلك الحين ومن موسم إلى موسم كانت للسيدة موبنغ زيارات لمشفى الأمراض العقلية حيث تعود عند وقت تناول الشاي والكمان يلف مالقيت هناك.

كان العديد من جيرانها يميلون إلى نقد مقر إقامة اللورد موبنغ الذي بكل تأكيد لم يكن نزيلاً عادياً. لقد كان مقيماً في جناح منفصل من أجنحة المشفى مخصص لعزل المجانين الأثرياء فهم الأوفر حظاً والذين يتم إعطاؤهم مراعاة كاملة بحسب نقاط ضعفهم، فهم قادرون على اختيار أبستهم الخاصة (يطلق الكثير منهم العنوان لأخيلة مفعمة بالحياة) ويمكن أن يدخنوا سجائرًا من أغلى الماركات، وكذلك، في الذكريات السنوية لشهادتهم، يمكن أن يستضيفوا أيّاً من النزلاء الآخرين، الذين كانت بينهم صلة، على حفلات عشاء خاصة.

على كل حال فإن الحقيقة تظل أن هذا المشفى كان بعيداً عن كونه أغلى أنواع المعاهد حيث أن ذلك العنوان الثابت "مأوى الإقليم للمختلين عقلياً" المختوم على ورق كتابة الرسائل، والمرسوم على البذرة النظامية لكل خادم فيه، والمكتوب بالدهان حتى على لوحة بارزة عند المدخل الرئيسي يشير إلى أكثر الاتحادات رخصاً ووضاعة. وبين فترة وأخرى وبلباقة تزيد حيناً وتنقص حيناً آخر يلفت أصدقاء السيدة موبنغ نظرها إلى عينات من منازل التمريض الساحلية حيث "أطباء مؤهلون مع مساحات خاصة وكبيرة تتناسب مع مهمة العناية بالحالات الصعبة". لكنها كانت لا تلقي بالاً يذكر. عندما يبلغ ابنها سن الرشد يمكن أن يقوم بما

يراه مناسباً أما في هذه الائتاء فإنها لا تميل إلى تخفيف نظامها الاقتصادي. لقد خدعا زوجها في اليوم الذي تطلعت فيه دون بقية أيام السنة إلى مساندة مخلصة وهو في وضع أفضل مما يستحقه.

كان هناك القليل من الأشخاص المنفردين من يلبسون معاطفاً ثقيلة يمشون بثائق وخطوات واسعة حول المنتزه.

"أولئك هم مجانيين الطبقة الوسطى" علقت الأم "هناك حديقة أزهار جميلة جداً وصغيرة لأناس كأبيك. لقد أرسلت لهم بعض الشلالات السنة الماضية".

مررت سيارتهما بواجهة المبني ذات القرميد الأصفر والخالية من المنافذ عندما اتجهت إلى مدخل الطبيب الخاص حيث استقبلهم الطبيب في "غرفة الزوار" المعدة لمقابلات من هذا النوع.

كانت نافذة الغرفة محمية من الداخل بتشابك من القضبان والأسلاك. لم يكن هناك موقد نار وعندما حاولت أنجليلاً أن تزيد من المسافة الفاصلة بين كرسيها والشوفاج أدركت أن كرسيها تم تثبيته بالأرض بواسطة المسامير والبراغي.

قال الطبيب: "اللورد موبنخ على أهبة الاستعداد لرؤيتك".
فكان السؤال: "كيف حاله".

"أوه، بخير، يسرني أن أقول إنه فعلاً بخير كثير. صحيح أنه أصيب بزكام كريه جداً فيما مضى من الوقت لكنه عدا ذلك في حالة ممتازة حتى أنه يمضي كثيراً من وقته في الكتابة".

ترامي إلى سمعهم صوت خطوات متثاقلة ووثابة قادمة عبر الممر المرصوف بالبلاط الحجري. كان الصوت خارج الباب لشخص ذي مزاج سيء لا يمكن إرضاؤه، وقد عرفت أنجليلاً أنه لو الدها إذ قال: "ليس لدى الوقت، أقول لك. دعهم يرجعون إلى هنا فيما بعد".

فجاء الرد من شخص ذي نغمة لطيفة ذات نبرة ريفية لا تكاد تذكر "عليك أن تأتي معي الآن. إنه جمهور رسمي بكل معنى الكلمة. ثم أنه ليس عليك أن تمكث أكثر مما يطيب لك".

ثم فتح الباب مدفوعاً (ليس فيه قفل، أو ما يثبته) ودخل اللورد موبنخ بصحبة

رجل كهل صغير الجسم يغطي البياض كامل شعره وينم وجهه عن مقدار عظيم من اللطافة.

"هذا هو السيد لوفدai مرافق اللورد موبنخ."

"بل سكريتيرi" قال اللورد موبنخ ثم اندفع يمشي الهوينا وصافح زوجته.

"هذه أنجيلا تذكرها، أليس كذلك؟"

"لا، يصعب على القول بأنني أتذكرها. ما الذي تريده؟"

لقد أتينا لرؤيتك.

"حسناً، لا تثريب عليكما غير أنكما جئتما في وقت غير مناسب إلى أبعد الحدود، فانا مشغول جداً. هل قمت بطبعاعة تلك الرسالة الموجهة إلى البابا بالوفدai؟"

"لا، ياسيدي. إن كنت تذكر فقد طلبت مني أن أبحث عن الأرقام المتعلقة بمصادن سمك نيوفاوندلاند قبل كل شيء."

"وهكذا فعلت، هذا من حسن الحظ حيث يجب إعادة كتابة مسودتها كاملة إذ ظهر مقدار عظيم من المعلومات منذ وقت الغداء. مقدار عظيم.. أتررين يلعزيزتي إنني مشغول تماماً."

ثم صرف عينيه القلتين والمضحكتين إلى أنجيلا قائلاً:

"أعتقد أنك جئت من قرب الدانوب حسناً يجب أن تعيدي الكرة وتأتي لاحقاً. أخبرهم أنها ستكون على مايرام، على مايرام بشكل تام، غير أنني لم أجده وقتاً لإعطائها اهتمامي الكامل، أخبرهم ذلك."

"حسناً جداً يا أبناه."

"على كل حال" قال اللورد موبنخ بمزاج يظهر سوء الطبيع "إنها مسألة الأهمية الثانوية. هناك ما يجب أن يتعامل معه قبل كل شيء مثل الألب والأمازون والتايغزر. أليس كذلك يا لوفدai؟.. دلنوب حقاً. نهر صغير كريمه. سوف لن أسميه إلا جدول مائي. حسناً، لا يمكن التوقف. كان لطفاً منكما المجيء. كنت سأعمل لكما المزيد لو استطعت لكن ترون بأم أعينكم كيف أنني ثابت. أكتبوا لى عنها. هذا كل شيء. ضعواها بالأبيض والأسود" قال ذلك وغادر الغرفة.

قال الطبيب: "أترون إنه في حالة ممتازة، إن وزنه يزداد ويأكل وينام ويؤدي كل هذا بشكل ممتاز. في الحقيقة، إن الاتجاه العام لنظامه ينأى عن اللوم".

فتح الباب من جديد وعاد لوفدai ثانية قائلاً "سيدي، التمس المعدرة لعودتي، لكنني كنت أخشى أنه ربما يصيب القلق صدر الفتاة لأن سيارته لم يعرفها. يجب أن لا تؤاخذيه. يا آنسة. المرة القادمة سيكون من دواعي سروره أن يراك. هو منزعج هذا اليوم فقط لأنه مقصراً في عمله. كما ترى ياسيدi فقد مر هذا الأسبوع كله وأنا أقوم بتقديم المساعدة في المكتبة، ولم يكن هناك متسع لأن أطبع كل تقارير سيادته.

لقد أصابه الارتباك في فهرس بطاقاته. هذا كل ما في الأمر ولم يكن ينوي ضرراً أو ضرراً."

"ياله من رجل لطيف" قالت أنجيلا عندما رجع لوفدai إلى العمل الموكل به. فرد عليها الطبيب قائلاً "حقاً، فأنا لا أعرف ماذا كان ينبغي أن نفعل لو لم يكن بيننا لوفدai الكهل. الكل يكن له المحبة سواء أفراد الإدارة أو المرضى". قالت السيدة موبنغ: "أذكره جيداً. إنه من المريح أن تعرف أنه باستطاعتك الحصول على سجينين جيدين كهؤلاء. الناس الذين لا يعلمون يقولون مثل هذه الأشياء السخيفة عن مشافي الأمراض العقلية" فقال الطبيب: "أوه، لكن لوفدai ليس سجاناً" فقلت أنجيلا: "لأنك تريد أن تقول أنه مجرون أيضاً" فرد عليها مصححاً: "إنه أحد نزلاء المشفى. إنها إلى حد بعيد حالة مثيرة للاهتمام لقد مضى عليه خمس وثلاثون سنة وهو هنا" قالت أنجيلا: "لكنني لم أر أحداً أعقل منه" فقال الطبيب بلا شك هو يملك في الظاهر هذا الإيحاء. وفي العشرين عاماً الماضية كنا نعامله على هذا الأساس. إنه روح هذا المكان وحياته. وهو بالطبع ليس من مرضى القسم الخاص لكننا نسمح له أن يختلط بهم بحرية. فهو يلعب البلياردو بشكل رائع ويقوم بالألعاب السحرية في الحفلات الموسيقية ويصلح أجهزة الحاكي (الفونوغراف) التي يملكونها ويقوم بخدمتهم ويساعدهم في حل الكلمات المتقاطعة والألغاز وفي هوائيات متعددة. ونحن بدورنا نسمح لهم أن يقدموا له بعض المال إكراماً لجهوده على الخدمات التي يقوم بها ولابد أن يكون الآن في حوزته ثروة صغيرة. وهو لديه طريقة خاصة في التعامل حتى مع أكثرهم إزعاجاً فهو لا يقدر بثمن في نطاق هذا المكان.

"هذا حسن، ولكن لم هو هنا".

"حسناً، إنه أمر محزن إلى حد بعيد، فعندما كان في ذروة شبابه قام بقتل شخص ما - أو فتاة لا يعرف عنها شيء على الإطلاق حيث قام بطرحها أرضاً بعد أن كانت على دراجتها ومن ثم كتم أنفاسها ليقضي عليها. بعد هذا مباشرة سلم نفسه وجاء إلى هذا المكان منذ ذلك الحادث".

"لكنه وبكل تأكيد غير مؤذ الآن. لم لا يترك وشأنه ليخرج من هنا؟".

"لم لا، أفترض لو أن هذا الأمر كان يهم أي أحد إذا لحدث ماتتحدثين عنه. فهو لا يقرب له سوى أخت غير شقيقة تعيش في بليماؤث كان من عادتها أن تزوره من وقت لآخر لكنها لم تتعهه منذ سنوات. وكونه في منتهى السعادة عندنا فأنا أؤكد لك أننا غير عازمين على أن نباشر بالإجراءات الأولى لإخراجه، فضلاً عن كونه عظيم الفائدة لنا".

قالت أنجيلا: "لكن هذا لا يبدو عدلاً".

"انظري إلى والدك، إنه ضائع تماماً لولا أن لوفدائي يعمل على أنه سكريتير".

"لكن هذا لا يبدو عدلاً".

-2-

غادرت أنجيلا المشفى يرافقها إحساس بظلم شديد الوطأة أما أنها فلم تظهر أي تغافل.

"فكري في أن أحداً ما قد أقفل عليه في صندوق من الجنون طوال حياته" فأجابتها أمها: "لقد حاول شنق نفسه في بيت البرتقال البلاستيكي أمام عائلة تشترير مارتن".

"لا أقصد والدي بالحديث إنما أقصد السيد لوفدائي".

"لا أظن أنني أعرفه" أجبت الأم. فردت عليها أنجيلا: "بلى، ذلك المعتوه الذي جعلوه يقوم برعاية أبي".

"سكريتير والدك. الذي يتصف بأعلى درجات التهذيب حسب ظني والمناسب بصورة فائقة في عمله".

في هذه الأثناء تركت أنجيلا هذه المسألة غير أنها عادت إليها اليوم التالي عند وقت الغداء. "أمي، ما الذي ينبغي القيام به لإخراج الناس من الصندوق (المشفى)؟".

"الصندوق؟ سبحان الله أيتها الطفلة. أمل أن لا تتوقعني رجوع أبيك إلى هنا" فردت أنجيلا: "لا، لا بل السيد لوفدai".

"تبدين مرتبكة لي تماماً يا أنجيلا. أرى أنه كان من الخطأ أن أخذك معـي في زيـارتـنا القصـيرة يوم أمس".

بعد الغداء اختفت أنجيلا لتظهر في المكتبة حيث غاصـتـ مباشـرةـ في قراءـةـ القوانـينـ المـتعلـقةـ بـالـجنـونـ وـالـمعـروـضـةـ فـيـ المـوسـوعـةـ. وـلـمـ تـعـدـ تـنـتـفـحـ هـذـاـ المـوـضـوـعـ مـعـ أـمـهـاـ،ـ وـلـكـنـ بـعـدـ أـسـبـوعـيـنـ وـعـنـدـمـ ظـهـرـتـ مـسـأـلـةـ أـخـذـ بـعـضـ طـيـورـ التـذـرـجـ إـلـىـ وـالـدـهـاـ بـمـنـاسـبـةـ حـفـلـةـ شـهـادـتـهـ الـحـادـيـةـ عـشـرـ أـظـهـرـتـ أـنـجـيـلاـ رـغـبـةـ غـيرـ عـادـيـةـ لـتـشـارـكـهـمـ فـيـ زـيـارـتـهـ.ـ أـمـاـ أـمـهـاـ فـلـمـ تـلـاحـظـ شـيـئـاـ مـرـيـباـ لـاـشـغـالـهـاـ باـهـتـامـاتـ أـخـرـىـ.

قادـتـ أـنـجـيـلاـ سـيـارـتـهاـ الصـغـيرـةـ مـتـوجـهـةـ إـلـىـ المـشـفـىـ وـبـعـدـ أـنـ سـلـمـتـ الطـيـورـ التي تم اصطيادـهاـ سـأـلـتـ عنـ السـيـدـ لـوـفـدـaiـ الـذـيـ كـانـ مشـغـولـاـ فـيـ تـلـكـ الأـثـنـاءـ بـصـنـعـ تـاجـ لأـحـدـ أـصـحـابـهـ إـذـ مـنـ المتـوقـعـ فـيـ كـلـ سـاعـةـ أـنـ يـمـسـحـ بـالـزـيـتـ عـلـىـ أـنـهـ اـمـبرـاطـورـ البرـازـيلـ.ـ لـكـنـ لـوـفـدـaiـ تـرـكـ عـمـلـهـ لـيـسـمـتـعـ بـعـدـ دـقـائقـ مـنـ الـحـدـيـثـ مـعـ أـنـجـيـلاـ حـيـثـ تـحـدـثـواـ عـنـ صـحـةـ الـأـبـ وـمـعـنـوـيـاتـهـ.ـ ثـمـ بـعـدـ بـرـهـةـ مـنـ الـوقـتـ،ـ وجـهـتـ أـنـجـيـلاـ مـلـاحـظـةـ قـائـلـةـ:ـ "أـلـاـ تـرـيدـ فـيـ وـقـتـ مـاـ أـنـ تـذـهـبـ بـعـيـداـ مـنـ هـنـاـ"ـ نـظـرـ السـيـدـ لـوـفـدـaiـ إـلـيـهاـ بـعـيـنـيـنـ يـجـمـعـانـ لـطـافـةـ وـزـرـقـةـ رـمـاديـةـ وـقـالـ:ـ "لـقـدـ اـعـتـدـتـ عـلـىـ هـذـهـ الـحـيـاةـ،ـ يـاـ أـنـسـةـ.ـ وـأـنـاـ مـغـرـمـ بـالـنـاسـ الـمـسـاكـينـ هـنـاـ وـأـظـنـ أـنـ العـدـيدـ مـنـهـمـ يـبـادـلـونـ الشـعـورـ نـفـسـهـ.ـ عـلـىـ الـأـقـلـ أـظـنـ أـنـهـمـ سـيـفـقـدـونـ إـذـاـ ذـهـبـتـ بـعـيـداـ عـنـهـ".ـ

"لـكـنـ أـلـمـ يـحـدـثـ مـرـةـ أـنـ فـكـرـتـ بـعـودـةـ حـرـيـتـكـ إـلـيـكـ مـرـةـ أـخـرـىـ".ـ

"أـوـهـ،ـ نـعـمـ يـاـ أـنـسـةـ فـكـرـتـ بـذـلـكـ أـكـادـ أـفـكـرـ بـذـلـكـ الـوقـتـ كـلـهـ".ـ

"ماـذـاـ سـتـفـعـلـ إـنـ خـرـجـتـ؟ـ يـجـبـ أـنـ يـكـونـ هـنـاكـ شـيءـ مـاـ لـتـفـعـلـهـ عـنـ خـرـوجـكـ لـاـ أـنـ تـبـقـيـ هـنـاـ".ـ فـتـمـلـمـلـ الرـجـلـ الـكـهـلـ مـظـهـراـ عـدـمـ الـأـرـتـيـاحـ وـقـالـ:ـ "حـسـنـاـ يـاـ أـنـسـةـ،ـ بـالـرـغـمـ مـنـ أـنـهـ يـبـدـوـ نـكـرـانـاـ لـلـجـمـيلـ فـإـنـيـ لـاـ أـسـتـطـعـ أـنـكـرـ ضـرـورـةـ تـرـحـيبـيـ بـنـزـهـةـ قـصـيرـ أـقـومـ بـهـاـ مـرـةـ وـاحـدةـ قـبـلـ أـنـ أـكـوـنـ أـكـبـرـ سـنـاـ مـنـ أـنـ أـسـتـمـتـعـ بـهـاـ.ـ أـتـوقـعـ

أنه لكل منا طموحاته السرية، وهناك شيء واحد أتمنى دائمًا لو استطعت تتفىذه: بجب أن لاتسأليني ما هو لن تستغرق وقتاً طويلاً. لكنني حقاً أشعر أنني لو فعلتها، فقط ليوم ما أو حتى عصر يوم ما إذا سأموت قرير العين. سأتمكن من الاستقرار مرة أخرى بشكل مريح أكثر وسأكرس نفسي لأولئك المجانين المساكين بقلب أكثر انشراحًا. نعم، إنني أشعر بذلك.

في عصر ذلك اليوم ذرفت عيناً أنجيلا الدموع وهي تغادر بسيارتها بعيداً وكان قولها: "يجب أن ينال نزهته القصيرة، بارك الله فيه".

-3

منذ ذلك اليوم ولمدة عدة أسابيع كان لأنجيلا هدف جديد في الحياة. لقد أحذثت تغييراً في ما اعتادت عليه من روتين منزلها مع ملامح توحّي بشغف الذهن وتأدب تحفظ وغير مألوف مما أصاب السيدة موبنخ بحيرة شديدة "اعتقد أن البنت عاشقة. أسأل الله فقط أن لا يكون ابن اينجبرستون الفظ."

كانت أنجيلا تقرأ في المكتبة كثيراً واستجوبت كل الضيوف الذين زعموا أن لديهم معرفة قانونية أو طبية وأظهرت حسن نية فانقة للسير الطاعن في السن رودرك لانغسكوت عضو البرلمان الممثل لهم. إن أسماء مثل "طبيب الأمراض العقلية" و"المحامي" و"موظفي الحكومة" كان لها في هذه الأثناء وقع الفتنة على أنجيلا الفتنة التي كانت من قبل من نصيب ممثل الأفلام والمصارعين المحترفين كانت امرأة تحمل قضية وقبل نهاية موسم الصيد، انتصرت في قضيتها. لقد نال السيد لوفدai حرية.

كان طبيب المشفى قد أبدى نفوراً لكنه لم يظهر معارضه حقيقة.

وقد قام السير رودرك بالكتابة إلى وزارة الداخلية، وتم توقيع الأوراق الضرورية، وأخيراً جاء اليوم الذي نال فيه السيد لوفدai موافقة لمغادرة المأوى الذي قضى فيه هذه السنوات الطوال والمليئة بالفائدة.

شهدت مغادرة لوفدai بعض مظاهر الاحتفال حيث كانت أنجيلا والسير رودرك يجلسان مع الأطباء على منصة الألعاب الرياضية وخلفهم اجتمع من المعهد كل من ظن أنه في قوى عقلية مستقرة بشكل يكفي لجعله يتحمل الإثارة.

مع القليل من التعبير المناسب في تعبيرها عن الأسف وبالنهاية عن المجلانين الأكثر ثراء قدم اللورد موبنغ للسيد لوفدai عليه سجائر ذهبية. أما أولئك الذين افترضوا كونهم أبطأ فقد غمروه بالنياشين وألقاب الشرف. وأهداء السجانون ساعة يد فضية بينما لم يجد النزلاء الذين لا يدفعون مالاً سوى الدموع التي انهمرت من العديد منهم يوم التقديم.

كانت الكلمة الرئيسية في عصر ذلك اليوم للطبيب الذي تكلم قائلًا: "تذكر أنك لن تترك وراءك إلا أحراً أمنياتنا الطيبة. إن روابطنا تربطك بنا لن يأتيها النسيان والوقت سوف يعمق شعورنا بأننا مدینون لك. وإن حدث فيما تستقبل من أيام وشعرت بأن حياتك ستدرك في هذا العالم فسوف يكون ترحيب بك دائم هنا. سيكون الباب مفتوحاً لعملك هنا".

وفي أثناء سيره إلى الطريق الرئيسية كان ما يقارب الاثنين عشر مجنوناً ذوي عاهات مختلفة يتبعونه بخطوات وثابة إلى أن فتحت البوابات الحديدية ليخطو السيد لوفدai في طريق الحرية. كانت حقيقته الصغيرة قد وصلت إلى المحطة من قبل، لذا اختار أن يمضي مأشياً. كان ملزماً للصمت فيما يتعلق بخطشهه أما الملل فكان مزوداً بنصيب واخر منه، وكان الانطباع العام أنه متوجه إلى لندن حيث ينال قسطاً من المتعة قبل أن يزور آخره غير الشقيقة المقيمة في مدينة بلماوث وما فاجأ الجميع هو عودته ضمن ساعتين من نيله لحريته وكانت لا تفارقها ابتسامة غريبة الأطوار، ابتسامة فيها الرقة واحترام الذات عند تذكر حدث قد مضى. وقد بين للطبيب قائلًا:

"لقد عدت من حيث ذهبت، وأظن أنني الآن باق هنا إلى الأبد".

"لكن يالوفدai ماهذه الإجازة القصيرة. أخشى أنك لم تكن تتمتع نفسك على الإطلاق".

"أوه، نعم ياسيدي. شكرأ لك ياسيدي. لقد ثلت الكثير جداً من المتعة. لقد كنت أمني النفس بلذة قصيرة لامثيل لها. صحيح أنها كانت قصيرة ياسيدي لكنها كانت أكثر إقناعاً. الآن سيكون في مقدوري الاستقرار ثانية في عملي دون أي أسف على شيء".

وفي أعلى الطريق وعلى بعد نصف ميل من بوابات مشفى الأمراض العقلية

اكتشفوا فيما بعد دراجة مهجورة. كانت هذه الدراجة ذات طابع أثري ملائمة لسيدة. كان يرقد في الخندق القريب من الدراجة تماماً جسد مخنوق لفتاة شابة اتفق سوء تسير بدراجتها إلى بيتهما لتناول وجبة الشاي - أن جاوزت السيد لوفدائي الذي كان وهو يمشي بخطىء واسعة يتأمل في هذه الفرصة السانحة له.

-تمت-



* إيفيلن واو (Evelyn Waugh) (1903-1966) روائي إنكليزي ولد في لندن ودرس في أكسفورد ولأنسدنغ. أمضى فترة الحرب العالمية الثانية في خدمة علم المملكة المتحدة مما أكسبه خبرة أصلية لتصوير الحرب في أعماله التي من أشهرها ثلاثة (الرجال والسلاح) و (الضباط والنبلاء) واستسلام غير مشروط). كتاباته فيها سخرية لاذعة لل المجتمع الذي لا يبال الغرور فيه فرصة التعبير عن القيم والأخلاق.

- العنوان الأصلي للقصة: *Mr. Loveday's Little Outing* من كتاب *The Penguin Book of Short Stories*.



Foreign Literature Quarterly
Year Twenty Fifth, Summer.
No.103 - 2000.

Contents

Editorial by Dr. Bouthaina Shaaban.

Essays:

1. Towards a national Strategy for Translation in the Arab World. By Ismael Abo Al Banadorah.
2. The influence of Arabic Language on contemporary spanish (language) by Willeam Eliot, tr by Dr. Muhamad Ali Dahish. Zeidan Mal allah and Mahmoud al Hawas.
3. The creative effect: Structural cribicism. By Ann Moral, Tr. By Birhimat Aissa.
4. Goethe , The world of Nature by salah Hatim.

Story

1. Nature's Law by Jack london. Tr. By Ratib Mustafa Raslan.



2. The obese Man by Raymond Karver. Tr. By Muhssin al khifajy.
3. The Eterual Soul by Vasili Bilou. Tr. By Atif kamil Abo Jamra.
4. The Idiot by Alfred Arndrish. Tr. By Adnan Habal.
5. The mysterious crime of Blanchard street , by kamilo khousseh Thella, tr. By Ali Ashkar.
6. The Robe. By Catherine Ann porter, tr. By Iad hassan jabier.
7. Prisoner of War. Radyard Kiplug. Tr. By twfiq al Asadi .
8. Mr . Loveday's Little Outing, by Evelyn Waugh tr. By Asa'd Al Saleh.

Poetry

1. The poets of demise, by Bithnel Alexander, tr . by rifat Atfeh.
2. near the Railway stabion. By Evor Shkiliasviski. Tr. By youssif Damrah.

□□

الآداب الأجنبية، العدد 103، صيف 2000

السنة الخامسة والعشرون

المحتويات :

افتتاحية : إلى اللقاء، د. بثينة شعبان

المقال :

- 1- نحو استراتيجية قومية للترجمة في الوطن العربي، بقلم: إسماعيل أبو البندرة.
- 2- أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة، تأليف: وليم اليوت، ترجمة: الدكتور محمد علي داهش. زيدان مال الله محمود الهوان.
- 3- من جانب الأثر الإبداعي "النقد البنوي": تأليف: آن مورال. ترجمة: بريهمات عيسى.
- 4- غونه عالم طبيعة، بقلم: صلاح حاتم.

الشهر :

- 1- من قصائد التلاشي، تأليف: بيشتت أليكساندر. ترجمة: رفعت عطفة.
- 2- قرب السكة الحديد، تأليف: إينغور شكلياز فيسكي، ترجمة: يوسف ضمرة

القصة :

- 1- سنة الطبيعة، جاك لندن، ترجمة: راتب مصطفى رسنان.
- 2- الرجل البدين، ريموند كارفر، ترجمة: محسن الخفاجي.
- 3- الروح خالدة، فاسيلي بيروف، ترجمة: عاطف كامل أبو حجرة.
- 4- التبل، ألفريد أندرش، ترجمة: عذنان حبال.
- 5- جريمة شارع بلا نشار الغامضة، كاميلو خوسيه ثيلا، ترجمة: علي أشقر.
- 6- الحبل، كاثرين آن بورتر، ترجمة: إيلاد حسن جبير.
- 7- الأسير، راديارد كيلينغ، ترجمة: توفيق الأسد.
- 8- النزهة القصيرة للسيد لووذاي - قصة: إيفيلن واو - ترجمة: أسعد الصالح.



الاتحاد العربي لكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
دمشق DAMASCUS

AL-ADAB AL-AJNAABIYYA

(Foreign Literature Quarterly)

العدد 103 صيف 2000 السنة الخامسة والعشرون

Responsible director

Dr. ALI OKLA ORSAN

Editor

QAMAR KAYLANI

Executive Editor

Dr. BOUTHAINA SHAABAN

Editorial Board

Dr. ABDO ABBOUD

Dr. JAMAL CHEHAYED

RIFAAT ATFE

Dr. NADIA KHOST

ARAB WRITERS UNION – DAMASCUS, SYRIA

AL-ADAB AL-AJNAABIYYA
(Foreign Literature Quarterly)
NO. 103



مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

السعر ٢٥ ليرة سورية
وفي البلاد العربية ٣٥ ل.س أو ما يعادلها